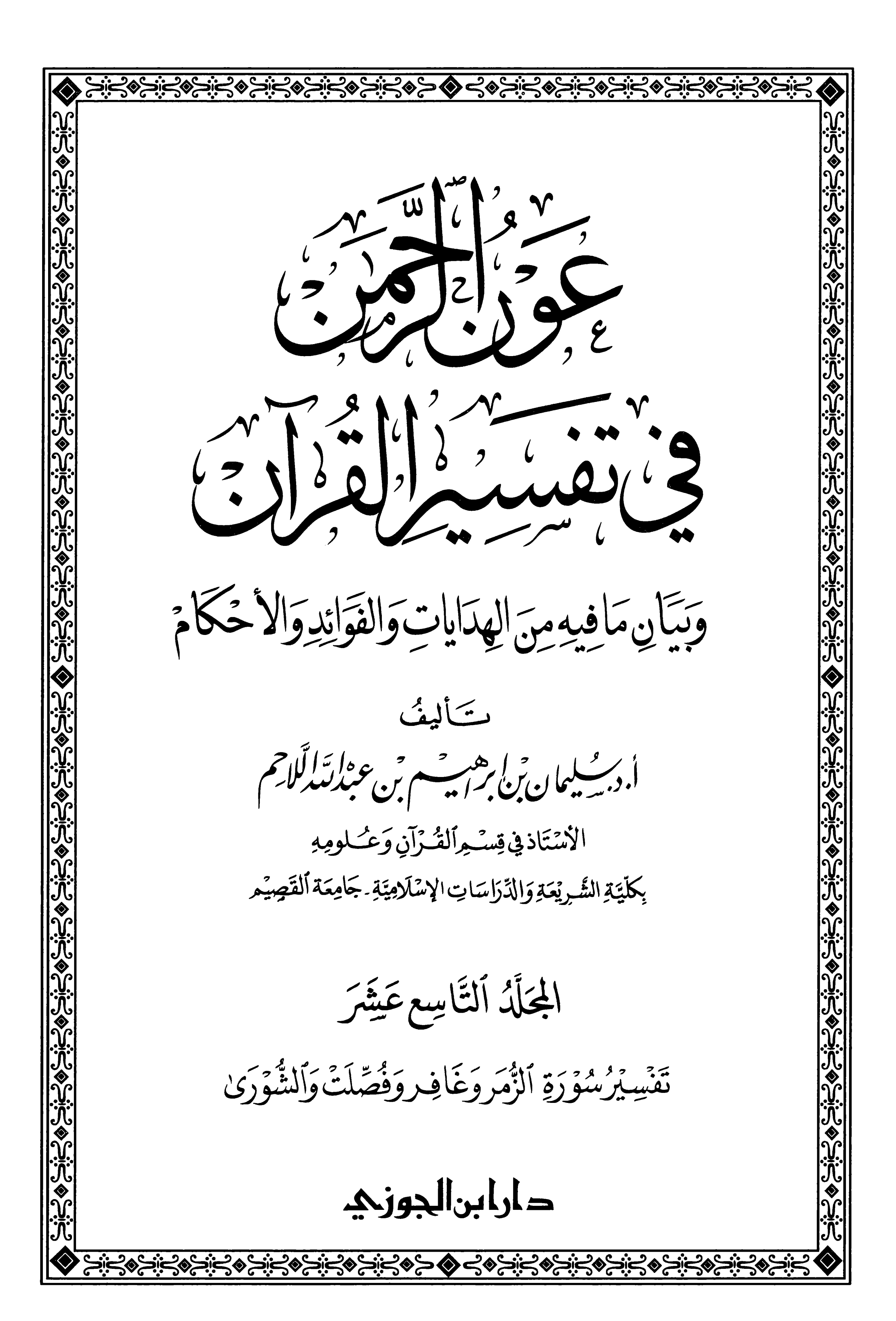


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

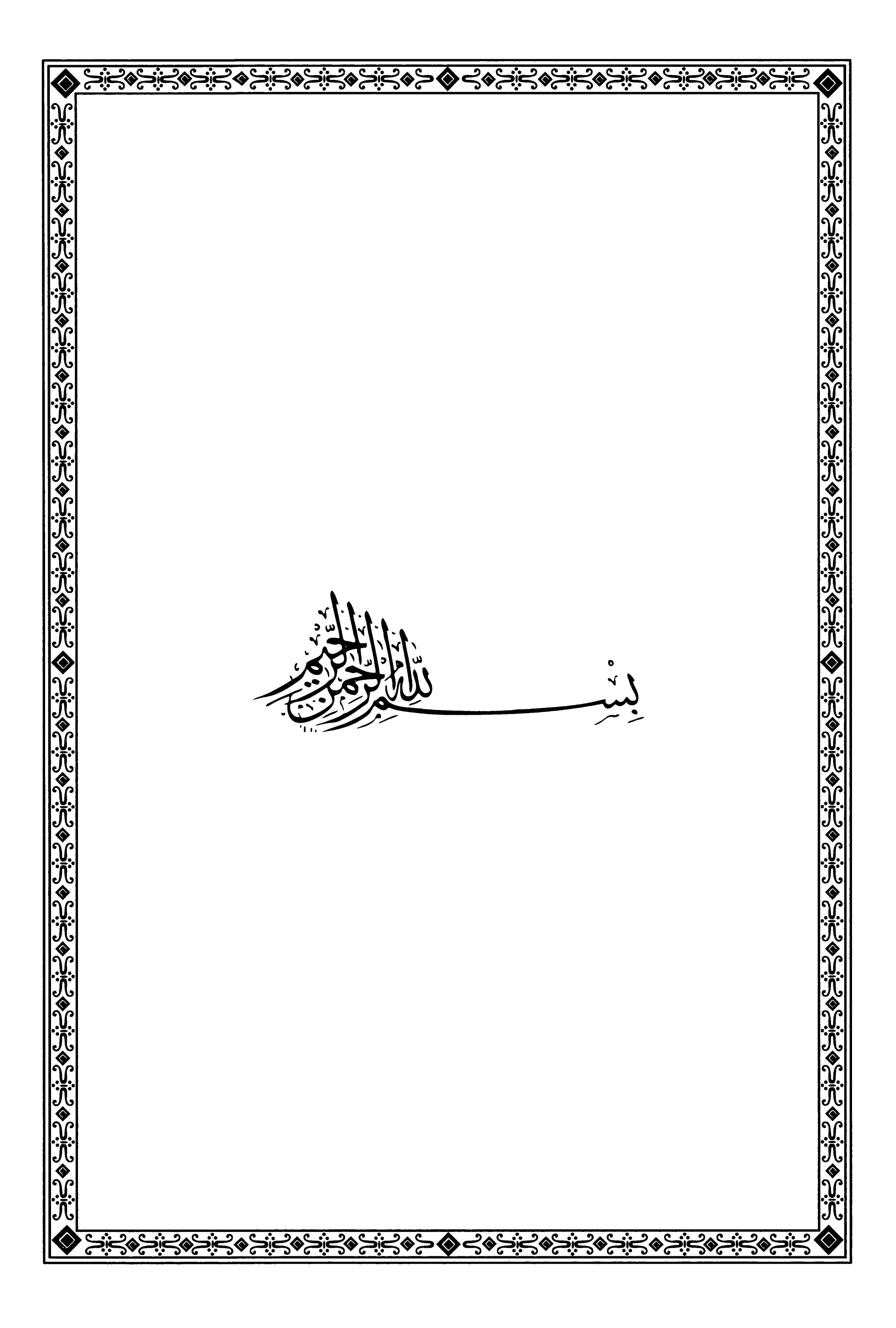
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

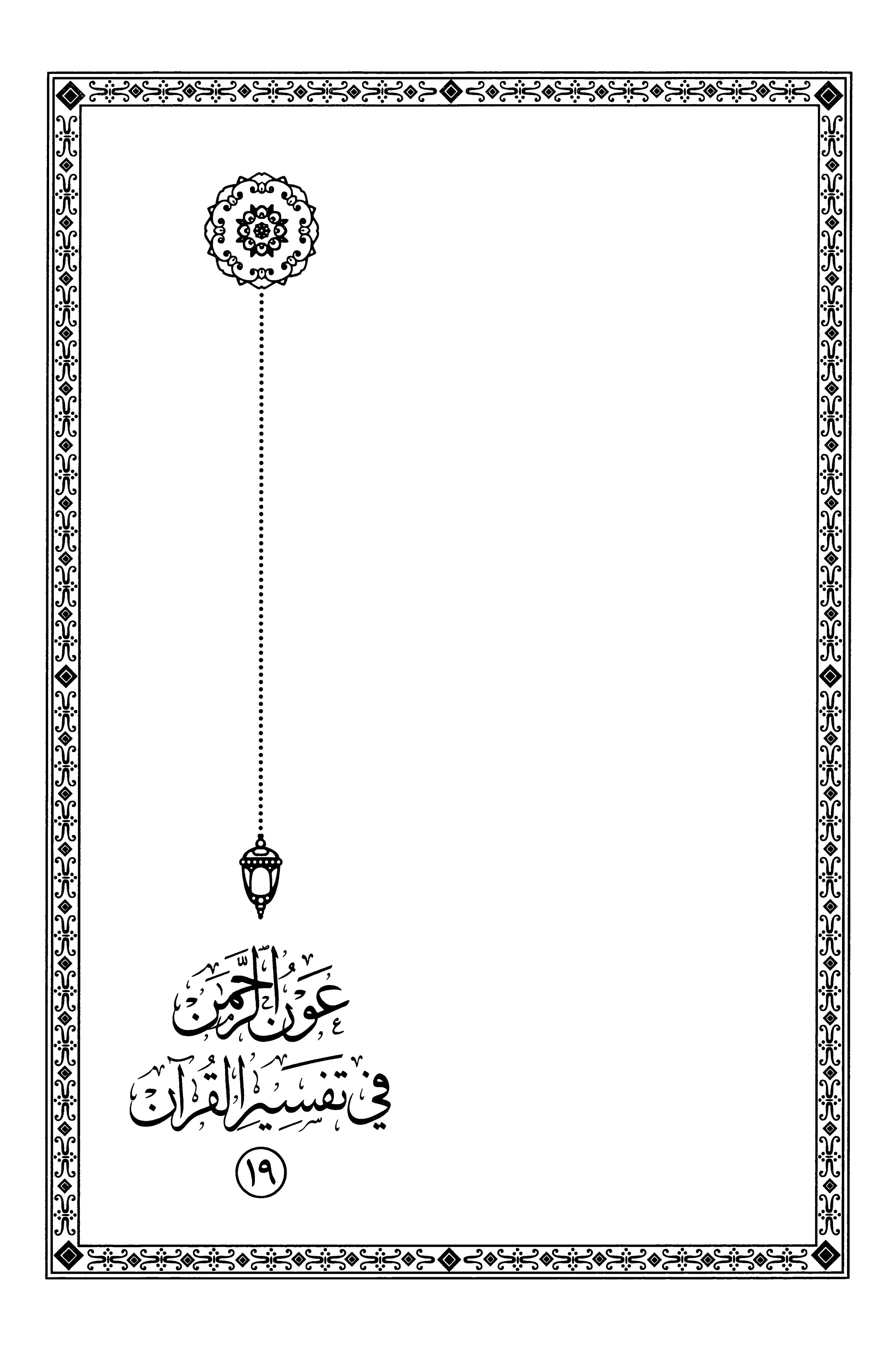
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد التاسع عشر

تفسير سورة الزمر وغافر وفصلت والشورى

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٩

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٢٥ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

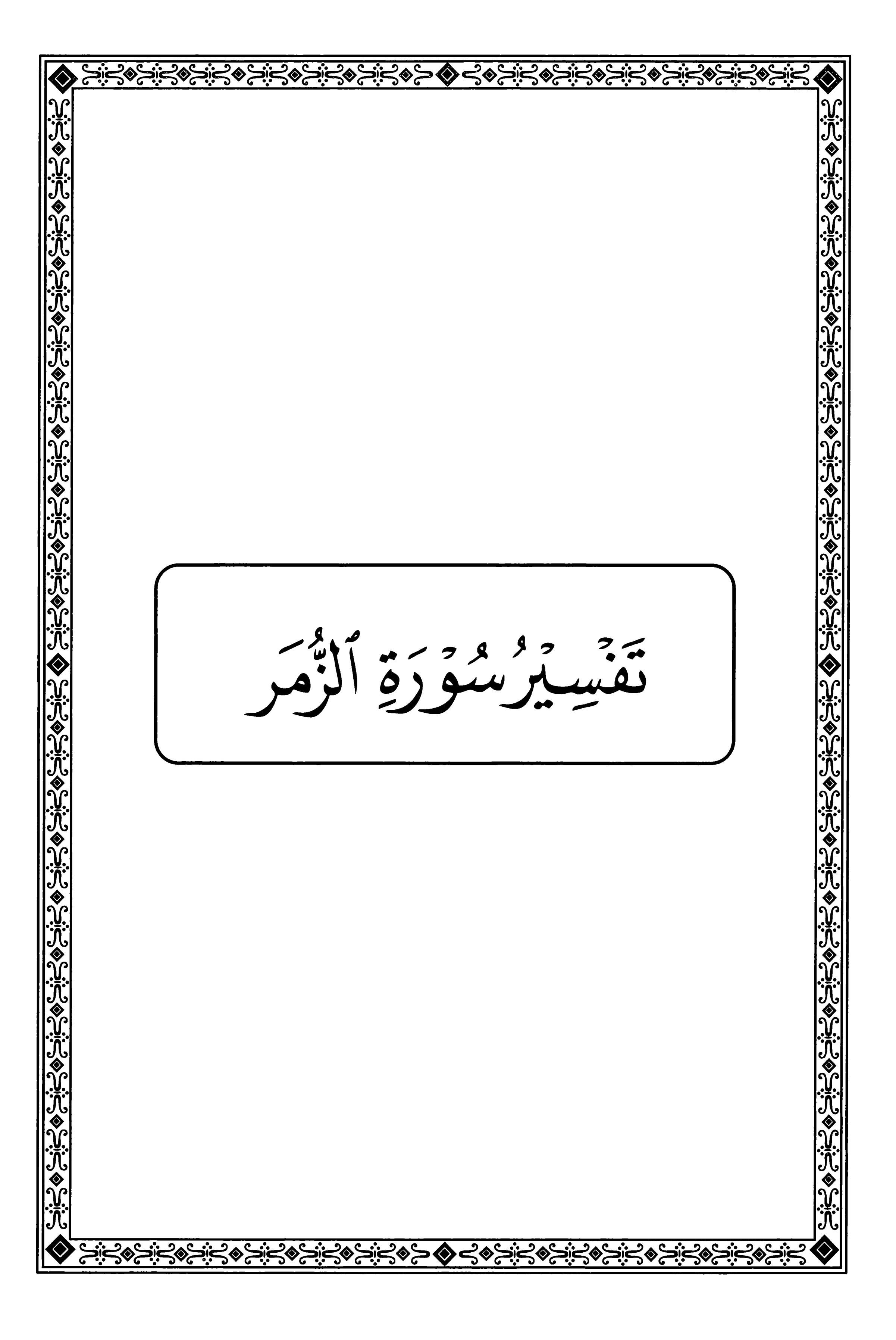
لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

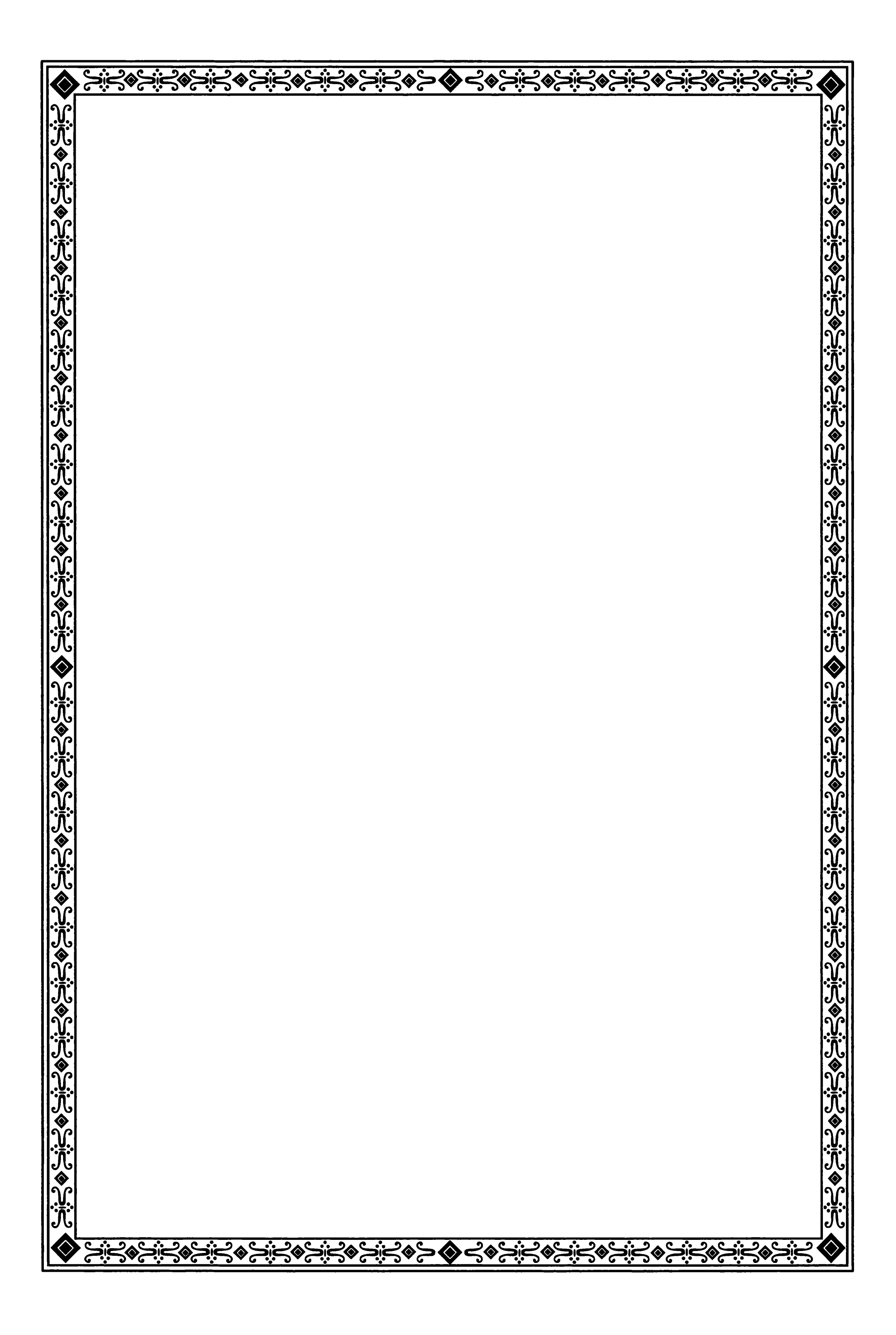
aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَر



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الزمر»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية: ٧١]، وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الآية: ٧٣].

وتسمى: «سورة الغُرَف»، لقوله تعالى فيها: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ [الزمر: ٢٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل**»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الغرف: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]»[2].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الزمر بتعظيم القرآن الكريم والثناء على الله عز وجل وإثبات تنزيله القرآن من عنده، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ بالحق ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

٢- وجوب عبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، لاختصاصه بذلك، وبطلان ما يتخذه المشركون من دونه من أولياء يعبدونهم ويزعمون أنهم وسائط بينهم وبين الله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٠٥، وأحمد ٦/ ١٨٩.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٩- ونسبه للطبراني.

﴿هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾.

٣- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالإناث ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾.

٤- إثبات عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وواسع ملكه، وسابغ نعمته ووحدانيته ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾.

٥- إثبات غناه عن خلقه فلا يضره كفر من كفر، ولا ينفعه إيمان من آمن، وإثبات عدله بين الخلائق ورجوعهم إليه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾.

٦- بيان أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه الله اللجوء إلى الله في الضراء، ونسيان ذلك في السراء: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾.

٧- لا يستوي من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؛ لإيمانه بالله ووعده، وبين من ليس كذلك؛ لكفره بالله وتكذيبه بوعده ووعيده: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾.

٨- ترغيب المؤمنين بتقوى الله والإحسان والصبر ووعدهم بالأجر في الدنيا والآخرة ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾.

٩- تأكيد الأمر بعبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، وتهديد المشركين، وبيان خسرانهم الخسران المبين وما لهم من شديد العذاب في النار ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ

ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

١٠- البشارة للذين اجتنبوا الشرك وأنابوا إلى الله تعالى ووحدوه واتقوه والثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية: ٢٠].

١١- تقرير قدرته عز وجل على إنزال الماء من السماء، وإخراج الزرع به والنبات، ثم هيجان ذلك واصفراره وتحطمه، ودلالة ذلك على تمام قدرته تعالى على إحياء الموتى، وعلى زوال الدنيا وفنائها، وذكرى لأولي الألباب.

١٢- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وبين من قسى قلبه من ذكر الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

١٣- امتنانه عز وجل بإنزال القرآن أحسن الحديث وامتداحه له، والثناء على من ينتفعون به ويهتدون: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

١٤- تهديد ووعيد المكذبين الظالمين بشدة عذابهم يوم القيامة وتقريعهم وتوبيخهم كما عذب الله المكذبين قبلهم: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٥- الامتنان على الناس بضرب الأمثال في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٦- أن الموت مكتوب على كل حي من الخلق، ثم يبعثون يوم القيامة، وعند ربهم يختصمون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٧- ذم من كذب على الله وكذب بالصدق، وتوعده بجهنم مثوى الكافرين، وامتداح الذي جاء بالصدق صلوات الله وسلامه عليه، والذي صدق به وهم المتقون المحسنون، وبيان عظم ما أعد لهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٨- تقرير كفايته عز وجل لرسوله ﷺ وحفظه له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

١٩- من يضلل الله فلا هادي له ومن يهد الله فلا مضل له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٠- الإنكار على المشركين عبادتهم آلهة من دون الله مع إقرارهم بربوبيته، وأنه الذي خلق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

٢١- تسليته ﷺ وأن مهمته إبلاغ الكتاب، وليس إليه هداية الخلق: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

٢٢- تصرف الله عز وجل بأنفس العباد وأرواحهم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٣- الإنكار على المشركين اتخاذهم من دون الله شفعاء لا يملكون شيئًا ولا يعقلون، وبيان ملكه عز وجل للشفاعة جميعًا، وللسموات والأرض: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٢٤- تفرده عز وجل بالخلق، وعلم الغيب والشهادة، والحكم بين العباد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٢٥- سوء عذاب الظالمين يوم القيامة وشدته: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٢٦- أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه أنه إذا أصابه ضر دعا الله فإذا خوله نعمة وكشف ضره نسب ذلك لعلمه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

٢٧- بيان سعة رحمة الله تعالى، ودعوته لمن أسرف من عباده على نفسه بعدم القنوط من رحمته عز وجل، والإنابة إليه: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ

كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٢٨- تأكد كمال عظمته عز وجل وتمام قدرته: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٩- الإنكار على دعاة الشرك وذمهم، وبيان وجوب عبادة الله تعالى وحده وشكره، وخسران الذين كفروا بآيات الله وأشركوا به: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٠- إثبات النفخ في الصور مرتين، الأولى: نفخة الصعق والموت، والثانية لقيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾.

قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ «تنزيل»: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، و«تنزيل»: مضاف و«الكتاب»: مضاف إليه، و«الكتاب»: القرآن الكريم، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود في الأذهان، الذي إذا أطلق انصرف الذهن إلى القرآن الكريم؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأشرف الكتب على الإطلاق.

وسمي بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بأيدي المؤمنين بالمصاحف.

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ«تنزيل»، أو بخبره، أي: من عند الله عز وجل.

فهو كلامه عز وجل تكلم به سبحانه بحرف مقروء، وصوت مسموع، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، مجروران، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ولما ذكر عظمة القرآن، وعظمة من أنزله، ذكر شرف من أنزل إليه فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: أنزلنا إليك القرآن

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: متلبسًا بالحق مصاحبًا له في طريق وصوله إليك بأصح إسناد، تلقاه الروح الأمين جبريل عليه السلام عن الله عز وجل وأداه إلى النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

فليس في سنده انقطاع، ولا إرسال ولا غير ذلك، ولم يتعرض إلى أي تغيير وتبديل لحفظ الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥].

ومتلبسًا بالحق داعيًا إليه، ومشتملًا عليه؛ أخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥)﴾ [الأنعام:١١٥].

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط المسبب بالسبب، أي: فاعبد الله حال

كونك مخلصًا له وحده ﴿ٱلدِّينَ﴾، أي: التوحيد والعبادة والطاعة.

والإخلاص: التنقية، أي: مخلصًا له الدين من الشرك وشوائبه، داعيًا الناس إلى عبادته وحده والإخلاص له؛ ولهذا قال:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ «ألا» للتنبيه، والاهتمام، أي: ألا لله وحده استحقاقًا، واختصاصًا ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾، أي: العبادة والطاعة والتوحيد الخالص النقي من الشرك وشوائبه، وهذا تقرير للأمر بالإخلاص.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

لما أمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده نهى عن الشرك وذم المشركين وتوعدهم.

أي: والذين جعلوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: غيره ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أي: آلهة من الأصنام والأوثان يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: معتذرين ومعللين لعبادتهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، «ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، واللام: للتعليل، أي: إلا لأجل أن يقربونا ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: قربى، أي: ما نعبدهم إلا لأجل التقرب بهم إلى الله.

أي: لأجل أن يكونوا وسائط بيننا وبين الله، فيرفعوا حوائجنا إليه من طلب الرزق، والنصر، وكل ما ينوبنا، ويقربونا إليه ويشفعوا لنا عنده، وليست عبادتنا إياهم لاعتقاد منا أنهم يملكون من الأمر شيئًا، من خلق أو رزق أو غير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين، وبين الخلائق كلهم.

﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ﴾ من العقائد والأحكام وغير ذلك وأخذ حقوق بعضهم من بعض ومجازاة كل منهم بعمله، كما يفصل بين المشركين وبين معبوداتهم، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾، أي: لا يوفق لسلوك الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي هو كاذب في قوله، مكذب للآيات، ﴿كَفَّارٌ﴾ بها، منكر جاحد لها.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وأن الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«أراد»، أي: لو أراد الله اتخاذ، أي: لو أراد الله كونًا، أي: لو شاء أن يجعل ولدًا- كما قال المشركون: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء:٢٦].

وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«ما»: موصولة، أي: لاختار من الذي يخلقه، أي: من مخلوقاته.

﴿مَا يَشَآءُ ۚ﴾، أي: الذي يشاؤه؛ لأنه لا أحد يمنعه، له الخلق والأمر.

قال ابن كثير[1]: «أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه، ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١].

كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم».

﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: تنزيهًا لله عز وجل وتقديسًا وتعظيمًا عن الشريك والصاحبة والولد، وعن النقائص والعيوب.

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ «هو»: ضمير فصل للتأكيد والحصر، أي: هو المألوه المعبود حقًا وحده لا شريك له.

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله» مرفوعان.

﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾، أي: الأحد الفرد الصمد، ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وألوهيته

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٧٥.

وأسمائه وصفاته.

ولو كان له ولد لشاركه في الألوهية، والألوهية ليست إلا له وحده، ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأن الولد يماثل أباه، والله تعالى واحد لا ثاني له عز وجل.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء، ودان وخضع وذل له كل شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

نزه عز وجل نفسه عن الشريك والولد، وذكر تفرده بالوحدانية والقهر، ثم استدل على ذلك وبيَّنه بذكر تفرده بالخلق، وغناه عن الولد.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعدل والحكمة، ولعبادته وحده لا شريك له؛ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، أي: يُدوِّر ويَطْوي الليل على النهار، ويُدوِّر ويَطْوي النهار على الليل؛ لمصالح الخلق، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل الشمس والقمر؛ لمصالح العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾، أي: كل منهما يسير في فلكه بنظام متقن مقنن.

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى أجل، أي: غاية ووقت معلوم محدد، وهو انقضاء هذه الدنيا وخرابها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة:٧-٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾

[التكوير:١، ٢].

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ «ألا» للتنبيه والاهتمام، أي: ألا هو ذو العزة التامة والقوة والغلبة.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

وفي اقتران «العزيز» و«الغفار» كمال إلى كمال في أوصافه عز وجل، فمع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الخطاب لبني آدم، أي: قدّركم وأنشأكم أيها الناس من نفس واحدة، هي نفس أبيكم آدم عليه السلام، مع كثرتكم، واختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: ثم خلق منها زوجها حواء عليها السلام، خلقها عز وجل من نفس آدم، فهي مخلوقة منه.

وهي أيضًا: من جنسه، كل منهما بشر من البشر؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فلو كان أحدهما من فصيلة غير فصيلة الآخر ما حصل السكون بينهما.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١]، وقال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف:١٨٩، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وخلق وأوجد لكم من الأنعام، بقدره النازل منه رحمة بكم، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] أي: من المطر، وما يقدره الله لكم من الرزق وغير ذلك.

وسميت الأنعام بهذا الاسم؛ لما فيها من النعومة، ولما في مشيها من اللين.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، أي: ثمانية أصناف، ذكورًا وإناثًا، من الإبل، والبقر والضأن

والمعز، كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣، ١٤٤].

وخص الأزواج الثمانية- مع أنه عز وجل خلق وأوجد لمصالح عباده كثيرًا من البهائم غيرها- لكثرة منافعها، ولشرفها، واختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها كالأضحية والهدي والعقيقة، والدية، ووجوب الزكاة فيها دون غيرها من البهائم.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

لما ذكر ابتداء خلقهم من نفس واحدة، ذكر كيف تسلسل خلقهم.

أي: يقدِّركم وينشئكم في بطون أمهاتكم. والبطون: جمع بطن، سميت بذلك لخفائها، مقابل الظهور، و «أمهات»: جمع أم، وأمهة.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ «خلقًا»: مفعول مطلق، أي: خلقًا متطورًا، ينتقل من خلق إلى خلق آخر، أي: طورًا من بعد طور، من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم ينشئه خلقًا آخر.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد**»(١).

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ لا يصل إليها الضوء، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ذكر الملائكة ٣٢٠٨، ومسلم في القدر- كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٢٦٤٣.

وظلمة المشيمة، التي تكون كالغشاوة على الجنين؛ لوقايته وحمايته.

وهذا من عظيم عناية الله عز وجل به وحفظه له؛ لأن أشعة الضوء لو وصلت إليه لأثرت عليه وأفسدته.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي خلق السموات والأرض، ويكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر، والذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، ونقلكم في مراحل خلقكم طورًا من بعد طور، واعتنى بكم ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود ﴿رَبُّكُمۡ﴾: خالقكم ومالككم، والمتصرف فيكم، ذو العناية العظيمة التامة بكم.

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾، أي: له وحده خاصة الملك والتدبير؛ لأن من له الملك يملك الأعيان، والتصرف فيها وتدبيرها.

وأشار إلى نفسه عز وجل بإشارة البعيد «ذلكم»؛ تعظيمًا لنفسه، وبيانًا لعلو شأنه، وكماله في ذاته وصفاته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو، فكما أنه الواحد في خلقه وملكه وربوبيته، لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له.

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن عبادته، وتعبدون معه غيره، مع قيام الأدلة والبراهين على وحدانيته- أين يُذهب بعقولكم؟

﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾، أي: إن تكفروا أيها الناس بالله، وبما أوجب عز وجل الإيمان به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، أي: لا يضره كفركم، كما لا ينفعه إيمانكم؛ لأنه سبحانه الغني عما سواه من الخلق كلهم، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل**

واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[1].

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، أي: لا يرضى ولا يحب لعباده عامة الكفر، ولا يريده منهم شرعًا؛ لأنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة؛ ولهذا نهاهم عنه، رحمة بهم ومحبة للإحسان إليهم، وهذا لا ينافي تقديره الكفر على من كفر منهم، وإرادته منهم كونًا.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ فتؤمنوا بالله وتطيعوه، ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ «يرضه»: جواب الشرط «إن» مجزوم بحرف العلة، وأصله: «يرضاه»، وضمير الهاء يعود إلى الشكر، أي: وإن تشكروا بالإيمان والطاعة يرضى ذلك لكم؛ لأنه خلقكم لذلك، ولأن فيه سعادتكم في دينكم ودنياكم وأخراكم؛ ولهذا أمركم بذلك رحمةً بكم ومحبةً للإحسان إليكم، وإثابتكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: ولا تحمل أيُّ نفس، ﴿وَازِرَةٌ﴾، أي: مكلفة قابلة لحمل الوزر وهو الإثم والذنب ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: إثم وذنب أيِّ نفس أخرى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وحده ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ كلكم، من كفر منكم، ومن شكر، أي: مصيركم ومردكم بعد موتكم وبعثكم يوم القيامة.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملونه، أو بعملكم، أي: فيخبركم بأعمالكم وجزائها.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله، أي: لعلمه بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما تكنه وتسره من المعتقدات والمضمرات.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات:١٠].

---

(١) سبق تخريجه.

وعلمه عز وجل بالظاهر من باب أولى.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: وإذا أصاب الإنسان، أي: الكافر.

﴿ضُرٌّ﴾ نكرة في سياق الشرط، أي: أيَّ ضر، من مرض أو فقر، وشدة وكرب، ونحو ذلك، في نفسه أو أهله أو ولده.

﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، أي: تضرع إلى ربه وحده، لكشف ضره.

﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: راجعًا تائبًا إليه، مستعينًا به وحده على إزالة ما أصابه.

ودعاه بوصف الربوبية معتقدًا أنه وحده الرب الذي يملك جلب النفع وكشف الضر، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ النمل:٦٢.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾، أي: إذا أعطاه ومنحه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف عز وجل ما أصابه من ضر، وأسبغ عليه نعمته.

﴿نَسِيَ﴾، أي: ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ «ما»: اسم موصول يعود إلى الله، وكذا الضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الله، أي: نسي وترك الذي كان يدعو إليه من قبل؛ لكشف ضره، وهو «الله»، وغفل عنه.

ونسي أيضًا ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: شركاء وأمثالًا، فلم ينسهم، ولم يغفل عنهم، يعبدهم من دون الله.

﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء: ﴿ليَضل﴾، أي: ليضل بنفسه، وهو إذا ضل أضل الناس بدعوتهم إلى الضلال، إما بمقاله، أو بحاله.

وقرأ الباقون بضم الياء: ﴿ليُضل﴾، أي: ليضل الناس بعدما ضل بنفسه.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يَضل ويُضل الناس عن سبيل الله، أي: عن صراطه المستقيم، وطريقه القويم، الموصل إليه، وإلى مرضاته وجنته، وهو دين

الإسلام.

﴿قُلۡ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾ الخطاب لمن حاله ما ذكر: الإخلاص والإنابة حال الضراء، والشرك في حالة السراء.

والتمتع: الانتفاع المؤقت، أي: تمتع متلبسًا بكفرك، أو بسبب كفرك.

﴿قَلِيلًاۖ﴾، أي: مدة حياتك القليلة في هذه الدنيا الحقيرة الفانية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦].

والمراد بالأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾: التهديد والوعيد؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تعليل لما قبله، أي: فلا يغنيك ولا ينفعك ما تتمتع به؛ لأنك من أصحاب النار الملازمين لها الخالدين فيها.

وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لكل من كان هذا طريقه ومسلكه.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان:٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد:١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه سبحانه، وتعظيمه، وأنه نزل مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

٣- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

٤- أن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الكتب التي بأيدي الملائكة كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لهذا سمي: «الكتاب».

٥- أن القرآن الكريم هو أفضل الكتب على الإطلاق؛ لأنه إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إلى القرآن الكريم.

٦- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، بالإظهار مقام الإضمار بقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ووصف نفسه بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بضمير الجمع؛ تعظيمًا لنفسه.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز» وأنه سبحانه ذو العزة التامة: عزة القوة وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٨- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وأنه سبحانه ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٩- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال، فعزته وقوته مقترنة بالحكمة، وحكمته وحكمه كل منهما مقترن بالعزة والقوة.

بخلاف الخلق الضعاف، فإن وجدت فيهم من فيه شيء من العزة والقوة، وجدته غشيمًا غير حكيم، وإن وجدت فيهم حكيمًا، وجدته ضعيفًا، وقل منهم من تجتمع فيه القوة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

١٠- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بإنزال الكتاب إليه، وخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ متلبسًا بالحق، فسنده أصح الأسانيد، تلقاه جبريل عليه السلام من الله عز وجل، وأداه إلى النبي ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص العبادة والطاعة له وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا أمر له ﷺ، وهو العابد المخلص، ولا غضاضة في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

والأمر في الآية له ﷺ ولأمته.

١٣- أن لله عز وجل- وحده- الدين والتوحيد الخالص من الشرك وشوائبه، فمن أشرك مع الله غيره فعبادته باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[1].

١٤- ذم الذين اتخذوا غير الله أولياء يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم، ويزعمون أنهم يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم عنده، وإيذانهم، وتهديدهم بحكمه عز وجل بينهم فيما هم فيه يختلفون، ومجازاتهم بأعمالهم، والفصل بينهم وبين معبوداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

١٥- إقرار المشركين بأنهم يعبدون أصنامهم؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

١٦- اعترافهم بوجود الله، وأنه أعظم من معبوداتهم، وأنه الذي بيده النفع والضر.

١٧- حرمانه عز وجل من هداية التوفيق من كان وصفه الكذب والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وفي هذا تحذير من الكذب والكفر، وترغيب بالصدق والإيمان.

١٨- نفي أن يكون له تعالى ولد، وبيان أنه سبحانه لو أراد أن يجعل له ولدًا لاختار من خلقه الذي يشاؤه، لكنه عز وجل لا يريد ذلك؛ لكمال غناه، لعدم حاجته إلى أحد من خلقه، وافتقار الخلق كلهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

١٩- إثبات صفة الإرادة الكونية والمشيئة لله تعالى، وهما بمعنى واحد؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾.

٢٠- كمال سلطانه عز وجل وتفرده بالخلق والملك والتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢١- تنزيه الله تعالى عن الشريك، وعن الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٢٢- إثبات أنه- عز وجل- هو المعبود حقًّا وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوحدانية، الواحد الأحد الفرد الصمد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء، وخضع ودان له كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

٢٥- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد»، و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين الوصفين في حقه عز وجل؛ لأن من يتصف وحده بالوحدانية لا بد أن يكون قهارًا، ومن يتصف وحده بالقهر لا بد أن يكون واحدًا.

٢٦- إثبات تفرده عز وجل بالخلق والتدبير والملك، وعظمته وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

٢٧- أن السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الأشياء كلها مخلوقة، خلقها الله وأوجدها بعد العدم، وليس منها شيء أزلي، كما يقول الفلاسفة والطبائعيون.

٢٨- أن الله خلق السموات والأرض، والخلق كله بالحق والعدل؛ ليعبده الخلائق، ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات.

٢٩- أن من أعظم المخلوقات السموات والأرض؛ لهذا قدمت في الذكر في الآية.

٣٠- نعمة الله تعالى وتمام قدرته في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى يوم القيامة، وما في ذلك من المصالح العظيمة للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾.

٣١- إثبات كروية الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ فإذا كان تعاقب الليل والنهار على الأرض وسيرهما يسمى تكويرًا دل على أنها كروية، وهذا هو الصحيح.

٣٢- إثبات جريان الشمس والقمر، والرد على من قال: بأن الشمس والقمر ثابتان.

٣٣- الإشارة إلى فناء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾.

٣٤- إثبات اسم الله «الغفار»، وأنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة لذنوب التائبين من عباده مهما كثرت وعظمت؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

٣٥- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفار» دلالة على كمال أوصافه وعظمته، فمع عزته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

٣٦- أن الناس خلقوا كلهم من نفس واحدة، أي: من آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.

٣٧- أن حواء- عليها السلام- خلقت من آدم، وجعلت من جنسه، من تمام قدرته عز وجل، وعظيم منته على العباد؛ ليسكن كل من الزوجين إلى الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.

٣٨- امتنانه عز وجل في خلق الأزواج الثمانية من الأنعام، وما فيها من المصالح والمنافع العظيمة للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾.

٣٩- عناية الله تعالى في خلق الإنسان، ونقله في مراحل وأطوار خلقه، من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾.

٤٠- حفظه عز وجل للإنسان في بطن أمه من كل شيء يؤثر عليه، حتى من الضوء؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾.

٤١- تفرده عز وجل بالربوبية واختصاصه بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾.

٤٢- إثبات تفرده عز وجل وحده بالألوهية، ووجوب عبادته وحده، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

٤٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾، وقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾.

٤٤- الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

٤٥- غنى الله عز وجل التام عن خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، وإنما أمرهم عز وجل بعبادته لحاجتهم إلى ذلك ومنفعتهم.

٤٦- أن الله عز وجل لا يرضى ولا يحب لعباده الكفر؛ لأن فيه شقاءهم وعدم سعادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾.

٤٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾.

٤٨- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِ﴾.

٤٩- رضاه عز وجل لعباده أن يشكروه، فيؤمنوا به ويطيعوه؛ لمحبته الخير والسعادة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾.

٥٠- التحذير من الكفر والترغيب في الشكر، وذم الكفر، وبيان فضيلة الشكر.

٥١- تمام عدل الله عز وجل في حساب الخلائق، فلا تحمل نفس إثم نفس أخرى، بل يجازى كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾.

٥٢- أن الإثم إنما يتحمله من كان قابلًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ والوازرة هي التي تكون أهلًا لتحمل الوزر، وهي المكلفة.

وفي الحديث: «**رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق،**

والصغير حتى يبلغ»[١].

٥٣- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى ربهم، وإخباره إياهم بأعمالهم كلها، ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ولم يقل: فينبئكم بجزاء ما كنتم تعملون، أو بجزائكم؛ لإفادة أن الجزاء من جنس العمل.

٥٥- علم الله تعالى التام بما تكنه الصدور والقلوب من المعتقدات والأسرار والمضمرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وعلمه عز وجل بالظواهر من باب أولى.

٥٦- الإشارة إلى أن العبرة بصلاح القلوب، إذ بصلاحها تصلح الأجساد.

٥٧- ذم الكافر؛ لأنه لا يعرف ربه إلا عند الضرورة، فإذا مسه ضر دعا ربه، وتضرع إليه؛ لكشف ضره، منيبًا إليه، وإذا أنعم عليه، وكشف عنه ضره نسيه، ونسي ما كشفه عنه من الضر، وارتكس بالشرك؛ ليَضل ويُضل عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٥٨- أن الكفار يؤمنون بالله وبربوبيته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

٥٩- أن الله عز وجل يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا؛ لأن رحمته عز وجل تسبق غضبه، كما يجيب دعوة المظلوم ولو كان كافرًا؛ إحقاقًا للحق والعدل، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»[٢].

٦٠- أن الله تعالى هو وحده كاشف الضر، ودافع النقم، وجالب الخير، ومسبغ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٨، ومسلم في الإيمان ١٩، وأبو داود في الزكاة ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة ٦٢٥، وابن ماجه في الزكاة ١٧٨٣- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النعم.

٦١- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ﴾ فنسب المس إلى الضر نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى مع أنه بتقديره عز وجل، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾، فنسب النعمة إليه عز وجل.

٦٢- أن جعل الأنداد لله تعالى ضلال وكفر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، وقوله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾.

٦٣- الحذر من أهل الضلال؛ لأنهم قدوات سيئة بأقوالهم وأفعالهم.

٦٤- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن سلك هذا المسلك وأشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

٦٥- أن من كان مصيره النار والخلود فيها لا يغنيه ولا ينفعه ما تمتع به من متاع الدنيا.

وفي الحديث: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله، يا رب**»[١].

٦٦- أن الدنيا كلها ومتاعها قليل بالنسبة إلى الآخرة.

٦٧- إثبات وجود النار وعذابها، وملازمة أهلها لها، وخلودهم فيها.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١- من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم: ﴿أَمَنْ﴾.

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿ أَمَّنْ ﴾: مركبة من «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ومِنْ «مَنِ»: الموصولة.

أي: أمّن هو قانت: مطيع خاشع خاضع لله تعالى، ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أوقات الليل وساعاته، كما شرع الله تعالى، بقيام الليل كله، كما في العشر الأخيرة من رمضان، وبقيام ثلث الليل وسدسه، كما هو قيام داود وقيام نبينا عليهما الصلاة والسلام[1].

﴿سَاجِدًا﴾ حال، أي: مصليًا، ساجدًا على أعضائه السبعة، خاضعًا لله متذللًا له.

﴿وَقَآئِمًا﴾ معطوف على ﴿سَاجِدًا﴾، أي: قائمًا لله تعالى يصلي.

وخص السجود والقيام؛ لأن السجود والقيام؛ لأن السجود أشرف أعمال الصلاة

---

(١) انظر تفسير مطلع سورة المزمل.

من حيث هيئته، والقيام أفضلها من حيث ذكره.

﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ الجملة: حالية، أي: حال كونه يحذر الآخرة، أي: يخاف الدار الآخرة والقيامة وأهوالها، والنار وعذابها.

﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، أي: ويؤمّل أن يرحمه ربه برحمته الواسعة، فيزحزحه عن النار، ويدخله الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(١).

وهذه الحال- وهي الجمع بين الخوف والرجاء- أفضل الأحوال.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك**»؟ قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمّنه مما يخاف**»(٢).

وقد أحسن القائل:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجل مما به أنت عارف

يخاف ذنوبًا لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف(٣)

والمراد: أفمن هذه صفته، كمن هو كافر مشرك، عاص لله، مكذب بالآخرة، لا يخاف عذابها ولا يؤمن بربه ولا يرجو رحمته، شتان بين هذا وهذا.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران:١١٣]؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١-وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) البيتان لابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف القرطبي. انظر: «نفح الطيب» ٢/ ١٢٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٤.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يستوي الذين يعلمون وهم أهل العلم بالكتاب والسنة، والفقه في الدين، العارفون بالله وما يجب له، العاملون بعلمهم، الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

وليس المراد بالذين يعلمون الذين حفظوا كثيرًا من العلوم والمتون الشرعية وغيرها وأحاطوا بكثير من المعارف، مع الجهل بربهم، وعدم المعرفة بحقه وما يجب له، كما هو حال كثير من المتشبعين بالعلم، علماء الشهرة والدرهم والدينار، وما أكثرهم، والذين هم أول من تسعر بهم النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جرئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.**

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ثم ذكر الثالث، وهو: رجل وسع الله عليه في المال، فكان ينفق؛ ليقال: جواد. قال: فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»[1].

وفي رواية قال ﷺ: «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة**»[2].

وقد أحسن القائل:

وعـــــالم بعلمـــــه لم يعملــــن   معــذب مــن قبــل عبّــاد الــوثن[3]

وقال الآخر:

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

(٢) أخرجها الترمذي، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زبد ابن رسلان» (ص٤).

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما[(١)]

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ وهم أهل الجهل بالله وحقوقه وما يجب له، المشركون به، المكذبون بالآخرة، المنكرون رحمة الله وجنته.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما يتذكر إلا أولو الألباب، ومعنى ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: يعتبر وينتفع بالمواعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، أي: أصحاب العقول السليمة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها- بتوفيق الله- إلى الحق، فيكونون في طليعة الذين يعلمون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: قل يا محمد مبلغًا عني: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ بجوارحكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وذلك لأن الإنسان في كل لحظة في حاجة إلى الإيمان والتقوى، والثبات على ذلك والاستزادة منه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء:١٣٦].

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: للذين أحسنوا خاصة، في هذه الدنيا، بالإخلاص بعبادة الله تعالى، واتباع شرعه، كما قال ﷺ في حديث جبريل: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٢)].

(١) البيتان للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٥٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣٥، «المستطرف» ١/ ٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

أي: أن تعبد الله كأنك تراه، طمعًا ورجاء فيما عنده، وتعبده لأنه يراك رهبة وخوفًا منه.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا-مع بذل الندى، وطلاقة الوجه، وكف الأذى.

﴿حَسَنَةٌ﴾ نكِّرت: للتعظيم، أي: حسنة عظيمة، من التوفيق، والسعادة، وسعة الرزق وانشراح الصدر وطمأنينة النفس، وطيب الحياة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: تعريض بالحث على الهجرة، وهي من جملة الإحسان المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

والإخبار بسعة أرضه عز وجل من جملة الحسنة التي وعد بها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، أي: فمن خرج مهاجرًا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، فسيجد سعة في الأرض وسعة في الرزق، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠](١).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾، أي: إنما يعطى الصابرون، الذين صبروا على طاعة الله تعالى، وعلى الهجرة في سبيله، وعن معصيته، وعلى أقداره ﴿أَجْرَهُم﴾، أي: ثوابهم في الآخرة، تامًا وافيًا.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وذلك؛ لفضيلة الصبر وعظم منزلته عند الله؛ لأنه عون على كل الأمور.

فوعدهم الله بالحسنة في الدنيا والأجر في الآخرة كما قال تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ

---

(١) راجع تفسير هذه الآية في سورة النساء.

﴿ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ [النحل:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة:٢٠١].

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾، أي: قل يا محمد: إني أمرت، أي: أمرني ربي، فأنا عبد مأمور له.

و«أن»، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بعبادة الله ﴿مُخۡلِصٗا﴾: حال، أي: حال كوني ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك وشوائبه.

أي: مخلصًا له التوحيد والعبادة والطاعة، وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى له في أول السورة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾، أي: أقوى المسلمين إسلامًا من جميع الأمم، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ولهذا قال ﷺ: «**أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**»(١).

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، أي: قل يا محمد إني أخشى.

﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾، المعصية: ترك المأمور، أو ارتكاب المحظور، ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وهو يوم القيامة، والشرط لا يدل على وقوع المشروط ولا على تحققه، وفيه تحذير لأمته من معصية الله تعالى.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ وحده ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ «مخلصًا»: حال، أي: منقيًا له﴿دِينِي﴾، أي: عبادتي وتوحيدي وطاعتي، من الشرك، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون:١-٦].

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨- من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ «ما»: موصولة، أي: فاعبدوا الذي شئتم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: غيره من المخلوقات، وهذا تبرؤ منهم وتهديد لهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة هم: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث حرموها بسبب كفرهم الثواب، وأوبقوها في العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:١٠] وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها**»(١).

﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾، أي: وخسروا أهليهم من أولادهم وأزواجهم؛ لكفرهم بسببهم.

ولا ينفعهم كونهم كلهم في النار؛ لأن أهل النار قد تقطعت بهم الأسباب فلا تواصل بينهم.

ويحتمل أن يكون سبب خسرانهم أهليهم كونهم في النار وأهليهم في الجنة.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، و﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ:٣٨]، يوم قيام الحساب، وقيام الأشهاد، وقيام العدل الحقيقي بين العباد.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ «ألا»: حرف تنبيه، والإشارة للمصدر المفهوم مما سبق، أي: لخسران الأنفس والأهل يوم القيامة.

﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ «هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هو الخسران البين الظاهر الواضح، الذي لا خسران أبين منه، ولا أظهر، الذي لا ربح بعده، بل، ولا سلامة.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾.

لما ذكر شدة خسران الكفار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، أتبع ذلك بذكر ما يحصل لهم من ألوان العذاب والشقاء في النار.

و﴿ظُلَلٞ﴾: جمع «ظلة»، كظلل الغمام والسحاب والدخان، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

أي: لهم من فوق رءوسهم أطباق محيطة بهم من النار، ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: ولهم من تحت أرجلهم ظلل، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت:٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: ذِكْر ما أعد لهم من هذا العذاب مما يخوف الله به عباده، ويحذرهم به ليتقوه ويطيعوه؛ ولهذا قال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ بفعل ما أمرتكم به وترك ما نهيتكم عنه، واخشوني واحذروا عذابي ونقمتي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

لما ذكر ما أعد للمشركين الخاسرين من العذاب الأليم، أتبعه بذكر ما أعد للموحدين المنيبين من البشرى بالجنة والنعيم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أي: تركوا الطاغوت وابتعدوا عنها.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع[1] في غير طاعة الله ورسوله. فيدخل فيه: الأصنام والأوثان، وكل من عبد من دون الله وهو راض، ونحو ذلك.

﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: تابوا ورجعوا إلى الله بإخلاص الدين له وحده لا شريك له.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾، أي: لهم خاصة البشرى، و«البشرى»: الإخبار بما يسر القلب ويفرح النفس، أي: البشارة العظيمة التي لا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وأكرمهم بها، في الدنيا

(١) انظر: «إعلام الموقعين» ١/ ٤٠.

والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٣-٦٤].

فلهم البشرى في الدنيا بالتوفيق والسعادة، والحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

ولهم البشرى عند الموت والاحتضار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

ولهم البشرى في القبر والبرزخ، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «ويأتيه رجل حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد»(٢).

ولهم البشرى في القيامة بالجنات، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ لما ذكر أن البشرى للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله خاصة، أمر بالتبشير لهم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، أي: فبشر عبادي، وحذفت الياء للتخفيف.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: يصغون إليه، والاستماع: متابعة المتكلم والإنصات والإصغاء إليه.

والمراد بـ«القول»: القرآن، و«ال»: للتعريف والعهد، أي: الذين يستمعون القرآن

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، يعني القرآن، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص:٥١-٥٣].

وهؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧، ١٠٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩].

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ القرآن كله أحسن، قد بلغ غاية الحسن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣].

ومعنى قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، أي: فيعملون بأحسن ما أمرهم به.

وذلك أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم فيه حسن وأحسن، فالقرآن أمر بفعل الواجبات والمستحبات، فالاقتصار على فعل الواجبات حسن، وفعل المستحبات مع الواجبات أحسن.

ونهى القرآن عن المحرمات والمكروهات، فترك المحرمات حسن، وأحسن منه ترك المكروهات مع المحرمات وهكذا.

وسلوك طريق الأبرار حسن، وأحسن منه سلوك طريق المقربين.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥].

ومعنى قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»؛ لعلو مرتبتهم ورفعة شأنهم، أي: أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم وحدهم:

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، أي: الذين أرشدهم الله، وخصهم بهدايته الخاصة: هداية التوفيق، فوفقهم للإيمان واتباع القرآن؛ للعلم النافع والعمل الصالح، لأحسن الأقوال والأعمال والأخلاق.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كرر الإشارة إليهم بإشارة البعيد تأكيدًا لعلو شأنهم وفضلهم. و«هم» ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجملة مؤكدة بتكرار الإشارة، وبكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك المتصفون بما ذكر الذين هداهم الله ووفقهم، هم أصحاب العقول السليمة الذين هدتهم عقولهم بتوفيق الله إلى الحق، وتغلبوا بها على أهوائهم وشهواتهم فنجوا وأفلحوا- كما قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الاستفهام في الموضعين: للإنكار والنفي. أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب، وكتب الله عليه الضلال والشقاء والهلاك.

، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: أفأنت يا محمد تستطيع إنقاذ من في النار وتخليصه وإنجاءه منها؟

والجواب: أنت لا تستطيع هداية من كتب عليه الضلال والشقاء والعذاب، كما لا تستطيع تخليص الذي في النار وإنقاذه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف:١٨٦].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ «لكن»: حرف استدراك مهمل، وفيه معنى الإضراب، أي:

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

لكن الذين اتقوا ربهم بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ لهم خاصة منازل عالية واسعة في الجنة.

﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾، أي: من فوقها طبقات قصور عالية، بعضها فوق بعض مبنية، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تُرى من علوها وارتفاعها كما يُرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء، وفي رواية: كما تراءون الكوكب الغابر في الأفق الشرقي والغربي**»(٢).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: من تحت هذه الغرف والمنازل والقصور.

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ من الماء واللبن والخمر والعسل، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها وجمالها، ويصرفونها كيف شاءوا في غير أخدود.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ «وعد»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وعد الله للذين اتقوا ربهم بهذه الغرف والمنازل العظيمة، ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، أي: لا يخلف الله وعده لكمال صدقه، وتمام قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم:٦].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٦، ومسلم في الموضع السابق ٢٨٣٠، وأحمد ٥/ ٣٤٠.
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه الترمذي في صفة الجنة- ترائي أهل الجنة الغرف ٢٥٥٦، وأحمد ٢/ ٣٣٩- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

الفوائد والأحكام:

١- شتان بين من هو قانت مطيع لله، آناء الليل مصليًا ساجدًا وقائمًا، يحذر الآخرة وأهوالها وعذابها، ويجو رحمة ربه وجنته، وبين من هو مشرك عاص مكذب بالآخرة وعذابها، لا يؤمن بربه، ولا يرجو رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾.

٢- الترغيب بالقنوت والطاعة والعبادة وقيام الليل، قال ﷺ: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل**»[١].

٣- إطلاق السجود والقيام على الصلاة كلها؛ لأنهما من أعظم أركانها، فالسجود أعظمها من حيث الهيئة، والقيام أعظمها من حيث الذكر.

٤- ينبغي أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء، فيخاف الآخرة وعذابها، ويرجو رحمة ربه، وجنته ونعيمها.

٥- إثبات الدار الآخرة ويوم القيامة وأهواله وعذابه العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٦- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية، التي يوصلها إلى من شاء من خلقه.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- أنه لا يستوي الذين يعلمون عظمة الله تعالى وما يجب له ويؤمنون به وينقادون لأمره، والذين لا يعلمون عظمته تعالى، ويكفرون به، ولا يقدرون الله حق

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٦٣، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٩، والترمذي في الصلاة ٤٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء.

٩- فضيلة العلم والفقه في الدين إذا صاحبه العمل، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[1].

وقد أحسن القائل:

تفقه فإن الفقه أفضل قائد ... إلى البر والتقوى وأعدل قاصد

فإن فقيهًا واحدًا متورعًا ... أشد على الشيطان من ألف عابد[2]

أما إذا لم يصاحبه العمل فالجهل خير منه، كما قال أحدهم:

وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا[3]

١٠- أنه إنما يتذكر وينتفع بالمواعظ أصحاب العقول السليمة، الذين يعلمون، وتهديهم عقولهم إلى المعرفة بالله، وما يجب له، والإيمان به وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وفي هذا ثناء عليهم، وتعريض بغيرهم.

١١- حث المؤمنين على تقوى ربهم، والجمع بين الإيمان والتصديق في الباطن، والعمل في الظاهر، بفعل الأوامر، وترك النواهي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾.

١٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ﴾، وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- من يرد الله به خيرًا ٧١، ومسلم في الزكاة- النهي عن المسألة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١- من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) البيتان ينسبان لمحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة. انظر: «الدر المختار وحاشية ابن عابدين رد المحتار» ١/ ٤٠، «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» ص١٩٩، «حسن التنبه فيما ورد في التشبه» ٦/ ١٢٢.

(٣) البيت لأبي إسحاق الألبيري. انظر: «ديوانه» ص٢٧.

١٣- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب، وعمل الجوارح، بفعل المأمورات وترك المحظورات.

١٤- وعد الله تعالى لمن أحسنوا في هذه الدنيا، بإخلاصهم لله تعالى ومتابعة شرعه، والإحسان إلى عباده، في القول والعمل والبذل، بتوفيقهم وإسعادهم، وطيب الحياة، بسعة الرزق، وانشراح الصدر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

١٥- التعريض بالهجرة والترغيب فيها، بل ووجوبها على من ضيق عليه في دينه، وبيان سعة أرض الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

١٦- أن الأرض كلها لله تعالى يورثها من شاء من عباده.

١٧- فضيلة الصبر والحث عليه؛ لوعده عز وجل للصابرين بتوفيتهم أجورهم بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٨- أمر الله تعالى له ﷺ بعبادة الله تعالى، وإخلاص التوحيد والعبادة والطاعة له وحده لا شريك له، وإعلان ذلك وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص الدين له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ وهذا أمر له صلى الله عله وسلم ولأمته.

٢٠- أمر الله تعالى له ﷺ أن يكون أول المسلمين، أي: أقوى المسلمين كلهم إسلامًا، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، وهذا يدل على وجوب المبادرة إلى الإسلام، والمنافسة فيه.

٢١- أمر الله تعالى له ﷺ أن يقول: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ردًا على المشركين في دعوتهم إياه إلى الشرك- وحاشاه من ذلك- وتحذيرًا للأمة من ذلك.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٢٣- إثبات يوم القيامة وشدة أهواله وعذابه، مما يوجب الحذر منه والاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٤- أمره عز وجل له ﷺ بإعلان عبادته لله تعالى مخلصًا له دينه، والاعتزاز بذلك، والبراءة من الشرك وأهله وتهديدهم، وعدم المبالاة بهم، وما يعبدون من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾.

٢٥- حاجة الرسول ﷺ، وكذا غيره من الرسل لعبادة الله تعالى والإخلاص له للنجاة من عذاب الله، ودخول الجنة، بل الأمر في ذلك عليهم أوجب، وهم أشد امتثالًا لذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

وقال ﷺ: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(٢).

٢٦- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا شِئۡتُم﴾ وفي هذا الرد على الجبرية، الذين ينفون ذلك.

٢٧- أن الخاسرين حقيقة الخسران المبين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بموتهم على الشرك، واستحقاقهم الخلود في النار، وافتراقهم فرقةً لا اجتماع بعدها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

٢٨- أن كل خسارة في الدنيا تهون، دون الخسارة في الدين، بالموت على الكفر والشرك.

٢٩- أن عمر الإنسان حقيقة هو ما أمضاه في طاعة الله تعالى؛ ولهذا وصف المشركين بأنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا خيرًا.

٣٠- شدة عذاب الخاسرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾.

٣١- أن الحكمة من ذكر شدة عذاب أهل النار تخويف عباده، وحثهم على تقوى

(١) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١١١٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٢- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٣- وجوب تقوى الله تعالى على جميع العباد، بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٤- التنويه بالذين اجتنبوا عبادة غير الله، وأنابوا إلى الله وحده، والثناء عليهم، وتخصيصهم بالبشرى العظيمة، بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ﴾.

٣٥- التحذير من عبادة غير الله، وأنها كلها من الطاغوت، والترغيب في الإنابة إلى الله تعالى وعبادته وحده.

٣٦- البشارة لعباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ﴾.

٣٧- أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم وكذا السنة النبوية، فيه حسن وأحسن، فالحسن الإتيان بالواجب، والأحسن الإتيان بالواجب والمستحب، والحسن: ترك المحرم، والأحسن: ترك المحرم والمكروه.

٣٨- امتداح الذين يستمعون القول سماع فهم وتدبر، ويتبعون أحسنه، وإظهار منة الله تعالى عليهم بهدايته تعالى إياهم، وبكونهم هم أصحاب العقول حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

٣٩- التهديد للمكذبين والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤٠- أن من كتب الله عليه الكفر والشقاء والعذاب ودخول النار فلا سبيل إلى هدايته وإنقاذه من العذاب والنار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤١- إثبات القدر السابق، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق

السموات والأرض.

٤٢- أن الرسول ﷺ لا يملك هداية أحد من الخلق، ولا إنقاذه من النار، وغيره من الخلق من باب أولى، وإنما الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل.

٤٣- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

٤٤- فضيلة التقوى، وعظم ما وعد الله به الذين اتقوا ربهم من الغرف والقصور العالية، المبنية بعضها فوق بعض، الدالة على علو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

٤٥- إثبات تحقق موعود الله للمتقين؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، الاستفهام للتقرير، أي: ألم تشاهد ببصرك، وتعلم ببصيرتك. والخطاب لكل من يصلح له.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: من السحاب الذي في السماء، أي: في العلو ﴿مَآءً﴾ وهو المطر الطهور، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨].

﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أدخله في ينابيع وعيون ومجارٍ في الأرض، يستخرج منها بيسر وسهولة- حسب الحاجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر:٢٢].

قال ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع، والينابيع: جمع «ينبوع»، وهو منبع الماء، كالعين والبئر، فدل القرآن على أن ماء السماء ينبع من الأرض، والاعتبار يدل على ذلك، فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع، وإذا قلّ قلّت.

وماء السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه في الجو، وما يتصاعد من الأبخرة.

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء، ولا هذا أيضًا معلومًا في الاعتبار، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال، ويكون فيه أبخرة يخلق منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد يستحيل- إلى أن قال: فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم أن جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء»[١].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾، أي: بسبب هذا الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض.

﴿زَرْعًا﴾، أي: أنواعًا كثيرةً من الزرع والنباتات ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: مختلف الألوان والأشكال، والثمار، والطعوم، والروائح، والمنافع الكثيرة.

ولهذا شبه ﷺ ما بعثه الله به من الوحي والهدى والعلم بالغيث في عموم نفعه، فقال ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث كثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا..**»[٢].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، أي: يستكمل عمره أو تصيبه آفة من ريح أو برد، أو عطش أو غير ذلك.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: قد ذهبت نضارته واصفر ويبس بعد اخضراره.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ متكسرًا متفتتًا بعد أن يبس.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلف الألوان نضرًا، ثم هيجانه واصفراره ويبوسه وتكسره.

﴿لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة يتذكرون عظيم نعمة الله تعالى عليهم، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، ويتذكرون أن حال الدنيا كلها هكذا تكون خضرة نضرة حلوة، ثم تنتهي إلى الزوال والفناء، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٠٥- ٥٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٩، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٢- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس:٢٤].

وليس بعد الكمال إلا النقص، فالصحة مآلها إلى المرض، والحياة مآلها إلى الموت، وهكذا. قال الشاعر:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا   فعند التناهي يقصر المتطاول

تُوَقَّى البدورُ النقصَ وهي أهلةٌ   ويدركها النقصان وهي كوامل(١)

ويتذكرون بذلك تمام قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن شرح الله صدره ووسعه للإسلام، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، والمنافسة فيما يقرب إلى الله تعالى، منشرح الصدر، مطمئن القلب، قرير العين.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، أي: فهو على علم وهدى، وإيمان ويقين، وبصيرة من ربه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب من ذكر الله، بعيد عن الحق، قد ضاق صدره بالإسلام، أي: لا يستوي هذا وهذا؛ ولهذا قال:

﴿فَوَيۡلٞ﴾، أي: هلاك وحسرة، وعذاب ووعيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح نهج البلاغة» ٣/ ١٦٣، «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ١٧٣، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» ٢/ ٢٠٣.

﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: للذين قلوبهم قاسية، لا تلين ولا تخشع عند ذكر الله، ولا تطمئن به، ولا تتذكر، ولا تعتبر ولا تتعظ، من المشركين وأهل الكتاب ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الإشارة تعود إلى القاسية قلوبهم من ذكر الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في تيه وبعد عن الحق بيّن واضح ظاهر، ولا ضلال أبين وأظهر من ضلال من قست قلوبهم من ذكر الله، وأعرضوا عن الحق، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن الكريم، حديثه عز وجل وكلامه نزله من عنده على رسوله ﷺ، وهو أحسن الحديث، وأحسن الكلام، على الإطلاق، في نظمه، وفي أخباره، وأحكامه، ومواعظه، وغير ذلك.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من «أحسن»، ونكر للتعظيم؛ لأن القرآن الكريم أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله.

﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ نعت لـ«كتابًا»، أي: يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإحكام، والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ولهذا كلما تدبر فيه المتدبر، وتفكر فيه المتفكر رأى من حسن نظمه ودقة معانيه وتوافقها ما يبهر العقول، ويخرس ألسنة الفصحاء والبلغاء.

﴿مَّثَانِىَ﴾ نعت ثانٍ لـ«كتابًا» أي: تثنى فيه المعاني، فيقرن فيه المعنى بما يقابله،

كالوعد والوعيد والجنة والنار، والدنيا والآخرة والحياة والموت، وغير ذلك.

كما تثنى فيه وتكرر أسماء الله وصفاته، والأحكام والحجج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج يسير عليه المؤمن حتى يلقى الله. ومعانيه للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، كلما تكرر سقيها حسنت وأينعت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: ترتعد وترتجف وتضطرب.

﴿مِنْهُ﴾، أي: عند قراءته وسماعه ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لما فيه من الوعيد، والتخويف والتهديد، بذكر ما حل بالمكذبين، وذكر النار وأهوال القيامة وعذابها وغير ذلك.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾، أي: تطمئن وتهدأ وتسكن جلودهم وقلوبهم.

﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لما فيه من البشارة والترغيب، والوعد بالجنات والنعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وقوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: إلى ما ذكَّرهم الله به وهو القرآن الكريم.

ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: إلى ذكرهم الله.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي ذلك توفيق الله، ووصف من هداه الله وحاله، أو ذلك القرآن الكريم الذي له أثره العظيم في القلوب ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، أي: طريقه الموصل إليه، والدال عليه.

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الباء: للسببية، أي: يدل ويوفق بسبب القرآن الكريم وهديه.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء توفيقه من عباده، ممن حسن قصدهم، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا، فلم يهتد بالقرآن.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: فما له من أيِّ هادٍ يهديه إلى الحق.

كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف:١٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أفمن يلقى في النار مهانًا، يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه.

﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: العذاب السيئ، أو شدة العذاب ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

والمعنى: يلق سوء العذاب بوجهه أي: لا يستطيع اتقاء ذلك ووقفه بغير وجهه، إما لكون يديه ورجليه مغلولة، كما قيل، أو لغير ذلك.

والمراد: لا يستوي من يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، ومن أمن من العذاب ولم يتقه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [فصلت:٤٠] أي: لا يستوي هذا وهذا.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي تقريعًا وتوبيخًا لهم:

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، أي: قاسوا عقوبة الذي كنتم تكسبونه، أو عقوبة كسبكم، أي: عملكم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر:٤٨].

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: كذب الذين من قبل كفار قريش من الأمم الماضية.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: وهم في غفلة، ولم يخطر ببالهم حتى نزل بهم.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما آتاهم من ألوان العذاب المختلفة بحسب ذنوبهم.

﴿ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: الذل والهوان في الحياة الدنيا.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا كيفية، وأكثر كمية؛ لأنه عذاب أبدي سرمدي.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي: لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة لما كذبوا.

الفوائد والأحكام:

١- بيان عظمة الله تعالى وتمام قدرته، والامتنان على العباد وتقريرهم، بإنزاله من السماء ماء، وسلكه ينابيع في الأرض، وإخراجه به الزرع والنبات، مختلفًا ألوانه، وما في ذلك من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾.

٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء؛ ليعم الجبال والوهاد، والمرتفع والمنخفض، وليعم الأرض كلها.

٣- أن الماء الموجود في الأرض كله أو غالبه من ماء السماء.

٤- حكمة الله تعالى وعنايته بخلقه، بخزن الماء في الأرض، وإخراجه منها لهم ينابيع.

٥- إثبات الأسباب وتأثيرها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، أي: بسببه.

٦- حكمة الله تعالى في عود الزرع بعد اخضراره ونضارته واستكماله إلى الاصفرار والتحطم والتكسر؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقص؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾.

٧- أن في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلفًا ألوانه ثم هيجانه واصفراره وتحطمه عبرة لأصحاب العقول السليمة يتذكرون فيه عظمة الله واستحقاقه للعبادة وحده، ويتذكرون به سرعة فناء الدنيا، كما يتذكرون بذلك قدرة الله تعالى التامة على إحياء الخلق بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

٨- أنه إنما يتذكر بالآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بعقولهم ويعتبرون بها، ويهتدون بها إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهذا ثناء عليهم.

٩- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، فصار على نور من ربه، وهدى وبصيرة، وبين من جعل الله صدره ضيقًا حرجًا، وأضله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام:١٢٥].

١٠- أن من لم يجعل الله نورًا فما له من نور؛ لهذا يجب سؤاله تعالى وحده الهداية، وسؤاله الثبات على الهدى.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾.

١٢- الوعيد بالويل والهلاك والحسرة للقاسية قلوبهم من ذكر الله، الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع لذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

١٣- تحقير القاسية قلوبهم من ذكر الله، وذمهم، وبيان شدة ضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٤- الامتنان على العباد بفضله عز وجل عليهم بإنزال القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.

١٥- إثبات علو الله تعالى وأنه عالٍ على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والإنزال يكون من أعلى.

١٦- أن القرآن الكريم منزل من عندل الله تعالى والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٧- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم بوصفه بأنه أحسن الحديث، فلا حديث ولا كلام أحسن منه؛ لأنه كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

١٨- تعظيم القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا﴾، أي: كتابًا عظيمًا لا كتاب أعظم منه.

١٩- تشابه القرآن في الحسن والإحكام والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره؛ ولهذا أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾.

٢٠- امتداح القرآن الكريم بكونه: «مثاني»، يثني فيه ويقرن بين الوعد والوعيد، والجنة والنار ونحو ذلك، وتثنى وتكرر فيه أسماء الله وصفاته، والأحكام والحج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج حياة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾.

٢١- تأثر جلود المؤمنين وقلوبهم عند قراءة القرآن وسماعه خوفًا ورجاءً؛ لقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- أن كلام الله عز وجل أعظم واعظ، وأشد مؤثر تقشعر منه جلود الذين آمنوا، وتطمئن به قلوبهم؛ لما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك.

٢٣- أن القرآن الكريم هو هدى الله الموصل إليه، وإلى مرضاته، وأن هداه عز وجل هو الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ نسأل الله الهداية والتوفيق.

٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٢٦- أن أفعال العباد كلها واقعة بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية، سواءً منهم من اهتدى ومن ضل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩] وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون مشيئة الله تعالى لأفعال العباد، ويرون استقلالهم بها مشيئة وخلقًا، كما أن فيه ردًا على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على أفعاله.

٢٧- شتان بين من يلقى في النار مهانًا، يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، وبين من هو مكرّم آمن في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: أيستوي من هذه حاله بمن هو مكرّم آمن؟ لا يستويان أبدًا.

٢٨- إثبات القيامة وسوء عذابها، والدار الآخرة وكبر عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿سُوٓءَ

﴿ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

٢٩- تقريع الظالمين بالكفر والشرك وتوبيخهم، وأن ما جوزوا به من العذاب هو بسبب كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولم يقل: «جزاء ما كنتم تعملون».

٣١- الإخبار بتكذيب الأمم السابقة لرسلهم، ومباغتتهم بالعذاب، وإذلالهم في الحياة الدنيا؛ تحذيرًا وتهديدًا للمشركين المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم مثل ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٣٢- أن العذاب يأتي على غرة وغفلة، ومن حيث لا يخطر بالبال.

٣٣- أنه يجمع للمعذبين بين العذاب الحسي البدني والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٣٤- أن عذاب الآخرة في النار أكبر وأشد وأعظم من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٥- أن السعيد من وعظ بغيره.

٣٦- أن المكذبين للرسل لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة حقيقة ما كذبوا رسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: بينا لهم في هذا القرآن ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من أمثال التوحيد والشرك، والقرون الخالية، وأهل الخير، وأهل الشر، وغير ذلك؛ لتقريب المعاني، وبيان حقائق الأشياء.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويعتبروا، ويفهموا معاني القرآن ويعملوا به؛ لأن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ «قرآنًا»: حال، و«عربيًّا»: صفة له، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا، ويجوز أن يكون «قرآنًا» مفعولًا به لـ«يتذكرون».

وفي هذا امتداح للقرآن، وامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: بلسان عربي مبين.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: الجملة في محل نصب: صفة ثانية لـ«قرآنًا»، أو حال.

أي: غير ذي انحراف، ولا لبس، ولا خلل، ولا اضطراب، بل قيِّمًا ومعتدلًا غاية

الاعتدال، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١، ٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، في هذا القرآن العظيم، رجاء ما فيه من الوعد، وحذرًا مما فيه من الوعيد.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ في هذا القرآن الذي ضرب الله للناس فيه من كل مثل ﴿مَثَلًا﴾ لقبح الشرك وفضية التوحيد.

﴿رَّجُلًا﴾: بدل من «مثلًا» ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، أي: يشترك في ملكه عدة شركاء

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾، أي: متنازعون مختلفون كل له مطلب، يريد من هذا المملوك تنفيذه، يخالف مطلب الآخر، هذا يأمر بأمر، وهذا ينهاه عنه، فهو مضطرب متحير متشتت، لا يدري من يرضى منهم وينفذ أمره.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿سالِمًا﴾ بالألف بعد السين، وكسر اللام، وقرأ الباقون بدون ألف مع فتح اللام: ﴿سَلَمًا﴾.

﴿وَرَجُلًا﴾ الواو: عاطفة، و«رجلًا» معطوف على «رجلًا» في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾.

﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي: خالصًا لرجل، أي: لمالك واحد لا يشاركه فيه أحد، يأمره فينفذ أمره، وهو مطمئن مرتاح البال.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«مثلًا»: تمييز، أي: لا يستوي هذا وهذا.

والمراد بهذا المثل بيان أن المشرك الذي يعبد آلهة مع الله تعالى، لا يستوي بحال من الأحوال مع المؤمن المخلص الذي يعبد الله تعالى وحده.

قال ابن القيم: «فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول- يعني إذا كان المملوك فيكم له مُلّاك مشتركون فيه، وهم متنازعون، ومملوك آخر له مالك واحد، فهل يكون هذا وهذا سواء، فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له رب واحد، ومالك واحد، فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء لله، تحبونها كما تحبونه،

وتخافونها كما تخافونه، وترجونها كما ترجونه»[(١)].

فشتان بين المشرك الذي هو مضطرب قلق متذبذب متشعب القلب بين عدة معبودات، وبين المؤمن المخلص المطمئن الذي يعبد الله وحده لا شريك له، وشتان بين الشرك والتوحيد، وبين الموت والحياة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لما بيّن أتم بيان أنه لا يستوي المشرك والمؤمن المخلص بحال من الأحوال، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله على إقامة الحجة وبيان المحجة، وظهور الحق، وزهوق الباطل.

فالحمد التام والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم مستحق لله تعالى وحده، وخاص به.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الناس لا يعلمون ذلة المشرك، وبطلان الشرك، وعزة المؤمن المخلص، وأحقية التوحيد.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إنك لا بد أن تموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ آل عمران:١٤٤ وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت**»[(٢)].

﴿وَإِنَّهُم﴾، أي: المكذبون لك، وجميع الخلائق ﴿مَّيِّتُونَ﴾، أي: لا بد أن يموتوا.

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥] [الأنبياء:٣٥] [العنكبوت:٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٥٩.

(٢) سبق تخريجه.

﴿ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

قال الشاعر:

فهـــن المنايـــا أي واد ســـلكته عليهـا طريقـي أو عـلـيّ طريقهـا[1]

وأكدت جملتا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ مع أن الموت حق؛ لأن عمل كثير من الناس عمل من لم يوقن بالموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ﴾ أنت وإياهم، وجميع الخلائق ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾، أي: تجتمعون وتختصمون عند ربكم فيما اختلفتم فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك، وغير ذلك، بين يدي الله عز وجل فيفصل ويفتح بينكم بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي الله رسوله والمؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين المشركين المكذبين وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للمشركين.

عن عبدالله بن الزبير عن أبيه رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ بعد الذي كان بيننا في الدنيا، قال: «**نعم**». فقال: إن الأمر إذًا لشديد»[2].

وعنه رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:٨] قال الزبير: يا رسول الله، فأي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «**أما إنه سيكون**»[3].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول الخصمين يوم القيامة: جاران**»[4].

قوله تعالى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٣٢٣٦، وأحمد ١/ ١٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التكاثر ٣٣٥٦، وأحمد ١/ ١٦٤، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٥١.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام: للنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: أشد ظلمًا ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: من الذي كذب على الله بنسبة الشريك والصاحبة والولد له، والقول على الله بلا علم.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ معطوف على قوله: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن كذب على الله، وممن كذَّب بالصدق إذ جاءه.

أي: وكذب بالحق حين جاءه في كتب الله تعالى وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

فمن اتصف بهذين الوصفين، فقد جمع بين قول الباطل، ورد الحق، وهذا أظلم الظلم؛ ولهذا قال تعالى متوعدًا ومهددًا لهم:

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومسكن ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾، أي: للجاحدين المكذبين.

والجواب: بلى، فيها مثوى ومأوى ومصير لهم، وبئس المصير.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: أليس في جهنم مثوى له، بل قال: ﴿مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ لإثبات وصفهم بالكفر، وعموم هذا الوعيد لهم ولغيرهم من الكافرين، وبيان علة استحقاقهم هذا الوعيد وهي كفرهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في قوله، وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنون.

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، أي: صدق بالصدق الذي قامت البينة على صدقه، كما قال ﷺ: «**وأشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»[1].

فقد جاء بالتوحيد وشهد به، وصدق أنه رسول الله.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- من لقي ربه بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة ٢٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذُكر له ما أخبر به الرسول ﷺ مما رآه ليلة الإسراء، قال: «إن كان قد قال ذلك فهو صادق»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، أي: أولئك الذين جمعوا بين الأمرين: قول الصدق والحق، والتصديق به، هم المتقون دون غيرهم، أي: الذين اتقوا الله فانقادوا لأمره واجتنبوا نهيه، وخافوا عذابه.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾، أي: لهم خاصة الذي يشاءونه عند ربهم في الجنة، من ألوان النعيم، وأصناف اللذات، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت:٣١-٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الإشارة إلى إعطائهم ما يشاءون عند ربهم في الجنة.

أي: ذلك جزاء وثواب الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعةً لرسله عليهم الصلاة والسلام، وأحسنوا إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا.

والحكمة من الإظهار في قوله: ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ دون الإضمار، فلم يقل ذلك جزاؤهم؛ لمدحهم والثناء عليهم بهذا الوصف، وليشمل هذا الجزاء كل من كان من المحسنين غيرهم، ولبيان السبب في مجازاتهم بهذا الجزاء، وهو إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ اللام: للتعليل، أي: اتقوا الله لأجل أن يكفر الله عنهم، أي: يتجاوز ويمحو عنهم.

﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، أي: أشد الذي عملوه سوءًا، وهذا يشمل المعاصي كلها، فيكفرها الله ويتجاوز عنها، بسبب تقواهم وإحسانهم، فإذا كفر عنهم أسوأ الذي عملوا فتكفيره لما دونه من باب أولى.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» ١/ ٣٩٩.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾، أي: ثوابهم على ما عملوا من الحسنات .

﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: بأحسن جزاء الذي كانوا يعملون، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦].

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على الناس بضرب الأمثال المتنوعة لهم في القرآن؛ لتقريب المعاني وإيضاحها، وبيان الحق، وإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

٢- أن القرآن الكريم أنزل للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥].

٣- أن الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن، وتقريب المعاني وإيضاحها: أن يفهم الناس معاني القرآن فيعتبروا ويتعظوا ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا الرد على من ينكرون حكمة الله تعالى، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة كالجهمية ونحوهم.

٥- امتداح القرآن، والامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه عربيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٦- اعتدال القرآن، وسلامته من أيّ عوج وانحراف، ومن أيّ خلل واضطراب في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه ومواعظه، وأخباره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾.

٧- أن الحكمة في إنزال القرآن الكريم عربيًّا، قيمًا، غير ذي عوجٍ؛ لأجل دعوة الناس إلى تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٨- أنه لا يستوي رجل مملوك لعدة شركاء متنازعون فيه، كل يريد منه غير ما يريده الآخر، فهو مضطرب متشتت بينهم لا يدري من يُرضي، ومن ينفذ أمره منهم.

لا يستوي هذا مع رجل مملوك لمالك واحد، لا مشارك له فيه، يعرف ما يريده منه مالكه، وينفذه فهو مطمئن مرتاح البال؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

٩- أنه لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي يعبد الله وحده، وشتان بينهما، فالمشرك متذبذب متشعب القلب بين الشركاء، والمؤمن مطمئن؛ لأنه يعبد الله وحده لا شريك له.

١٠- بلاغة القرآن الكريم وإعجازه في ضرب الأمثال.

١١- اختصاصه عز وجل، واستحقاقه لكمال الحمد؛ لإقامته الحجة وبيانه للمحجة، وإظهار الفرق الشاسع والبون الواسع بين التوحيد والشرك، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

١٢- إثبات الرق، وفق سببه الشرعي، وأحكامه.

١٣- أن أكثر المشركين، بل أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو معرفة الله، وما يجب له، والعلم بوحدانيته، والفرق بين الشرك والتوحيد؛ ولهذا يقعون في الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٤- أن كل نفس ذائقة الموت، والموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

١٥- اختصام الخلائق يوم القيامة عند ربهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك وغير ذلك، فيفصل عز وجل بينهم بالحق، فينجي الرسول والمؤمنين، ويعذب الكافرين، وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والحساب والجزاء على الأعمال.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

١٨- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والصاحبة والولد، وغير ذلك، أو كذب بالصدق والحق لم جاءه، في كتب الله تعالى، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

١٩- اختلاف مراتب الكفر والذنوب، وأنها تتفاوت، وبعضها أعظم وأشد من بعض، ومثل ذلك الإيمان والحسنات، فالإيمان يزيد وينقص والحسنات تتفاضل.

٢٠- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه بنار جهنم والخلود فيها، والتحذير من ذلك أشد التحذير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ومفهوم هذا أن غير الكافرين، من عصاة المؤمنين لا يخلدون فيها.

٢١- أن من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه كافر ومصيره النار.

٢٢- فضيلة من جاء بالصدق وصدق به والثناء عليه بوصف التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٢٣- عظم ما أعد الله من الثواب للمتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٤- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه من الرسل وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٦- التنويه بجزاء المتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، والثناء عليهم بوصفهم بالمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٧- أن هذا الجزاء لكل من كان من المحسنين؛ لأن الحكمة من الإظهار بدل الإضمار امتداح المذكورين بذلك، وبيان أن هذا الجزاء لهم ولكل من كان من المحسنين، وبيان سبب استحقاقهم له، وهو كونهم من المحسنين، وفي هذا ترغيب بالإحسان.

٢٨- وعد الله تعالى بتكفير سيئاتهم ومحوها، والتجاوز عنها، وجزائهم بأحسن الذي كانوا يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم

بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وذلك بمضاعفة أجورهم.

٢٩- تكفل الله عز وجل بثواب المحسنين، وإيجابه ذلك على نفسه فضلًا منه وكرمًا؛ لهذا سماه أجرًا، مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل فمن أحسن العمل أُحسن له الجزاء.

٣١- أن الأعمال منها ما هو أسوأ، وهي المعاصي كلها، ومنها ما هو أحسن، وهي الطاعات كلها، ومنها ما هو بين ذلك، لا أسوأ ولا أحسن، وهي المباحات كلها، التي لا ثواب عليها ولا عقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف: ﴿عباده﴾ بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿عبده﴾ بالإفراد.

والاستفهام: للتقرير، أي: بلى، إن الله كاف عبده ورسوله ﷺ، وكل من عبده

وتوكل عليه، أي: حافظ لنبيه ﷺ ومتوليه وناصره، ولكل مؤمن عبد الله وتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه**»(١).

وفي وصفه عز وجل لرسوله بقوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ دون أن يقول «رسوله» دلالة على أن العبودية أشرف وصف يتصف به البشر، إضافة إلى شمول هذا الوصف لكل عبد مخلص لله.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: ويخوفك يا محمد المشركون ويتوعدونك ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: بالذين يعبدون من دونه من الآلهة والأصنام، وبأوليائهم من شياطين الجن والإنس وذوي السلطان فيهم، أن يقتلوك أو ينالوا منك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥] وذلك جهل منهم وضلال؛ ولهذا قال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، أي: يكتب عليه الضلال كونًا وقدرًا.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أي: فما له أيُّ هادٍ يهديه بعد إضلال الله تعالى له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣] .

ولهذا حرص ﷺ غاية الحرص على هداية عمه أبي طالب لِـما أسداه إليه من الأيادي البيضاء في كفالته، وذود المشركين عنه فلم يستطع هدايته، ومات وهو يقول: «بل على ملة عبد المطلب»، وأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦](٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، ٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان- الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من =

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ ﴾، أي: يكتب له الهداية كونًا وقدرًا ويوفقه.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: فما له أيّ مضل يضله بعد هداية الله تعالى له، كما جاء في حديث خطبة الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»[(١)].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس الله بعزيز، أي: قوي قاهر غالب، له العزة التامة، منيع الجانب، فلا يضام من لاذ بجنابه، ولجأ إلى بابه.

﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ ذي: بمعنى: صاحب، أي: ذي انتقام شديد ممن كفر وأشرك به وعصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٤].

والجواب: بلى هو سبحانه عزيز ذو انتقام.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المشركين من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما من العدم على غير مثال سبق؟ والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذي خلقهن الله وحده، فيعترفون بأن الله هو الخالق وحده، ويقرون بتوحيد الربوبية، وهم مع ذلك يعبدون مع الله آلهة أخرى، لا تخلق شيئًا ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، أي: إذا أقروا أن الذي خلق السموات والأرض هو الله، فاسألهم سؤالًا آخر ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أخبروني، ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذين تدعون وتعبدون غير الله من

= حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٨، والنسائي في النكاح ٣٢٧٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٣- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأصنام والأنداد، أي: أخبروني عنها.

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتنوين: ﴿كاشفاتٌ﴾ و﴿ممسكاتٌ﴾، ونصب ﴿ضره﴾، و﴿رحمته﴾.

وقرأ الباقون بغير تنوين فيهما وخفض ضره ورحمته بالإضافة: ﴿كاشفات ضره﴾، و﴿ممسكات رحمته﴾.

أي: إن أرادني الله كونًا وقدرًا ﴿بِضُرٍّ﴾، «ضر»: نكره في سياق الشرط، تفيد العموم، أي: بأيِّ ضر كان، من مرض أو فقر، أو غير ذلك.

﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ «هل»: للاستفهام في الموضعين أي: هل هذه المعبودات التي تدعونها من دون الله ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، أي: مزيلات ضره الذي أراده عز وجل بي؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أو أرادني كونًا وقدرًا برحمة، ساق إليّ بسببها خيرًا، في ديني أو دنياي.

﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: هل هذه المعبودات والآلهة مانعات رحمته عني؟

والجواب عن هذا وذاك: سيقولون: لا تستطيع هذه الآلهة والمعبودات كشف ضر أراده الله بالعبد، ولا إمساك رحمة أرادها الله للعبد؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»**[1].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيني كل شيء، فلا يهمني ما تخوفونني به من الذين تدعونهم من دونه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/ ٣٠٧، ٣٠٨- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٢].

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: عليه وحده يعتمد المعتمدون في جلب كل خير، ونفع، ودفع كل شر وضر- مع تمام الثقة به عز وجل؛ لأنه القادر على ذلك وحده.

كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

روى محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس- رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: **«من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»**(١).

والله أعلم بصحة هذا، لكن معناه صحيح، والأقرب وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الذين كذبوه وعاندوه من قومه.

﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على ما أنتم عليه، وعلى حالتكم التي اخترتموها ورضيتموها لأنفسكم، من الكفر والشرك بالله، والعداوة والإيذاء.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾، أي: إني عامل على مكانتي وما أنا عليه من عبادة الله تعالى وحده، والدعوة إلى ذلك، ولن أبالي أو أهتم بكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف تعلمون غب ذلك ووباله، ولمن تكون العاقبة.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول لـ«تعلمون»، أي: فسوف تعلمون الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ في الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٥٢.

﴿عَذَابٌ﴾ التنوين في الموضعين: للتعظيم ﴿يُخْزِيهِ﴾، أي: يذله ويهينه في الدنيا، كما جعل لهم يوم بدر، حيث قتل أشرافهم، وسحبوا وألقوا في قليب بدر، وأسر منهم من أسر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، أي: مستمر دائم وهو عذاب النار.

وهكذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود:٣٩].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)﴾ [التوبة:٦٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن الكريم، أفضل كتب الله عز وجل ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: لهداية جميع الناس، وبشارتهم وإنذارهم، وإقامة الحجة عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: متلبسًا بالحق، مصاحبًا له. وقد سبق الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢)﴾ [الزمر:٢].

﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن اهتدى بهدي هذا الكتاب ونوره.

أي: استرشد به فعلم وعمل، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]،

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فاهتداؤه لنفسه، أي: فإنما يعود نفع اهتدائه لنفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: تنكب الطريق بعد ما تبين له الهدى.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: فإنما يرجع وبال ضلاله على نفسه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أنت على الخلق بوكيل تلزمهم أن يهتدوا، أو تراقبهم، وتحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، أي: الله وحده الذي يقبض الأنفس والأرواح حين موتها، الموتة الكبرى، بإرسال ملك الموت وأعوانه من الملائكة لقبضها من الأبدان.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، بالنوم، وهو الموتة الصغرى.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿قُضِيَ﴾ بضم القاف، وكسر الضاد وفتح الياء، و﴿الموتُ﴾ بالرفع.

وقرأ الباقون بفتح القاف والضاد، فتصير الباء ألفًا، ونصب الموت: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾.

أي: فيقبض التي قضى كونًا عليها الموت، أي: التي حضر أجلها، فلا ترجع إلى جسدها، إلى أن يأتي البعث.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، أي: النفس الأخرى التي لم يحضر أجلها.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد معين بعد استكمال رزقها وعملها وأجلها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦٠، ٦١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط»(١).

وكلام المفسرين على الآية على قولين:

القول الأول: أن المُمسَكة هي من توفيت وفاة الموت أولًا، والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت، فيمسكها ولا يرسلها إلى جسده قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسده إلى بقية أجلها، فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة كلاهما قد توفي وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده، فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمله ردها إلى جسدها لتستكمله.

واختار ابن تيمية هذا القول، ورجح ابن القيم القول الأول(٢)؛ وهو الأظهر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل: باسمك اللهم ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»(٣).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾، أي: إن في توفّيه عز وجل الأنفس حين موتها وإمساكه إياها، وإرسال التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى، دلائل على عظمته، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وغير ذلك.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات- التعوذ ٦٣٢٠، ومسلم في الذكر- ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٧١٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٥٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٠١، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٤.

﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: يُعملون أفكارهم وعقولهم في آيات الله، ويتأملون فيها.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ «أم» هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل اتخذ هؤلاء المشركون غير الله شفعاء من الأصنام والأنداد، يعبدونهم مع الله، يرجون شفاعتهم في زعمهم، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨] ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

و﴿شُفَعَآءَۚ﴾: جمع «شفيع»، و«الشفيع»: من يتوسط لغيره بجلب نفع أو دفع ضر.

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء من الأصنام والأنداد أتتخذونهم شفعاء، وتزعمون أنهم يشفعون لكم، والحال أنهم لا يملكون شيئًا.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يملكون أيّ شيء، لا شفاعة ولا نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا.

﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾، أي: ولا عقول لهم، فلا يعقلون شيئًا من العقل، ولا شيئًا من الأشياء، فلا يعقلون عبادتكم لهم، ولا يعقلون شفاعة ولا غيرها، ولا أسماع لهم، ولا أبصار، بل هم جمادات أسوأ حالًا من الحيوان، كما قال الخليل عليه السلام لأبيه: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم:٤٢].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾.

بعدما أنكر عليهم اتخاذهم من دون الله شفعاء وهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون بيّن أن لله وحده الشفاعة جميعًا.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل لله تعالى وحده ملك الشفاعة جميعًا، فهو وحده الذي يملك الإذن فيها، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه.

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦].

فلا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عنه وعن المشفوع له.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ملك السموات والأرض، وله الخلق والأمر كله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

فله عز وجل ملك السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تردون يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًا منكم بعمله.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، وذكرت وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: كرهت ذلك قلوبهم أشد الكراهية، ونفرت وانقبضت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات:٣٥].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة ولا يقرون بالبعث والحساب والجزاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧]، وقالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وإذا ذكر غيره من الأصنام والأنداد، وأُثني عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

«إذا» هي الفجائية، أي: إذا هم يفرحون ويسرون.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل داعيًا: يا الله يا فاطر السموات والأرض، أو يا فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أبصار الخلائق وحواسهم، وعلمهم، وعالم ما يشاهدونه ويعلمونه، أي: عالم السر والعلانية.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، أي: أنت وحدك تفصل بين عبادك عامة يوم القيامة.

﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: في الذي كانوا في الدنيا فيه يختلفون من التوحيد والشرك والبعث والحساب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

فله عز وجل الحكم الجزائي بين عباده يوم القيامة، كما أن له الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى:١٠].

كما أن له الحكم الكوني في الدنيا والآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح صلاته من الليل قال: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، أي: ولو ثبت أن للذين ظلموا.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧.

﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، أي: الذي في الأرض جميعًا مما يملك، من ذهب وغيره، ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾، أي: ولهم مثله معه.

﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لقدموه ودفعوه كله فدية ونظير الخلاص.

﴿مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، أي: من شدة العذاب يوم القيامة، أو من العذاب السيئ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة:٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران:٩١].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: وظهر لهم من الله الذي لم يكونوا يحتسبونه، أي: الذي لم يكونوا يظنونه ويتوقعونه، وما لم يكن في حسبانهم، من السخط العظيم، والمقت الشديد، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك، من أن لهم المنزلة عند الله، أو أن الأصنام تشفع لهم ونحو ذلك.

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وظهر لهم سيئات الذي كسبوا، أو سيئات كسبهم، أي: وظهر لهم جزاء سيئات ما كسبوا في الدنيا من الموبقات والآثام، أي: الجزاء الذي يسوءهم؛ لسوء عملهم، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: وأحاط بهم من كل جانب، وألمَّ ونزل بهم من العذاب.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا به يستهزئون، في الدنيا، أي: يسخرون ويكذبون، ويقولون: لا بعث، ولا حساب ولا جزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير كفايته عز وجل لعبده ورسوله محمد ﷺ وتوليه ونصرته له، ولكل عبد أخلص لله تعالى وتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

٢- أن العبودية لله تعالى أشرف وصف يتصف به البشر؛ لهذا وصف به رسوله ﷺ.

٣- كمال قوته عز وجل، وتمام قدرته، وعظيم عنايته ودفاعه عن رسله وعباده المؤمنين، وكفايته وحفظه لهم.

٤- تخويف المشركين له ﷺ ولأتباعه بمعبوداتهم من دون الله من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٥- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾.

٦- أن من يضلله الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛- لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٧- أن من يهده الله كونًا وقدرًا فلا مضل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وهذا يوجب طلب الهداية وسؤالها من الله وحده.

٨- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يستقلون بخلق أفعالهم، ومشيئتها دون الله تعالى.

٩- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق السموات والأرض.

١٠- تقرير وإثبات كمال عزته عز وجل وقوته وقهره وغلبته وانتقامه ممن عصاه، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

١١- إقرار المشركين بربوبية الله تعالى وأنه هو الذي خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

١٢- الإنكار عليهم كيف يدعون ويعبدون آلهة من دونه- مع إقرارهم بربوبيته وخلقه السموات والأرض، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى:

﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟

١٣- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، والتي هي بمعنى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾.

١٤- أن ما يعبده المشركون من دون الله من المعبودات لا تستطيع كشف ضر أراده الله بالعبد، ولا منع رحمة أرادها الله له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، أي: لا تستطيع جلب نفع ولا دفع ضر.

١٥- كفايته عز وجل لنبيه ﷺ وحفظه ونصره له، وعنايته به، وتمام توكله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ الآية.

١٦- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وحده في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة به، وأنه الكافي لكل من توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ﴿٣٨﴾﴾.

١٧- أمر الله تعالى له ﷺ بمتاركة المشركين يعملون على ما هم عليه، وعمله على ما هو عليه؛ تحديًا لهم، وإظهارًا لعدم مبالاته وعدم اهتمامه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾، وهكذا ينبغي لصاحب الحق الاعتزاز بما هو عليه من الحق، وعدم الاهتمام بمن خالفه وخذله- وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٨- تهديده للمشركين وتوعده إياهم بعذاب الدنيا المذلِّ المهين، وعذاب الآخرة الأليم المقيم؛ لقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

١٩- شدة وقع ألم العذاب المعنوي على النفوس من الخزي والإهانة والإذلال وأنه قد يفوق العذاب الحسي؛ لأنه ينصب على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾.

٢٠- إثبات النار وعذابها، وأنه أبدي سرمدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

٢١- إثبات رسالته ﷺ وإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى

له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه، وبه قامت الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

٢٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾.

٢٤- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منزل غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- عظمة القرآن وفضله؛ لإطلاق اسم «الكتاب» عليه بالتعريف؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأفضل الكتب على الإطلاق.

٢٦- أن القرآن أنزل لجميع الناس، ورسالته ﷺ عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق، في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

٢٨- أن من اهتدى بهدي القرآن ونوره فنفْع هدايته لنفسه، ومن ضل عنه فإنما ضرر ضلاله على نفسه، والله غني عن الخلق، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ وفي هذا رد على الجبرية؛ لأن الله أضاف الاهتداء والضلال إلى العبد.

٢٩- قيام الحجة بهذا القرآن على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ الآية.

٣٠- تسلية النبي ﷺ، وإخباره أنه ليس بوكيل يلزمهم الهداية، أو يحصي عليهم أعمالهم، ويحاسبهم عليها، فذلك إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٣١- عظمة سلطان الله، وعموم تدبيره، وتصرفه في أنفس العباد حال يقظتهم

ومنامهم، وحياتهم وموتهم، يتوفى نفس من قضى عليه الموت فيمسكها، ويتوفى التي لم تمت بالنوم ثم يرسلها إلى جسدها إلى أجل موتها؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

٣٢- أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله تعالى فيها بالوفاة والإمساك والإرسال(١).

٣٣- أن النوم يسمى وفاة، وهو الوفاة والموتة الصغرى؛ ولهذا لا يؤاخذ النائم بعمله، وفي الحديث: «**رفع القلم عن ثلاثة**»: وذكر منهم «**النائم حتى يستيقظ**»(٢).

٣٤- أن كل نفس ذائقة الموت، ولكل نفس أجل مسمى ووقت محدد لموتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٥- أن في توفيه عز وجل الأنفس حين موتها، وإمساكه إياها، وإرساله التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى دلائل على عظمة الله تعالى، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

٣٦- الحث على التفكر والتأمل في الآيات؛ لأنه لا ينتفع بالآيات إلا الذين يتفكرون ويتأملون فيها.

٣٧- الإنكار على المشركين وتسفيههم في اتخاذهم من دون الله شفعاء، من الأصنام والأوثان، الذين لا يملكون أي شيء، ولا يعقلون؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣٨- إثبات الشفاعة، وأنها كلها لله جميعًا، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.

٣٩- أن له عز وجل خاصة ملك السموات والأرض، وهو عز وجل الخالق

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٧٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤١- من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمدبر لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤٠- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله عز وجل، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٤١- اشمئزاز ونفور الكفار الذين لا يصدقون بالآخرة من ذكر الله وحده؛ لشدة كراهتهم لذكر الله وتوحيده، واستبشارهم وفرحهم عند ذكر الذين يعبدونهم من دونه من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٤٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٤٣- التوسل إلى الله تعالى بأفعاله، بكونه مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سبق، عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وعن علمهم، وعالم ما يشاهد، الذي يحكم بين العباد يوم القيامة ويفصل بينهم، فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٤٤- إثبات عموم خلق الله، وعموم علمه، وعموم حكمه.

٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾.

٤٦- شدة عذاب الظالمين، حتى أنه لو كان لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لقدموه فدية مقابل الخلاص من سوء عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٤٧- أنه في ذلك اليوم يظهر للظالمين من الله ما لم يكونوا يظنون ويتوقعون وما لم يدر في حسبانهم من شدة غضبه عز وجل وسخطه عليهم، وشدة عذابه، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

٤٨- ظهور جزائهم السيئ على سيئات كسبهم من الموبقات والآثام؛ لقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

٤٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ولم يقل: جزاء سيئات ما كسبوا- مع أن المراد هو الجزاء.

٥٠- إثبات الكسب للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله لا اختيار له.

٥١- إحاطة الذي كانوا يسخرون به من العذاب في الدنيا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: فإذا أصاب الإنسان الذين لا إيمان عنده ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض أو فقر، أو شدة أو كرب، ﴿دَعَانَا﴾، أي: دعا الله تعالى وأناب إليه، وتضرع إليه؛ فيكشف عنه ما أصابه من ضر.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾، أي: ثم إذا أعطيناه نعمة منا، فكشفنا ما أصابه من ضر، ومنحناه نعمة منا وخيرًا.

﴿قَالَ﴾ كافرًا بالله منكرًا نعمة الله عليه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾، أي: إنما أعطيته وخوّلته من النعمة من زوال الضر عني، وحصول الخير لي.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾، أي: على علم من الله أني أهل لذلك، ومستحق له، أو على علم مني وحذق ومعرفة بوجوه المكاسب وتحصيلها، وسواء كان هذا أو هذا أو كلاهما، فهذا

كله من كفر النعمة ونكران فضل الله تعالى، والاعتداد بالنفس، ونسبة ما أسداه إليه، استحقاقًا أو حذقًا.

وهذه حال الإنسان وطبيعته يضرع إلى الله وينيب إليه ويدعوه في حال الضراء، ويطغى في حال السراء، إلا من هداه الله ووفقه، بل إن من الناس من يطغى حتى في حال الضراء.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿هِيَ﴾، أي: تخويلنا إياه النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاء واختبار وامتحان له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: ليس الأمر كما زعم، بل خولناه هذه النعمة لنختبره ونبتليه أيشكر أم يكفر، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة فيما يقدره الله للإنسان، وأن المنحة والنعمة قد تكون فتنة واستدراجًا، وابتلاء ومحنة، كما أن المحنة قد تكون منحة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(1)

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال مقالتهم: «إنما أوتيته على علم»، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف قبلهم من الأمم، وتوارثوها بينهم، يكفرون نعم ربهم ولا يشكرونها، حتى أهلكوا، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: كسبهم أو الذي يكسبونه من الأموال والأعمال والدعوى الباطلة، حين حل بهم عذاب الله وعقابه، كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ﴾، أي: فحل بهم جزاء وعقوبات سيئات كسبهم، أو سيئات الذي كسبوه، من الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين للنبي ﷺ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾، أي: سيصيبهم جزاء سيئات ما كسبوا، ويحل بهم من العقوبات مثل ما حل بالذين من قبلهم، وهذا تهديد ووعيد لهم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: وما هم بمعجزين الله، ولا فائتين ولا مفلتين من عذابه ولا سابقيه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾.

لما ذكر اغترار كثير من الخلق من السابقين واللاحقين بما آتاهم الله من نعمة المال وغير ذلك، وأنهم إنما أوتوا ذلك على علم من الله بأهليتهم واستحقاقهم لذلك، أو لحذقهم ونحو ذلك، أنكر عز وجل عليهم ذلك، وأخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء لحكمة يعلمها، لا لكون هذا أهلًا للرزق، وهذا ليس له بأهل.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الاستفهام: للإنكار والتقرير، أي: أو لم يعلم هؤلاء الذين يزعمون أن الله خولهم النعم وآتاهم إياها على علم منه أنهم لها أهل، أو لحذقهم ومهارتهم في الكسب ونحو ذلك.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه على من يشاء منهم، من مؤمن وكافر، وصالح وطالح، وحاذق وأخرق.

كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ

﴿مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء ﴿لَآيَاتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات واضحات على سعة فضل الله تعالى وحكمته.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بقلوبهم بما جاءهم من الحق وينقادون له بجوارحهم، ويصدقون بأن لله الحكمة في بسط الرزق أو تضييقه على من يشاء من عباده من مؤمن وكافر.

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان:٦٨] ونزل: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ﴾»(١).

﴿۞ قُلْ﴾، أي: قل يا محمد مبلغًا عن الله تعالى قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٠، ومسلم في الإيمان- كون الإسلام يهدم ما كان قبله ١٢٢، والنسائي في التحريم- تعظيم الدم ٤٠٠٣.

﴿أَنفُسِهِمْ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بإسكان ياء الإضافة ﴿يا عباديْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، أي: الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فالمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تيأسوا من رحمة الله، وقبوله توبة من تاب وأناب إليه، ومغفرة ذنوبه، مهما عظمت وكثرت، والقنوط: أشد اليأس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: تعليل للنهي السابق، أي: يستر الذنوب ويتجاوز عنها كلها من كفر وشرك وكبائر وغير ذلك لمن تاب وأناب إليه، فلا يستعظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، ولا تتكاثره ذنوب مهما بلغت أن يغفرها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وقال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها**»[(١)].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية**: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية». فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «**ألا ومن أشرك» ثلاث مرات**»[(٢)].

فمن تاب من أيّ ذنب، وإن كان أعظم الذنوب، كالشرك بالله، ومهما بلغت ذنوبه، ولو كانت كزبد البحر، فإن الله يتوب عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١- من حديث عمرو رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٢٩.

لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج:١٠].

ودعا عز وجل إلى التوبة فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

فقال عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩].

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه في قصة «الذي قتل مائة نفس، ثم تاب، وتاب الله عليه»[(١)].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الغرف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣] وإن أشد آية في كتاب الله تصريفًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]»[(٢)].

قال علي رضي الله عنه: «إن أرجة آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٩- ونسبه للطبراني، وأخرج الطبري بعضه في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٢٧.

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣]»(١).

أما من مات ولم يتب فإن جميع ذنوبه تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفرها وإن شاء عذبه بها، ما عدا الشرك بالله، فإنه لا يغفر إذا مات صاحبه من غير توبة، وصاحبه خالد مخلد في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة، والرحمة الواسعة. والجملة مؤكدة بـ«إن»، وضمير الفصل «هو».

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: توبوا وارجعوا إلى ربكم، وأخلصوا له بقلوبكم، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، أي: أخلصوا له العمل، واستسلموا له، واخضعوا وانقادوا له بجوارحكم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ «أن» والفعل بعدها في الموضعين في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل» أي: من قبل إتيان العذاب من الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: ثم لا تمنعون من عذاب الله، أي: ثم لا أحد ينصركم بعد مجيء العذاب إليكم، لأن عذاب الله ليس له دافع، ولا مانع، ولا رافع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، أي: واتبعوا أحسن الذي أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن الكريم، أي اعملوا به باطنًا وظاهرًا، عقيدة وقولًا وعملًا. و«أحسن»: اسم تفضيل مستعمل في كامل الحسن، أي: أحسن ما أنزل إليكم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحِكَمه ومواعظه، وأخباره وآثاره وغير ذلك.

وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض، وقد يحمل «أحسن» على الأخذ بالعزيمة بفعل المندوب مع الواجب، وعدم الاكتفاء بالواجب.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، وعلى غرةٍ.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٣.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: وأنتم لا تعلمون بمجيئه ولا تحسون به، وعنه غافلون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿يا حسرتايَ﴾ بياء مفتوحة بعد الألف، وقرأ الباقون: ﴿يا حسرتا﴾ بدون ياء.

أي: بادروا إلى الإنابة إلى ربكم والاستسلام له، واتباع أحسن ما أنزل إليكم من ربكم؛ قبل أن تقول، أو لئلا تقول نفس: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾، أي: يا ندامتي الشديدة، وأسفي وحزني.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾، أي: على الذي ضيعت وأهملت ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، أي: في حقه وطاعته.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ «إن»: مخففة من الثقيلة، واللام: للتوكيد، أي: وإن كنت في الدنيا لمن المستهزئين بالله وآياته ورسله، وبالحق وأهله، وبالعذاب والوعيد.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٩، ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ [ص:٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ «أو»: عاطفة في الموضعين، أي: أو تقول نفس.

﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ للتمني، «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو ثبت أن الله هداني، أي: وفقني:

﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: جواب الشرط.

«لو»، واللام: واقعة في جواب الشرط، أي: لكنت من المتقين الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فأسلم من العذاب وأستحق الثواب.

وهذا احتجاج منهم بالقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة.

وجوز بعضهم أن تكون «لو» للتمني، أي: ليت أن الله هداني فكنت من المتقين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة. قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني**»[١].

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، أي: أو تقول نفس حين ترى العذاب، أي: حين تشاهد العذاب عيانًا، وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ «لو»: للتمني، أي: ليت أن لي كرة، أي: رجعة إلى الدنيا.

﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فأكون من الذين أحسنوا بالإنابة إلى الله تعالى، والإخلاص له، والاستسلام له، واتباع شرعه، والإحسان في عبادته، وإلى عباده.

وهيهات لهم الرجوع، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبر الله ما العباد قائلوه قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ إلى ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: من المهتدين، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] .

وقال: «ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٣٦.

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ «بلى»: حرف جواب، يجاب بها عن النفي؛ لإثباته، والنفي هنا في قول هذه النفس المكذبة: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن هذا يتضمن أن الله لم يهدها؛ لهذا قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ الشرعية والكونية وحججي التي فيها الهداية والدلالة على الحق، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، أي: جحدتها، ولم تصدق بها ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن الانقياد لها واتباعها، أي: فكذبت ما جاء فيها من الأخبار، واستكبرت عن الانقياد لما فيها من الأحكام.

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بالله الجاحدين المنكرين لآياته وشرعه.

الفوائد والأحكام:

١- أن من طبيعة الإنسان التضرع إلى الله تعالى ودعائه في الضراء، وكفر نعمة ربه وإنكارها في السراء، بنسبتها إلى نفسه هو، وعدم شكر الله تعالى، إلا من هداه الله ووفقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾.

٢- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾، مع أنه عز وجل هو الذي قدره، ونسب النعمة إلى نفسه عز وجل فقال: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾.

٣- أن النعم كلها من الله تعالى هو جالبها ومقدرها، ومقدر النقم، وجميع المقادير.

٤- تميّز المؤمن عن غيره بالصبر، وعدم الجزع عند الضراء، مع التضرع إلى الله تعالى، والشكر عند السراء، وعدم الطغيان والبطر وكفر النعمة.

٥- أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم، فتخويل الإنسان النعم مع كفره بها وإنكاره لها، قد يكون ابتلاءً واختبارًا له أيشكر أم يكفر؟ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا له، وليس كما يزعم لاستحقاقه لها، أو لحذقه.

٦- أن أكثر الخلق لا يعلم أن منحه النعمة قد يكون فتنةً له، وابتلاءً، فيغتر بها.

٧- أن هذه المقالة ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾، وهذه الدعوى قد قالها الكفار الجاحدون لنعم الله تعالى من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- أن قائلي هذه المقالة من الأمم السابقة لم ينفعهم، ولم يدفع عنهم عذاب الله ما كانوا يكسبونه من الأموال والأعمال والدعاوى الباطلة، وهكذا من جاءوا بعدهم لن تنفعهم هذه المقالة، ولا كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ.

٩- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان ليس كسبًا له، فلا يضاف إليه؛ لأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾، ﴿مَا كَسَبُواْۚ﴾.

١٠- حلول العقوبات بالمكذبين السابقين بسبب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾.

١١- الوعيد والتهديد للذين ظلموا من هذه الأمة بأنه سيصيبهم عقاب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فمن أساء العمل فله العقاب الذي يسوءه.

١٣- كمال عدل الله تعالى بين السابقين واللاحقين بمجازاة كل منهم بكسبه.

١٤- أن الظالمين لن يعجزوا الله أو يسبقوه أو يفلتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

١٥- تقرير وإثبات أنه عز وجل هو الرزاق، وأنه يبسط الرزق والعطاء لمن يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء من مؤمن وكافر، حاذق أو غير حاذق، وله الفضل والحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٧- أن في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء آيات واضحات ودلالات بينات على سعة ملكه، وتمام سلطانه وحكمته، لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

١٨- أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون دون من عداهم، وفي هذا ثناء عليهم وترغيب في الإيمان.

١٩- إثبات سعة رحمة الله تعالى ومغفرته، ووعده بمغفرة الذنوب لمن تابوا وأنابوا

إليه، مهما عظمت ذنوبهم وكثرت؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

٢٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢١- إثبات رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

٢٢- تحريم القنوط من رحمة الله تعالى؛ لنهيه عز وجل عن ذلك.

٢٣- أن الله لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه مهما عظم حتى الشرك بالله، الذي هو الحنث العظيم، وأعظم الذنوب، ولا يتعاظمه كثرة الذنوب، أن يغفرها، ولو بلغت عدد زبد البحر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[١].

وقال ﷺ: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم**»[٢].

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغفور»، وصفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وأنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة، ذاتية وفعليه، عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٦- في اقتران اسميه عز وجل «الغفور» و«الرحيم» الوعد بزوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

٢٧- في تقديم «الغفور» على «الرحيم» إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

٢٨- وجوب إنابة العباد إلى ربهم والإخلاص له في القلوب، والاستسلام والانقياد له بالجوارح، والمبادرة بذلك، قبل حلول العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ

(١) أخرجه مسلم في التوبة- سقوط التوبة بالاستغفار ٢٧٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق ٢٧٤٨، والترمذي في الدعوات ٣٥٣٩، وأحمد ٥/ ٤١٤- من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

﴿رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٢٩- أن عذاب الله تعالى إذا نزل، فلا ناصر منه ولا دافع له ولا رافع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾.

٣١- وجوب اتباع القرآن الكريم، والمبادرة إلى ذلك قبل حلول العذاب فجأة بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٣٢- أن القرآن الكريم أحسن ما نزل إلى العباد، في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره وآثاره، وغير ذلك، فهو أفضل كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

٣٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

٣٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

٣٥- عظم منة الله تعالى ونعمته على هذه الأمة، وفضيلتها، حيث أنزل إليها أحسن كتبه وأفضلها.

٣٦- التحذير من حلول العذاب فجأة وعلى غرة، من غير شعور به ولا علم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٣٧- تحسر المفرّط على تفريطه في جنب الله، وعلى سخريته بالله ورسله وآياته وبالمؤمنين، وبالوعيد والعذاب، وإقراره بذلك وندامته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

٣٨- التحذير من التفريط في جنب الله، ووجوب طاعته، والقيام بحقه.

٣٩- تحريم السخرية بالله وآياته ورسله والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

٤٠- احتجاج المفرط في جنب الله بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾.

٤١- فضيلة التقوى، وأنها سبب للنجاة من العذاب، والفوز بالثواب.

٤٢- تمني المفرط في جنب الله عند رؤية العذاب الرجوع إلى الدنيا؛ ليكون من المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾، وهيهات ذلك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠١].

٤٣- تكذيب دعوى المفرط في جنب الله، وإبطال احتجاجه بقضاء الله وقدره، بإقامته عز وجل عليه الحجة بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾.

٤٤- إقامة الله عز وجل الحجة على العباد إقامة تامة بإرسال الرسل وإنزال الآيات، وبيان الحجج والدلائل على الحق والإعذار من الخلق.

٤٥- أن التكذيب بالحق، والاستكبار عن الانقياد له، وعلى الخلق كفر، فيجب الحذر من ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وقيام الأشهاد، وقيام الحساب، وقيام العدل الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ الخطاب لكل راء ومشاهد لهؤلاء المكذبين، أي: تشاهد الذين كذبوا على الله، وافتروا عليه بنسبة الشريك والصاحبة والولد والجور والظلم، والقول على الله بلا علم، والابتداع في الدين، وغير ذلك.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كون وجوههم مسودة- يعرفهم بذلك أهل الموقف- من شدة الخوف والذل والفضيحة والخزي.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومصيرًا للمتكبرين عن اتباع الحق، وعلى الخلق؟ والجواب: بلى فيها مثوى

وسجنًا ومصيرًا لهم وبئس المصير، فيه الخزي لهم والهوان، والعذاب الأليم، بسبب تكبرهم وتجبرهم.

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عقاب الذين كذبوا على الله تعالى، بين ثواب الذين اتقوا الله عز وجل، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليسير العبد في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ﴾ معطوف على «ترى» أي: ويوم القيامة ينجي الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، أي: الذين اتقوا الله عز وجل واتقوا عذابه.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالألف على الجمع: ﴿بمفازاتهم﴾.

وقرأ الباقون بالإفراد ﴿بمفازتهم﴾، أي: بفوزهم وظفرهم بالمطلوب، أي: بالجنة وبياض الوجوه، وغير ذلك، ونجاتهم من المرهوب، من سواد الوجوه، ومن نار جهنم، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾، أي: لا يصيبهم السوء، أي: ما يسوءهم في المستقبل.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم لم يفرطوا فيه ولأن الله أعطاهم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، أي: خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، فهو وحده الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾، أي: حفيظ ورقيب ومطلع ومدبر؛ لإحاطة علمه بكل

شيء وكمال قدرته على كل شيء، وبلوغ حكمته.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: مفاتيح علمها وخزائنها، وتدبيرها، وأزمة الأمور كلها بيده له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية وحججه وبراهينه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الجملة مؤكدة بكونها اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، الذي يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الخاسرون حقًا، لا غيرهم، الذين بلغوا غاية الخسران.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بتخفيف النون: ﴿تأمروني﴾.

وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة: ﴿تأمرونَنِي﴾.

وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة: ﴿تأمرونِّي﴾.

والاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة آلهتهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾، أي: أتأمروني أعبد غير الله.

﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، أي: يا أيها الجاهلون بعظمة الله تعالى وما يجب له، وما له من الكمال، والجلال، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدون معه آلهته، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾»[1].

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل.

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أشركت.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٠٢.

وحاشاه ﷺ من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤].

﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليبطلن جميع عملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة جواب القسم: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾، أي: ولتكونن من الخاسرين غاية الخسران. وحاشاه ﷺ من الشرك.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: اعبد الله تعالى وحده، وأخلص له وحده، لا شريك له، أنت ومن اتبعك.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لما أنعم به عليك من النبوة والرسالة، وذلك بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، وهكذا كان ﷺ يقوم حتى تفطرت قدماه، فقيل له لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، أي: وما قدر المشركون الله حق قدره، أي: وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره، وأمروا النبي ﷺ أن يعبد غير الله، وسووا به هذه المخلوقات الناقصة من جميع الوجوه، وهو سبحانه الرب الخالق العظيم، خالق الأشياء كلها، ومالكها ومدبرها، كما يعترفون بذلك يوم القيامة بقولهم لمعبوداتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩- من حديث المغيرة رضي الله عنه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره»(١).

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القبضة: ما يقبض باليد. قال الشاعر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض   على الماء خانته فروج الأصابع(٢)

أي: والأرضين جميعًا قبضته يوم القيامة، أي: يقبضها جميعًا بيده يوم القيامة.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾، أي: ملفوفات بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿بِيَمِينِهِۦ﴾، أي: بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، كما جاء في الحديث(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(٥).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٤٥.

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ٤٧، «التمثيل والمحاضرة» ص٢٥٧، «نهاية الأرب» ١/ ٢٨٠، «مجاني الأدب»٤/ ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩- من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية»[1].

﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي: تنزه وتقدس، ﴿وَتَعَالَى﴾: وتعاظم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد، وعن كل عيب ونقص.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ الآية.

٢- اسوداد وجوه الذين كذبوا على الله، علامة لهم يعرفهم بها أهل الموقف خزيًا لهم وتعذيبًا معنويًا؛ لأن الوجه أشرف أعضاء الجسم الظاهرة، وذلك من شدة ما هم فيه من الخوف والذل والفضيحة؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

٣- التحذير من الكذب على الله والقول عليه بلا علم، وشدة تحريم ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

٤- أن اسوداد الوجه أوضح علامة على شدة ما يعانيه الإنسان من ألم حسي ومعنوي؛ لأن الوجه تبدو على ملامحه وقسماته آثار المعاناة أكثر من غيره، كما تبدو عليه آثار الفرح والسرور.

٥- تقرير وإثبات أن في جهنم مثوى ومصيرًا للمتكبرين عن الانقياد للحق، وعلى الخلق، الكاذبين على الله، وتوعدهم بها، وأنها لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥١٣ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، وأحمد ١/ ٤٢٩ وانظر ١/ ٣٧٨.

٦- خطر الكبر ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، ومفض بصاحبه إلى جهنم.

٧- وعد الله تعالى للمتقين بإنجائهم بفوزهم بالمطلوب والنجاة من المرهوب، بالفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾.

٨- صرف السوء عنهم، فلا يخافونه في المستقبل، وسلامتهم من الحزن، فلا يحزنون على شيء مضى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

٩- فضيلة التقوى، والترغيب بها، لما رتب الله عليها من النجاة والفوز، وصرف السوء، والسلامة من الحزن.

١٠- أن الله سبحانه خالق الأشياء كلها ومليكها ومدبرها، فهو سبحانه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

١١- الرد على القدرية القائلين بأن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وأنها مخلوقة لهم، وهذا باطل فهو سبحانه خالقها، الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، ولو لم يشأها الله ويخلقها، لاستحال وقوعها منهم؛ لأنه لا شيء يقع إلا بمشيئة الله وخلقه.

١٢- الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وبقدم الأرواح، وهذا باطل؛ لأن الله خلق الأشياء كلها وأوجدها بعد العدم.

١٣- أن الله عز وجل على كل شيء وكيل، وحفيظ ورقيب؛ لإحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وتمام تدبيره وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

١٤- اختصاصه عز وجل بمفاتيح علم السموات والأرض وخزائنها وتدبيرها، وبأزمة الأمور كلها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

١٥- تأكيد خسران الذين كفروا بآيات الله، الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

١٦- وجوب الإيمان بآيات الله، وأن المؤمنين بها هم الرابحون الربح العظيم.

١٧- الإنكار على المشركين أمرهم له ﷺ بعبادة غير الله، جهلًا منهم بعظمة الله

وما يجب له من الكمال والجلال، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

١٨- أن عبادة الله تعالى وحده علم ورشد وهدى وعقل، وعبادة غيره جهل وسفه وضلال وغي.

١٩- أن الشرك محبط للعمل وسبب للخسران المبين في الدنيا والآخرة، ولو وقع من أفضل الخلق، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وغيرهم من باب أولى، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وحاشاه ﷺ وغيره من الأنبياء من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

قال ابن تيمية: «الأنبياء معصومون عن الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وقد أخبر الله عنهم بالتوبة والاستغفار، وهي من أفضل الكمالات»[(١)].

٢٠- إثبات الوحي للرسول ﷺ وإلى الذين من قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الرد الذين يغلون في النبي ﷺ، ويرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٢٢- وجوب إخلاص العبادة لله وحده وشكره وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢٣- ذم المشركين بالله، وأنهم ما عظموا الله حق تعظيمه حين أشركوا معه غيره من المخلوقات الضعيفة الناقصة وسووها بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وهذا يدل على وجوب تعظيمه عز وجل وعبادته وحده.

٢٤- عظمة الله تعالى، وكمال قدرته وقوته وسلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٥١-٥٣، وانظر: «زاد المعاد» ٣/ ١٧٠.

٢٥- إثبات اليدين لله عز وجل، وقبضه الأرض جميعًا بقبضته، وطيه السموات بيمينه.

٢٦- تنزيه الله تعالى وتقديسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٧٠﴾.

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، أي: النفخة الأولى نفخة الفزع والصعق لموت من كان حيًا من الخلق.

و«الصور»: قرن عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى له، وأبهم للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨].

وعبر بالماضي في: «نفخ»، وأكثر الأفعال بعده إلى آخر السورة لتأكيد تحقق وقوع ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١].

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فمات كل الذي في السموات والأرض من الأحياء، من شدة النفخة والصعقة وعظمتها.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي شاء الله ألا يصعق ولا يموت، كالذين في الجنة من الحور العين، والولدان، وغيرهم.

قيل: ومنهم الشهداء، وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وخزنة الجنة،

وخزنة النار.

قال ابن تيمية: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى ملك الموت... وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى آخذًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله**»(١).

قال ابن تيمية: وبكل حال النبي ﷺ قد توقف في موسى، هل هو داخل في الاستثناء، فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله، لم يمكنا أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة، وأعيان الأنبياء»(٢).

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، أي: ثم نفخ في الصور نفخة أخرى: نفخة البعث؛ ليحيا جميع الأموات، فالنفخة الأولى لموت من كان حيًا، والثانية ليحيا جميع الأموات.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات:٦-٧] «الراجفة»: النفخة الأولى، و«الرادفة»: النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا جميع الخلائق الموتى ﴿قِيَامٌ﴾، أي: قد قاموا من قبورهم، بين يدي الله تعالى.

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: ينتظرون ماذا يفعل بهم، وينظرون إلى أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء:٥٢].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين- لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين عامًا، أو أربعين شهرًا، أو**

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١١، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٣، وأبو داود في السنة ٤٦٧١، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٤٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥١٥، ٥١٦.

أربعين ليلة.

فيبعث الله عيسى بن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر، فيهلكه الله، ثم يلبث الناس سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه، قال سمعتها من رسول الله ﷺ، وتبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، قال: فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله أو ينزل الله مطرًا كأنه الطلّ، فتنبت منه أجساد الناس، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٤] **قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيبًا، ويومئذ يكشف عن ساق»**[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«بين النفختين أربعون»**. قالوا يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. ويَبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق»[٢].

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت الأرض بنور ربها إذ تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق، لفصل القضاء بينهم.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: أحضر ونشر كتاب الأعمال لكل فرد؛ ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ

(١) أخرجه مسلم في الفتن- باب خروج الدجال ٢٩٤٠، وأحمد ٢/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥.

وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

فآخذ كتابه بيمينه نسأل الله التوفيق، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره- نسأل الله العافية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٩].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعًا من أرسل منهم ومن لم يرسل؛ لحضور القضاء بين الخلائق، وليشهد الذين أرسلوا منهم على أممهم بإبلاغهم إياهم رسالات الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٩].

ويشهدوا عليهم بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون على أعمال العباد من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، وأعضاء الإنسان، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق:٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠].

ومن شهادة هذه الأمة للرسل بالبلاغ، وعلى الأمم قبلهم بقيام الحجة عليهم كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾، أي: حُكم وفُصل بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل التام، والقسطاس

المستقيم، فأُخذ لكل منهم حقه من الآخر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون شيئًا، بنقص من حسناتهم أو زيادة على سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء:٤٠].

حتى أنه في ذلك اليوم يقتضي للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، كما جاء في الحديث[1]؛ إحقاقًا للحق والعدل.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ «ما» في الموضعين: موصولة، أو مصدرية، أي: وفيت وأعطيت كل نفس جزاء الذي عملته، أو جزاء عملها وكسبها، خيرًا كان أو شرًا.

كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧، الأحقاف:١٤، الواقعة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨٢].

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ دون أن يقول: جزاء ما عملت؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي: أعلم بفعلهم، أو بالذي يفعلونه، فقضاؤه عز وجل بين الخلائق وتوفيته إياهم جزاء أعمالهم عن علم تام بهم وبأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ سوقًا عنيفًا بزجر وضرب، وتهديد ووعيد.

---

(١) أخرجه مسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يدفعون إليها دفعًا بشدة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦].

﴿زُمَرًا﴾، أي: أفواجًا وجماعات، جماعات، كل جماعة يشاكل ويناسب بعضها بعضًا في العمل، والعذاب، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الآية:٣٨].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في الموضعين: ﴿فتحت﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقون بتشديدها: «فتِّحت».

و«فتحت»: جواب الشرط «إذا»، ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾، أي: أبوابها السبعة، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٤٤].

أي: فتحت أبوابها فجأة بوجوههم، لحظة وصولهم إليها؛ تهويلًا ورعبًا، وتعجيلًا لعذابهم.

قال ابن القيم: «السر في حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١] ففاجأهم وبغتهم عذابها، وما أعد الله فيها....».

وقال أيضًا: «تفتيح أبوب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم؛ لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه»[1].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ «خزنة»: جمع «خازن»، وهم الملائكة الموكلون بها، وبتعذيب أهلها، غلاظ القلوب والطباع، شداد الأجسام، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٣، ٧٤- ٧٥.

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتقرير، أي: ألم يأتكم رسل كثيرون ﴿مِّنكُمْ﴾، أي: من جنسكم، تعرفونهم، وتعرفون صدقهم، وبلغتكم تتمكنون من الأخذ عنهم، والفهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم:٤]، وكما قال تعالى ممتنًا على العرب وعلى هذه الأمة: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يقرءون عليكم آيات ربكم التي أرسلهم الله بها إليكم، المشتملة على الدلائل والبراهين والحجج الدالة على الحق.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، أي: ويخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: لقاء هذا اليوم العظيم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الذين كفروا: ﴿بَلَىٰ﴾، «بلى»: حرف جواب، لإيجاب السؤال المنفي، أي: بلى، قد جاءتنا رسل كثيرون تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا وحذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: ولكن لم نستجب لهم وكذبناهم؛ لأن الكفر وكلمة العذاب وجبت وثبتت علينا، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك:٨-١٠].

أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة فاعترفوا بذنبهم، واستحقاقهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قال ابن القيم: «وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته»[1].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٤.

﴿قِيلَ﴾ لم يعين القائل، كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم[(١)]، شهادة عليهم باستحقاقهم العذاب، وتقريعًا وتوبيخًا لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر: للإهانة والإذلال.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين مقيمين في جهنم إقامة أبدية، كما دل على ذلك القرآن في أكثر موضع، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فبئس وقبح مأوى ومصير المتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، والمتكبرين على الخلق، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هي، أي: جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، سوق إكرام وإعزاز وإجلال وفودًا إلى الرحمن على النجائب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم:٨٥].

﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، أي: جماعات جماعات، كل طائفة مع من يناسبهم، حسب أعمالهم وثوابهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة**» الحديث[(٢)].

وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ٣٢٥٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧.

ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**اللهم اجعله منهم**». ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**»[١].

وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف، آخذ بعضهم ببعض، حتى يُدخل أولهم آخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ الواو: عاطفة، وحذف جواب الشرط «إذا» تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، أي: حتى إذا جاءوها، نُقُّوا وهُذِّبوا، وشُفِّع فيهم ﷺ؛ لدخول الجنة، وفرحوا واستبشروا بما هم مقبلون عليه من النعيم، ونحو ذلك.

﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، أي: وفتحت أبوابها بشفاعته ﷺ، كما دلت على ذلك السنة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول شفيع في الجنة**»، وفي رواية: «**وأنا أول من يقرع أبواب الجنة**».

وفي رواية: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: يقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»[٣].

قال السعدي[٤]: «وأما الجنة فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها، ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك فيحتاجون لدخولها إلا الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع فيشفعه الله تعالى».

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٨١١، ومسلم في الإيمان- الدليل على دخول طوائف من المسلمين بغير حساب ٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٣، ومسلم في الباب السابق ٢١٩.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٩٦، ١٩٧.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٩٩.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين[(١)]: «ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة، بل يجدونها مغلقة، حتى يشفع النبي ﷺ، فيفتح الله تعالى أبوابها، هذا هو القول الراجح المتعين لدلالة السنة عليه»

وذكر بعض أهل العلم أن الواو العاطفة أتي بها للدلالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها؛ ولهذا يسميها بعضهم: «واو الكرامة».

قال ابن القيم- بعد أن ذكر السر في حذف الواو من الموضع الأول: «وهذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار، فيجيء فيلقاه مفتوحًا، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ وحذف الجواب تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه».

وقال أيضًا: «وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرّع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتى بالواو العاطفة هنا، الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيمًا لشأنه، وتعظيمًا لقدره»[(٢)].

وعلى هذا القول، وهو أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها يكون افتتاحه ﷺ سبق مجيئهم؛ لأن شفاعته ﷺ للمؤمنين لدخول الجنة، وفتح أبوابها لهم ثابتة وفي عقيدة أهل السنة.

وأبواب الجنة ثمانية، كما دلت على ذلك السنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[(٣)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا**

(١) «تفسير سورة الزمر» للشيخ محمد العثيمين في شرحه على الجلالين ص ٤٩٨، ٥٠١.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٣، ٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٧.

فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أنفق زوجين من مال في سبيل الله دعي من أبواب الجنة فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد»**.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة، دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كل أحد يا رسول الله؟ قال: **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»**[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، لكما بين مكة وهجر»**، وفي رواية **«مكة وبصرى»**[٣].

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب، فقال: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم، وهو كظيظ من الزحام»[٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، أي: وقال لهم خزنتها، وهم الملائكة الموكلون بالجنة ونعيمها- تحية وتهنئة لهم وترحيبًا بهم، وإخبارًا لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: سلام عليكم دائم ومستمر، من كل آفة وشر ومكروه.

قال ابن القيم: «فبدؤهم بالسلام، المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة- الذكر المستحب عقب الوضوء ٢٣٤، والنسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم- باب الريان للصائمين ١٨٩٧، ومسلم في الزكاة- من جمع الصدقة وأعمال البر ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان- أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٧.

﴿طِبۡتُمۡ﴾، أي: طابت قلوبكم وأعمالكم وأقوالكم وسعيكم بطاعة الله تعالى، وطهرت من دنس المعاصي نفوسكم، فطاب جزاؤكم، وطابت حالكم.

﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، الأمر: للإكرام، أي: ادخلوا الجنة حال كونكم خالدين فيها، أي: ماكثين مقيمين فيها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة:٢١].

ولا خلاف في أبدية خلود أهل الجنة فيها، كما دل على ذلك القرآن في مواضع كثيرة جدًا.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده استحقاقًا واختصاصًا.

﴿ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، أي: حقق وأنجز لنا وعده على ألسنة رسله، ووفى لنا ما وعدنا، وحقق لنا ما سألناه، كما في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤].

وهذا كقولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥].

﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: أنزلنا وأسكننا أرض الجنة، كما أورثهم أرض الدنيا فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾، أي: ننزل ونسكن منها حيث نشاء، وكل أحد من أهل الجنة لا يشاء سوى الذي هو فيه، ولا يرى أن أحدًا أفضل منه منزلًا ونعيمًا.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ**[١] **اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**»[٢].

---

(١) الجنابذ: جمع «جنبذة»، وهي: القبة.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٢، والترمذي ٢١٣.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «**درمكة بيضاء، مسك خالص**»(١).

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ يحتمل أن يكون هذا كلامًا مبدئيًا من الله تعالى، فيه حث على العمل، أي: اعملوا مثل هذا العمل، لتؤجروا مثل هذا الأجر.

ويحتمل أن يكون من بقية كلام أهل الجنة، زيادة ثناء على الله تعالى، أي: فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى﴾، أي: ترى وتشاهد أيها المخاطب في ذلك اليوم العظيم.

﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، أي: محدقين من حول العرش الذي هو أكبر المخلوقات محيطين به.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: الجملة حالية، والباء: للملابسة، أي: حال كونهم يسبحون متلبسين بحمد ربهم، أي: ينزهونه عن النقائص والعيوب مع وصفه بصفات الكمال، وتمجيده وتعظيمه وتقديسه عن النقص والجور، قارنين بين تسبيحه عز وجل وحمده: سبحانك ربنا وبحمدك، كما جاء في دعاء ختم المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك»(٢).

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الزمر:٦٩ أي: فُصل وحُكم بين الخلائق، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، الذي لا اشتباه فيه، ولا إنكار ممن عليه الحق، فأدخل المؤمنون الجنة، وأدخل الكافرون النار.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» في الحمد للاستغراق، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: للاختصاص والاستحقاق.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، و«العالمين»: كل ما سوى الله.

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٣- وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

ولم يسند القول إلى قائل؛ ليدل على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته، على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار.

قال ابن القيم: «فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم، الذي حكم فيه، فيحمده أهل السموات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار».

وقال: فأخبر عن حمد الكون أجمعه له عقيب قضائه بالحق بين الخلائق، وإدخال هؤلاء إلى جنته، وهؤلاء إلى ناره، وحذف فاعل الحمد، إرادة لعمومه وإطلاقه، حتى لا يسمع إلا حامد، من أوليائه وأعدائه.

كما قال الحسن البصري: «لقد دخلوا النار، وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه ولا سبيلًا»[(١)].

قال قتادة: «فتح أول الخلق بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[(٢)].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى لصعق وموت كل حي من الخلق إلا من استثنى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية.

٣- إثبات النفخة الثانية في الصور لحياة جميع الأموات، وخروجهم من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله ينتظرون ماذا سيفعل بهم وينظرون إلى أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٤- إشراق الأرض وإضاءتها بنور ربها عندما يتجلى لفصل القضاء بين العباد؛

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٧، ٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٧٣.

لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

٥- إثبات صفة النور لله تعالى فهو عز وجل نور السموات والأرض بذاته وصفاته، وقد ذهب بعض أهل العلم، كابن تيمية وابن القيم إلى أن «النور» من أسماء الله تعالى[(١)].

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، وقوله: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧- إحضار كتب أعمال الخلائق، ونشر لكل فرد منهم كتاب أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

٨- الإتيان بالنبيين عليهم السلام في ذلك الموقف العظيم؛ ليشهدوا على أممهم، بأنهم بلغوهم رسالات ربهم، وليشهدوا على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٩- الإتيان بالشهداء على أعمال العباد، من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، والجوارح، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

١٠- القضاء والفصل بين الخلائق بالحق والعدل، من غير ظلم لهم ولا جور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- كمال عدل الله- عز وجل- فلا يظلم أحد من خلقه مثقال ذرة.

١٢- موافاة كل نفس بجزاء عملها، خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فأخبر بتوفيتها عملها مع أن المراد توفيتها جزاء عملها للدلالة على ما ذكر.

١٤- تمام علم الله عز وجل بأفعال العباد وأقوالهم الظاهرة والباطنة؛ ولهذا حكم بينهم بالحق والعدل، ووفى كلًا منهم جزاء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦، وراجع «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٦، انظر «تفسير الآية: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]».

١٥- وجوب مراقبة الله تعالى والحذر من العمل بما لا يرضيه.

١٦- إهانة الكفار وسوقهم بعنف وشدة إلى جهنم جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

١٧- مفاجأتهم بفتح أبواب جهنم في وجوههم لحظة وصولهم إليهم لمفاجأتهم بالعذاب وتعجيله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

١٨- تعدد أبواب جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾، وهي سبعة كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٤٤].

١٩- تقريع خزنة جهنم وتوبيخهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي المنصب على أبدانهم.

٢٠- إثبات خزنة النار، وهم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

٢١- قيام الحجة على المكذبين والكفار وعلى جميع الخلق بإتيان الرسل منهم إليهم، وتلاوتهم عليهم آيات ربهم، وإنذارهم لقاء يوم القيامة، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

٢٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأن الله أرسل الرسل في جميع الأمم وأنزل عليهم الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣].

٢٣- إثبات قدر الله السابق، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: حق علينا الكفر والشقاء والعذاب بالقدر السابق.

٢٤- إهانتهم بأمرهم بدخول أبوب جهنم، وتخليدهم فيها، وتقريعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٢٥- أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، بل هي خالدة، وهم مخلدون فيها أبدًا.

٢٦- أن جهنم بئس المثوى والمصير للمتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، المتكبرين على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد للمتكبرين، يوجب الحذر من الكبر.

٢٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآيات، فبعد أن ذكر مآل الكافرين وحالهم ذكر مآل المتقين وحالهم.

٢٨- سوق المتقين لربهم سوق إعزاز وإكرام إلى الجنة جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

٢٩- فضيلة التقوى، وأنها سبب لدخول الجنة والكرامة.

٣٠- فتح أبواب الجنة لهم إذا جاءوها؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وذلك بشفاعته ﷺ لهم.

٣١- تعدد أبواب الجنة، وهي ثمانية كما دلت السنة على ذلك.

٣٢- إثبات خزنة الجنة وهم الملائكة الموكلون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٣- سلام خزنة الجنة على أهلها، وإخبارهم لهم بالسلامة في دار السلام، وترحيبهم بهم وتهنئتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

٣٤- ثناء خزنة الجنة على أهلها بطيبهم وطيب سعيهم وأعمالهم، وطيب مقامهم، وطيب ما أعد لهم، والإذن لهم بدخول الجنة على وجه الإكرام، والبشارة لهم بالخلود فيها، فجمع الله لهم بين نفي الآفات، وطيب الأحوال والأوقات.

٣٥- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى أهلها، وهذا بالإجماع.

٣٦- شتان بين ما يقابل به أهل الجنة وأهل النار، فأهل النار يقابلون بالتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، وأهل الجنة يقابلون بالسلام والتكريم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ نسأل الله من فضله.

٣٧- ثناء أهل الجنة على الله عز وجل بالكمال والإفضال بتحقيقه ما وعدهم به،

وتوريثهم أرض الجنة ونعيمها، يتبوءون منها حيث شاءوا، ويتناولون من نعيمها أيّ نعيم أرادوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٣٨- صدق الله تعالى وعده لأهل الجنة؛ لأنه لا أحد أصدق بوعده ولا أوفى بعهده من الله؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾.

٣٩- إثبات المشيئة للعباد والاختيار؛ لقولهم: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٤٠- امتداح ما أعد للمتقين العاملين من عظيم الأجر والثواب، وطيب المقام والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾.

٤١- منة الله تعالى على أهل الجنة بتسمية ثوابهم أجرًا، وإيجابه ذلك على نفسه- كرمًا منه وفضلًا.

٤٢- إحاطة الملائكة وإحداقهم بالعرش، وتسبيحهم بحمد الله، وتعظيمهم وتقديسهم وتنزيهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، وتسبيحهم بحمد الله تعالى وتعظيمهم وعبادتهم له وقيامهم بما وكل إليهم من أعمال.

٤٤- إثبات العرش، الذي هو أكبر المخلوقات.

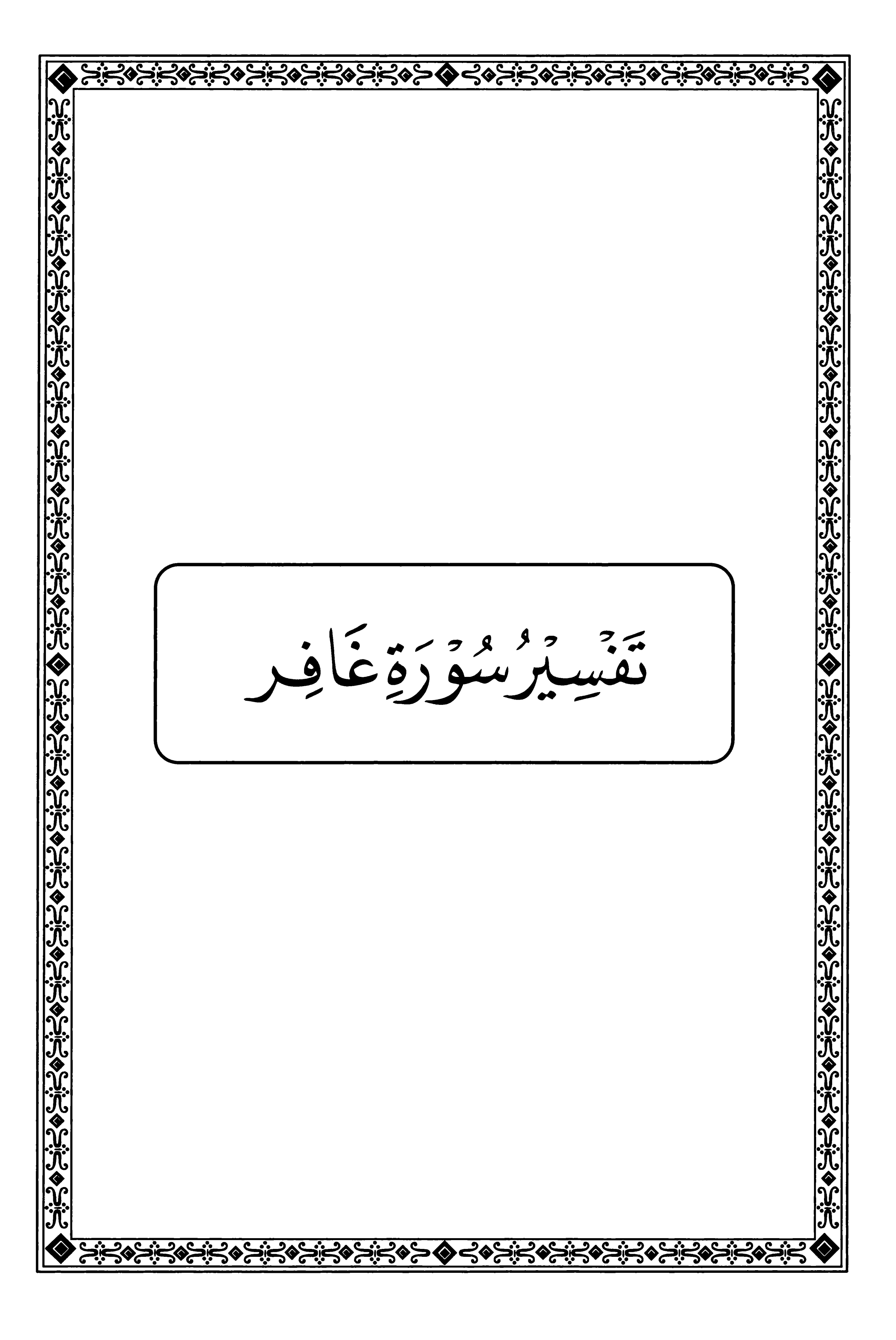
٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للملائكة.

٤٦- تأكيد قضائه- عز وجل- بين الخلائق بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

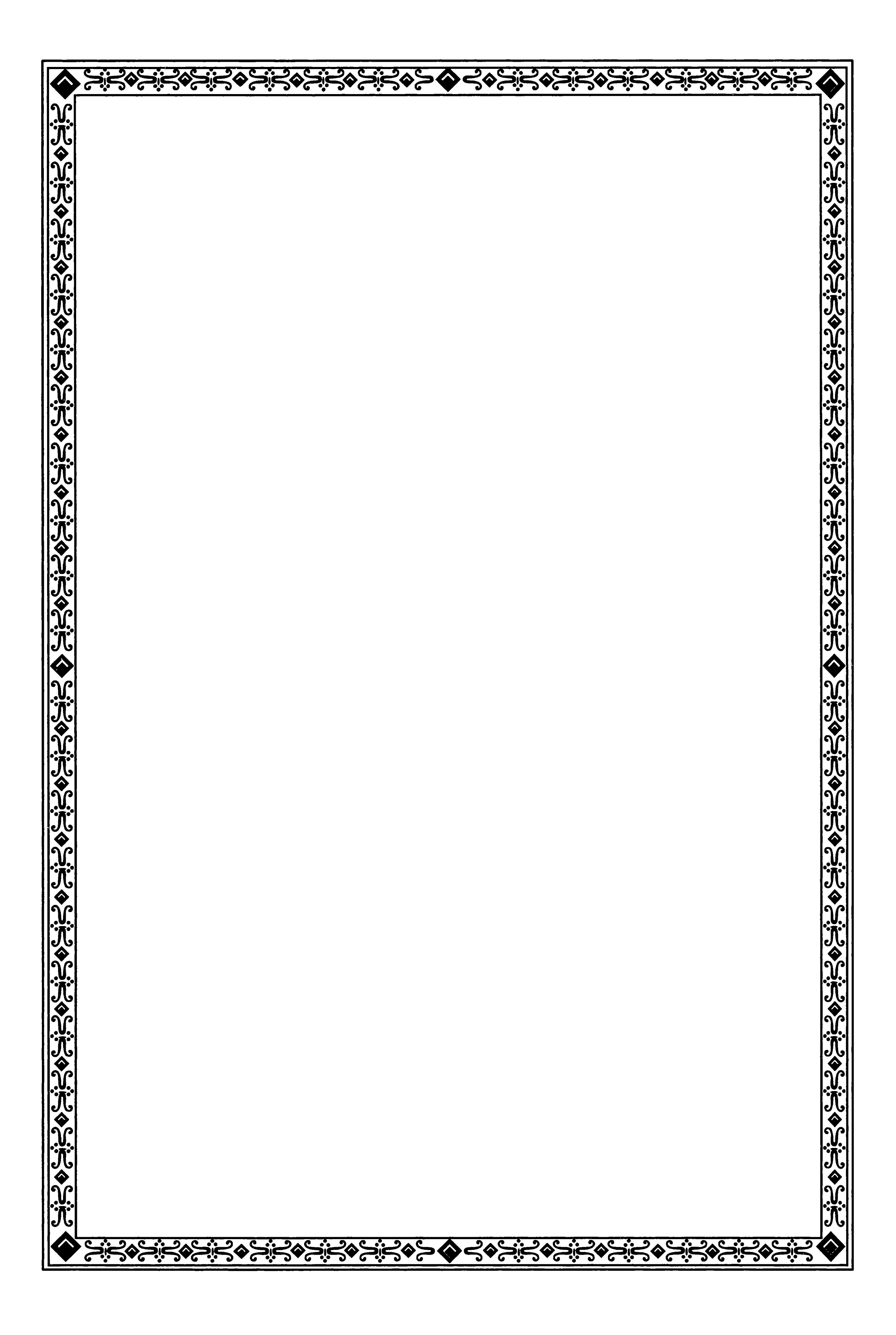
٤٧- حمد الله تعالى لنفسه، وحمد الخلائق كلهم له عز وجل على حكمته وقضائه بينهم بالحق، وتوفيته كل منهم جزاء عملهم، وإدخال الكفار النار، وإدخال المتقين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٤٨- اختصاص الله تعالى واستحقاقه لكمال الحمد.

* * *



تَفْسِيرُ سُوْرَةِ غَافِر



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة غافر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [الآية: ٣].

وتسمى: «سورة المؤمن»؛ لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] والآيات بعدها. ويقال: «حم المؤمن».

كما تسمى: «سورة الطَول»؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [الآية: ٣].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: «**إن بيِّتم فليكن شعاركم: «حم»، لا ينصرون**»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ «حم المؤمن» إلى (إليه المصير)، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأ بهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح**»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل: «سورة غافر» بتعظيم كتابه، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل، والثناء على نفسه، وإثبات وحدانيته: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- الرجل ينادي في الشعار ٢٥٩٧، والترمذي في الجهاد- ما جاء في الشعار ١٦٨٢. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٧: «وهذا إسناد صحيح». وأخرجه أحمد ٤/ ٦٥، ٥/ ٣٧٧.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٧٨٩- وقال: «حديث غريب»، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٦- ١١٧- من رواية أبي بكر البزار.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه، وذم الذين كفروا، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾.

٣- إثبات حملة العرش من الملائكة، وتسبيحهم بحمد ربهم، وإيمانهم به، وثنائهم عليه، واستغفارهم للمؤمنين، ودعائهم لهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

٤- النداء على الذين كفروا وهم في النار بشدة مقت الله لهم لكفرهم وشركهم وعدم إيمانهم، واعترافهم آنذاك بذنوبهم وطلبهم الخروج من النار وهيهات لهم ذلك وتقريعهم وتوبيخهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾.

٥- إقامته عز وجل الحجة على العباد بوجوب إخلاص الدين له؛ بما يريهم من الآيات، ونعمته عليهم بما ينزل لهم من رزق، وتذكيرهم وتخويفهم أهوال يوم القيامة والحساب والجزاء، وإبطال ما يدعى من دونه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾.

٦- توبيخ المكذبين لما لم يعتبروا- وهم يسيرون في الأرض ويرون آثار المكذبين قبلهم كيف أهلكهم الله، وهم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون، ورميهم إياه بالسحر وتكذيبهم له، وإيذائهم لبني إسرائيل، وتهديد فرعون لموسى بالقتل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

٨- نصح الرجل المؤمن من آل فرعون لهم، ونهيه إياهم عن قتل موسى، وتخويفه لهم من بأس الله، وزوال ملكهم، وأن يحل بهم ما حل بالأحزاب والمكذبين قبلهم، ودعوته لهم أن يتبعوه؛ ليهديهم سبيل الرشاد، وتزهيدهم في الدنيا، وترغيبهم في الآخرة والجنة، وتخويفهم يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله : ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي

لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

٩- ذكر رسالة يوسف عليه السلام ومجيئه قومه بالبينات، وشكهم فيما جاءهم به وإضلال الله لهم بسبب إسرافهم وإرتيابهم ومجادلتهم بآيات بغير سلطان آتاهم، ومقت الله والذين آمنوا لهم، وطبعه عز وجل على قلوبهم لتكبرهم وجبروتهم.

١٠- شدة طغيان فرعون وجبروته وجرأته على الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١١- وقاية الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح سيئات مكرهم، وإحاطة سوء العذاب بهم: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وتحاجهم وتخاصمهم في النار، وسؤالهم تخفيف العذاب عنه، وتقريعهم وتيئيسهم من ذلك ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الآية:٤٧] إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

١٢- تكفله عز وجل ووعده بنصرة رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتهديد الظالمين ووعيدهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

١٣- التذكير بما أتاه الله تعالى موسى من الهدى وما أورثه لبني إسرائيل من الكتاب «التوراة»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

١٤- ذم المجادلين في آيات بغير سلطان آتاهم لكبر في صدورهم، ومقتهم،

والاستدلال على بعث الناس بخلق السموات والأرض: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾.

١٥- شتان بين الأعمى والبصير والمؤمن والكافر: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾.

١٦- إثبات البعث وقيام الساعة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الآية: ٥٩].

١٧- وجوب دعوة الله تعالى وعبادته وذم المستكبرين عن عبادته وتهديدهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للناس، والامتنان عليهم بذلك؛ وجعل الله الليل سكنًا، والنهار مبصراً، وخلق كل شيء لا إله إلا هو، وجعل الأرض لهم قراراً، والسماء بناء وصورهم فأحسن صورهم ورزقهم من الطيبات، خلقهم من تراب، ونقلهم في مراحل خلقهم من طور إلى طور، بيده الحياة والموت، والأمر كله، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾.

١٩- ذم المجادلين في آيات الله، المكذبين بكتب الله وبما أرسل به رسله، ووعيدهم بما أعد لهم من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ

أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٠- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر ووعيد المكذبين له، وبيان أحوال الرسل من قبله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ ﴾ [الآية:٧٧] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢١- الامتنان على العباد بما جعل الله لهم من الأنعام، وإظهار آياته لهم مما لا يستطيعون إنكاره: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

٢٢- تأكيد توبيخ المكذبين كيف لا يعتبرون وهم يسيرون في الأرض ويرون آثار عقوبات المكذبين قبلهم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء، لا معنى لها في ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي بالقرآن، وإثبات إعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره، وغير ذلك.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الزمر.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ صفة ثالثة للفظ الجلالة «الله»، و«ال» في «الذنب»: للجنس، أي: غافر الذنوب.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة قوله عز وجل لعبده: «**أتذكر ذنب كذا وكذا؟**» فيقول: نعم يا رب. فيقول الله عز وجل: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

فهو عز وجل ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ما دون الشرك لمن يشاء، ويغفر الذنوب كلها، بما فيها الشرك لمن تاب وأناب إليه؛ ولهذا قال:

(١) سبق تخريجه.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ معطوف على ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، وحسن العطف هنا؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب صفتان وفعلان متغايران، فالأول يتعلق بالإساءة والإعراض، وهو المغفرة، والثاني يتعلق بالإحسان والإقبال على الله، والرجوع إليه، وهو التوبة(١).

أي: وقابل التوبة والرجوع ممن تاب وأناب إليه، فرجع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الإباق عن ربه إلى الرجوع إليه.

فيغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل ممن تاب، بشروط التوبة الخمسة، وهي: الإخلاص لله، والإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تمرد وطغى، وأصر على الكفر والمعاصي ولم يتب.

وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فعقابه مؤلم شديد من حيث كيفه وكمه ومدته؛ كما أن مغفرته واسعة.

وهذا يوجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، فلا يغلِّب أحدهما على الآخر.

وقال بعضهم: يغلب الخوف حال الصحة، ويغلب الرجاء حال المرض.

وقال بعضهم: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلب الخوف إذا هم بمعصية.

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، أي: صاحب الغنى الواسع، والتفضل والإنعام التام، والإحسان الشامل على الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

قال ابن القيم: «وأما ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي: الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له»(١).

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨١.

ووقوع وصفه بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله، وصفة رحمة بعده- فقبله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وبعده: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾- فيه تصديق وشاهد لقوله عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[١].

وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»[٢].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى من قوله تعالى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾؛ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة»[٣].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: إليه وحده المرجع والمآل، أي: مآل جميع الخلائق، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ كما أن إليه مآلات الأمور كلها؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ما يجادل ويخاصم وينازع في آيات الله الكونية والشرعية، ويدفع ما دلت عليه من الحق بالباطل بعد البيان وظهور البرهان؛ كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، ٧٤٠٤، ومسلم في التوبة، سعة رحمة الله تعالى، ٢٧٥١، والترمذي في الدعوات، ٣٥٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، ٧٤٢٢، ومسلم في الباب السابق، ٢٧٥١، وابن ماجه، في المقدمة، ١٨٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨٣.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٢.

تعالى بعد هذا: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته وكذبوها.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فلا يغرك ولا يخدعنك تنقلهم وترددهم في البلاد بأموالهم وتجاراتهم، وما هم فيه من نعيم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

أي: فليس في ذلك دلالة على محبة الله لهم، ولا أنهم على الحق كما يزعمون، بل ذلك استدراج لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، أي: قبل الذين كذبوا النبي ﷺ من قومه.

﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ «نوح»: أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن الشرك.

﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ الأحزاب: جمع «حزب»، وهي: الطائفة، أي: الطوائف والأمم من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا ضد رسلهم؛ ليبطلوا ما جاؤوا به من الحق، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم.

﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾ الذي أرسل إليهم ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾، أي: ليقتلوه.

أي: عزمت وحرصت كل أمة من هذه الأحزاب والأمم على قتل رسولهم بكل ممكن؛ كما قال الله تعالى عن ثمود: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾ [النمل: ٤٩].

وقال تعالى عن قريش: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قتل بنو إسرائيل كثيرًا من أنبيائهم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدحضوا، أي: يزيلوا ويبطلوا به الحق؛ كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، أي: باطلة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من أعان باطلًا ليدحض بباطله حقًّا، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله**»[(١)].

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ الفاء: للسببية، أي: فعاقبتهم وأهلكتهم بسبب تكذيبهم رسلي، وما جاؤوا به من الحق، ومجادلتهم بالباطل؛ ليدحضوا به الحق.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام: للتعجب والتقرير والتعظيم، أي: فكيف كان عقابي لهم؟ أي: ما أشد عقابي لهم وآلمه وأوجعه! حيث استأصلهم عن آخرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالجمع: «كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: كما وجبت وثبتت كلمة ربك القدرية الكونية بأخذ المكذبين السابقين وإهلاكهم، كذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا من قومك وكذبوك بتعذيبهم، وأنهم من أصحاب النار.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ١﴾.

٢- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٩ ونسبه لأبي القاسم الطبراني.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته.

٤- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق.

٥- تعظيم القرآن الكريم؛ لأن «الكتاب» إذا أطلق فالمراد به: القرآن الكريم أفضل كتب الله تعالى، وأعظم الكتب على الإطلاق.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٨- إثبات صفة المغفرة وصفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه يغفر ذنوب المذنبين، ويقبل توبة التائبين؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وهذا يوجب علينا أن نتعرض لأسباب مغفرته، ونتوب إليه.

٩- شدة عقابه تعالى لمن كفر به وخالف أمره وعصاه من غير توبة؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، وهذا يوجب الحذر من التعرض لأسباب عقابه.

١٠- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ مما يوجب أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء في طريقه إلى الله.

١١- سعة غناه عز وجل وفضله وإفضاله، وإنعامه وإحسانه التام على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

١٢- إثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته، وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

١٣- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

١٤- ظهور آيات الله وحججه الدالة على الحق، ووضوحها تمام الوضوح، وأنه ما

يجادل فيها إلا الكافرون بالله، الجاحدون لآياته، المكذبون بها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٥- أن الكفر سبب للمجادلة في آيات الله، والتكذيب بها، وجحودها.

١٦- لا ينبغي الاغترار بما عليه الكفار من النعيم الدنيوي والتقلب في البلاد، والتنقل فيها بأموالهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

١٧- أن إدرار النعم في الدنيا ليس دليلًا على محبة الله ورضاه، ولا على استحقاق تلك النعم، وقد يكون استدراجًا.

١٨- تسلية النبي ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسلهم، وهمهم بقتلهم، ومجادلتهم بالباطل؛ لإبطال الحق، وعقابه الشديد لهم، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

١٩- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾.

٢٠- شدة ما لقي الرسل عليهم السلام من التكذيب والأذى من أممهم، حتى همت كل أمة بقتل رسولها، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

وفي هذا درس للمربين من الآباء والأمهات، والمعلمين والدعاة والمصلحين وغيرهم؛ ليتحلوا بالصبر الجميل، ويعلموا أن طريق الدعوة إلى الله تعالى ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الابتلاء.

٢١- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾؛ لأن الفاء للسببية.

٢٢- شدة عقاب الله تعالى وأخذه للظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

٢٣- إثبات قدر الله السابق في إهلاك المكذبين وأخذهم بالعقوبات في الدنيا، وتعذيبهم في الآخرة بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

٢٤- إثبات الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله، وكلماته كونية وشرعية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٦- خلود الكفار في النار، وملازمتهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، أي: الملائكة المقربون الذين اختارهم الله تعالى؛ لشرفهم وفضلهم، وقوتهم وشدتهم، وجعلهم ﴿يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾: عرش الرحمن الذي هو سقف المخلوقات وأكبرها وأعظمها وأوسعها، وعددهم فيما ذكر أربعة[1]، أما يوم القيامة فحملة العرش ثمانية؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧].

قال شهر بن حوشب: «حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانك اللهم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٢٠.

وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[(١)].

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ «من»: موصولة، أي: والذين حول العرش من الملائكة المقربين الكروبيين الحافين من حول العرش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خبر الموصول «الذين»، والباء: للملابسة، أي: يقرنون بين تسبيح ربهم، بعبادته وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وبين حمده بالثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم؛ كما جاء في دعاء ختم المجلس: «**سبحانك ربنا وبحمدك**»، أو: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»[(٢)].

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، أي: ويؤمنون بربهم، أي: يصدقون به باطنًا، وينقادون له ظاهرًا بجوارحهم.

والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وإلهيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قدَّم لذكر استغفار هؤلاء الملائكة للذين آمنوا؛ بذكر شرفهم وفضلهم، ورفعة شأنهم، وعظيم منزلتهم باختيارهم لحمل عرش الرحمن، وكونهم حول العرش، والثناء عليهم بالتسبيح بحمد ربهم والإيمان به؛ لأن هذا كله من أسباب قبول استغفارهم ودعائهم للمؤمنين.

وفيه التنويه بشأن المستغفَر لهم، وهم المؤمنون.

أي: ويطلبون من الله تعالى المغفرة للذين آمنوا، أي: للمؤمنين من أهل الأرض، الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، أي: والملائكة من حملة العرش ومن حوله وغيرهم، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين؛ لأن استغفار الملائكة للمؤمنين إنما

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره».

(٢) سبق تخريجه.

هو بسبب إيمانهم، وهذا من فضائل الإيمان وثمراته؛ إذ لو لم يكونوا مؤمنين لما استغفرت لهم الملائكة، وما جاز الاستغفار لهم؛ كما قال عز وجل لسيد الخلق:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فرحمته عز وجل وسعت كل شيء، وعمت كل حي، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة للمؤمنين.

﴿وَعِلْمًا﴾: معطوف على ﴿رَّحْمَةً﴾، أي: وسعت كل شيء علمًا، أي: أحاط علمك بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال شعيب عليه السلام: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ بعد أن نادى الملائكةُ ربَّهم ودعوه، وتوسلوا إليه بوصف الربوبية، وبالثناء عليه، وبسعة رحمته وعلمه، سألوه المغفرة للتائبين، فقالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، أي: فاغفر للذين تابوا وأنابوا إليك من الشرك والمعاصي.

﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، أي: واتبعوا طريقك، وسلكوا صراطك المستقيم، بالإيمان والعمل الصالح، أي: فاغفر لهم ذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ «الجحيم»: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة توقدها وحرها، أي: جنبهم عذاب النار المؤلم الموجع، واجعلهم في وقاية منه.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ قدّموا طلب المغفرة لهم ووقايتهم عذاب الجحيم على هذا؛ لأنه لا يُلتذُّ بحصول المطلوب، إلا بعد النجاة من المرهوب، والتخلية قبل التحلية.

وأعادوا التوسل إلى الله تعالى بندائه بوصف الربوبية استجلابًا لرحمته، أي: يا ربنا ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، أي: جنات الإقامة الأبدية.

﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ «التي»: صفة لـ«جنات»، أي: التي وعدتهم في كتبك وعلى ألسنة رسلك، ووعدك الحق، فتوسلوا بوعده عز وجل إلى تحقيق موعوده.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم موصول في محل نصب معطوف على ضمير المفعول في «أدخلهم».

أي: وأدخل الذي صلح بالإيمان والعمل الصالح- من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم- جنات عدن التي وعدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: ٢١].

﴿ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمع «أب»، يشمل الآباء والأجداد من أي جهة؛ لأن الجد يسمى أبًا؛ كما يشمل الأمهات والجدات؛ لأن قوله: ﴿ءَابَآئِهِمۡ﴾ من باب تغليب الآباء على الأمهات؛ كما هي طريقة القرآن في تغليب الذكور على الإناث.

والشفاعة للأم أولى من الشفاعة للأب؛ لأن الأم حقها أعظم وأعظم وأعظم.

﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾: جمع «زوج»، فتشفع الزوجة للزوج، ويشفع الزوج لزوجته.

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾: جمع «ذرية»، ويشمل ذلك أولادهم، وأولاد الأبناء وإن نزلوا، وقد يشمل ذلك أولاد البنات، وفضل الله واسع.

وقد رُتب المذكورون في الآية ترتيبًا وجوديًا، أي: على ترتب وجودهم: أب، ثم زوج، ثم ذرية.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: تعليل للدعاء قبله، وتوسل إلى الله تعالى بهذين الاسمين، أي: إنك أنت وحدك ذو العزة التامة، لا تمانع ولا تغالب، ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وذو الحكم التام، تحكم وتقضي بالحق في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك.

وذو الحكمة البالغة، تضع الأمور مواضعها، فاستجب دعاءنا لهم، واغفر لهم.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، أي: وجنبهم ما يسوء من الأعمال، في الحال والمآل، واصرفهم عنها، واحفظهم منها، ومن عقوباتها وعذابها.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: ومن تصرف عنه سوء عاقبة السيئات ووبالها وعقابها يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ [غافر: ٤٥]، أي: فصرف الله عنه سوء عاقبة سيئات مكرهم، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي: وإن تصبهم مصيبة وعقوبة.

﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾: جواب الشرط «من»، والفاء : رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، أي: فقد أنلته رحمتك، فنجا من المرهوب، وظفر بالمطلوب؛ ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الإشارة تعود إلى الوقاية من السيئات وعقوباتها، والدخول تحت رحمة الله عز وجل، أي: إلى زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المطلوب برحمة الله.

وضمير الفصل «هو»؛ لإفادة الحصر والتوكيد، و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أي: فقد فاز بالنجاة من النار، ودخول الجنة، والتنعم بما فيها من ألوان النعيم ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا أعظم منه، ولا يقدر قدره إلا من وصفه بـ«الفوز العظيم»، وهو العلي العظيم، وأعظم ذلك وأجله: رؤية الرب العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، النداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة: الكلام من قريب، أي: ينادون وهم في جهنم في غمرات النار والعذاب، من قبل الملائكة خزنة جهنم؛ تبكيتًا لهم وتقريعًا.

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمقت الله إياكم، من إضافة المقت إلى فاعله، أي: لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم.

ويحتمل أن المقت مضاف إلى مفعوله، أي: لمقتكم الله أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم.

والمقت: أشد البغض. والمقت والبغض من الصفات الاختيارية الفعلية لله تعالى؛ كما قال ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[1]، وقال ﷺ: «**وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»[2].

﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: أكبر وأعظم من مقتكم وبغضكم أنفسكم، التي أوردتكم النار، وأوبقتكم في العذاب.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم البينات على ما دعوكم إليه من الحق.

﴿فَتَكْفُرُونَ﴾، أي: فتجحدون وتُكذِّبون، وتأبون الإيمان.

والمعنى: لمقت الله إياكم في الدنيا؛ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن وأنتم في النار.

قال قتادة: «يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه، وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة»[3].

وعلى ما قيل من احتمال كون المصدر في قوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مضافًا إلى مفعوله، يكون المعنى: لمقتكم الله في الدنيا وبغضكم له حين تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة الأولى حين كانوا عدمًا، وقبل نفخ الأرواح في الأجنة؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٨٨.

١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدمًا.

والإماتة الثانية بعد الحياة الدنيا، فالإماتة الأولى ما قبل الحياة، والإماتة الثانية ما بعد الحياة، والإماتة الأولى ليست إماتة بعد حياة، ولكنها عدم حياة، فصح أن يطلق عليها الموت.

﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الحياة الأولى في الدنيا، والحياة الثانية في الأخرى، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

ومقصودهم من قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: الإقرار بأن الأمر حق، أي: فكما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة: موت فحياة، ثم موت فحياة، فإنا أدركنا خطأنا.

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، أي: أقررنا بذنوبنا، أي: بكفرنا وإنكارنا للبعث وخطأنا.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ «هل»: للاستفهام، أو للتمني، و«خروج»: نكرة تفيد العموم، أي: فهل إلى أيِّ خروج من النار.

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث العموم، أي: من أيِّ سبيل، أي: من أيِّ طريق للخروج من النار؛ لنرجع إلى الدنيا؛ لنؤمن ونعمل صالحًا.

وقد أجيبوا بالتوبيخ والتبكيت، وزيادة تيئيسهم من الخروج بقوله:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب، والباء: للسببية، أي: بسبب أنه في الدنيا.

﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾، أي: إذا دعي الله وعبد وحده، ﴿كَفَرْتُمْ ۖ﴾ بتوحيده، وأنكرتم وحدانيته.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾، أي: يجعل له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾، أي: تؤمنوا بالشرك وتصدقوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

أي: فهذه حالكم في السابق، وهي حالكم لو أخرجتم من النار، ورددتم إلى الدنيا؛

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

ولهذا أجيبوا في آيات أخرى بما هو أقسى وأشد توبيخًا وتبكيتًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦- ١١٠].

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، أي: فالحكم في أمركم وفي تعذيبكم، وفي كل شيء: مستحَق لله وحده؛ فهو الحكم العدل الذي لا يحيف ولا يجور، ولا يغَيَّر حكمه ولا يبدل، له الحكم الشرعي، والحكم الكوني، والحكم الجزائي، يهدي ويرحم من يشاء بفضله، ويضل ويعذب من يشاء بعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿ٱلْعَلِىِّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو الصفات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ ذو الكبرياء والعظمة، الذي هو أكبر وأعظم من كل شيء؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»[(١)].

و«العلي» و«الكبير»: من أسمائه عز وجل، وفي اقترانهما في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، أي: هو عز وجل الذي يظهر ويبين لكم آياته العظيمة في هذا الكون علويِّهِ وسُفْلِيِّه، وفي أنفسكم حتى تروها عيانًا؛ لتستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى وعظمته، واستحقاقه العبادة وحده دون غيره.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فكل ما في الكون من آياته عز وجل، الدالة على عظمته وتمام ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يعصى الإله أو كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؟[1]

كما أظهر عز وجل وبيَّن الآيات الشرعية التي أنزلها على رسله وأراها العباد، وفصّلها لهم؛ ليعملوا بها.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ لما ذكر منته عليهم، بإشهاده إياهم آياته الدالة على كمال قدرته وعظمته، أتبع ذلك بذكر منته ونعمته عليهم بالرزق.

وقدم الامتنان بإظهار الآيات على إنزال الرزق؛ لأن النعمة الدينية أهم وأكبر وأعظم من النعمة الدنيوية.

والمراد بالسماء: العلو، وليس السقف المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والرزق: هو العطاء، والمراد به هنا: المطر، أي: ونزل لكم من السماء مطرًا يخرج لكم به الجنات والزروع، والنخيل والأعناب، وأنواع الثمار وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩- ١١].

كما يُقدِّر عز وجل أرزاقكم وغير ذلك بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: وما يعتبر ويتعظ ويتفكر ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«من»: اسم موصول، أي: إلا الذي ينيب ويتوب من الكفر والفسوق والعصيان، ويرجع إلى الله تعالى، وإلى طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

لما بين عز وجل أنه أرانا آياته، وأقام علينا الحجة، وتكفل لنا بالرزق: أمرنا أن ندعوه مخلصين له الدين.

قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾: دعاء عبادة ودعاء مسألة، أي: اعبدوه، بأداء ما أمركم به؛ من الصلاة والزكاة والصوم والحج، وبر الوالدين، وغير ذلك، وقد قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

وادعوه واسألوه من خيري الدنيا والآخرة، فذلك عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: مخلصين له العمل من الشرك، سواء كان عبادة، أم دعاءً وسؤالًا.

والإخلاص: التنقية، أي: منَقِّين دينكم من الشرك.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إخلاصكم لله تعالى الدين والعمل، والدعاء والعبادة، فلا تبالوهم، ولا تكترثوا بهم.

---

(١) سبق تخريجه.

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»(١).

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رفيع الدرجات، العلي الأعلى فوق خلقه بذاته وصفاته، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلا؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش، الذي على العرش استوى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: ينزل الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، أي: قوله، على الذي يشاء من عباده من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بواسطة جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وسمي الوحي بـ«الروح»؛ لأن الوحي به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥٠٦، والنسائي في السهو، التهليل بعد التسليم ١٣٣٩، وأحمد ٤/ ٤.

[الأنعام: ١٢٢].

قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: على الذي يشاء من عباده؛ ممن اختارهم بعلمه وحكمته لحمل رسالاته، وتبليغ وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر عز وجل، أو رسوله الملقى إليه الوحي: يوم التلاق.

والإنذار: الإعلام المقرون بالتحذير والتخويف، أي: ليحذر ويخوف الناس يوم التلاق، أي: يوم القيامة، وشدته وعذابه وأهواله، ويحث على الاستعداد له.

عن علي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يوم التلاق»: اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده»(١).

وسمي يوم القيامة: «يوم التلاق»؛ لأنه يوم لقاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥].

كما يلتقي فيه الأولون والآخرون، وأهل السماء وأهل الأرض، وجميع الخلائق، ويلقى كل عامل عمله وجزاءه.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ «يوم»: بدل من «يوم» في قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

أي: يوم هم ظاهرون بادون، لا شيء يحجبهم ولا يسترهم، في صعيد واحد، وأرض بارزة لا عوج فيها ولا أمت، يُسمعهم الداعي، ويَنْفذُهم البصر؛ كما جاء في الحديث(٢).

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ بيان لجملة ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾، و﴿شَيۡءٞۚ﴾: نكرة في سياق النفي، يفيد العموم، أي: لا يخفى على الله منهم أيُّ شيء، أي: لا يستتر ولا يغيب عن علمه منهم أي شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة؛ لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٩٦.

(٢) سبق تخريجه.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: فيقال: لمن الملك اليوم- يعني: يوم القيامة- والقائل هو الله عز وجل، أي: من المالك الذي له جميع الملك، المتصرف الذي له التصرف التام؟ فيجيب عز وجل بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: لله عز وجل خاصة؛ كما جاء في الحديث: «**يطوي الله السموات بيمينه والأرضين بشماله، فيهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الدنيا**»(١).

﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾، أي: الواحد الأحد الفرد في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر جميع المخلوقات، وذلت وخضعت لقهره جميع الكائنات.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي: تجازى وتثاب وتكافأ كل نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبته، أو بكسبها، أي: بعملها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، أي: موافقًا لأعمالهم، فيجازي الله المؤمنين بالفضل: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويجازي الكافرين بالعدل، السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، وكرر للتأكيد، و«لا»: نافية للجنس، و«ظلم»: اسمها، وهو نكرة في سياق النفي، فيعم نفي أيِّ شيء من الظلم مهما قل، أي: فلا شيء من الظلم، لأي أحد من الخلق، لا بنقص من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١﴾ [النحل: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال ﷺ في الحديث القدسي، فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: حسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب، وعمر الإنسان مهما طال فهو قصير، بل الدنيا كلها قليل بالنسبة للآخرة؛ كما أن الإنسان يجد عاجلًا في الدنيا شيئًا من جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا.

كما أنه لكمال علمه بهم وبأعمالهم وجزائهم، وتمام قدرته، يحاسب الخلائق بأسرع وأقل وقت؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

وقد استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤] على أن الله عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم في النصف الآخر يقيل أهل الجنة فيها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العرش وعظمته، وحملته من الملائكة ومن حوله، والتنويه بهم، وبفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾.

٢- تسبيح حملة العرش من الملائكة ومن حوله بحمد ربهم، وإيمانهم به، والثناء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٣- فضيلة الجمع بين تسبيح الله تعالى وحمده؛ لأن في الجمع بينهما وصفه عز وجل بكمال الكمال؛ لأن في التسبيح التنزيه عن النقائص والعيوب، وفي الحمد الثناء على الله ووصفه بصفات الكمال.

---

(١) سبق تخريجه.

٤- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم التسبيح على الحمد.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لحملة العرش من الملائكة ومن حوله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

٦- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح؛ من العبادة والتسبيح والتحميد، وبين الإيمان الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٧- استغفار حملة العرش ومن حوله من الملائكة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا من تسخير الله تعالى للمؤمنين، وبركة الإيمان.

٨- إثبات سعة رحمة الله تعالى، وعلمه لكل شيء؛ لقول الملائكة: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

٩- التوسل إلى الله تعالى بصفاته، وأن ذلك من أسباب إجابة الدعاء؛ لقول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، فتوسلوا إليه بربوبيته، وسعة رحمته وعلمه.

١٠- دعاء الملائكة بالمغفرة للذين تابوا إلى الله، واتبعوا سبيله، وبوقايتهم عذاب الجحيم؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١١- أن من تمام تحقيق التوبة: اتباع سبيل الله بالإيمان والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

١٢- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، فأضاف ذلك إليهم، وفي هذا الرد على الجبرية.

١٣- أن زوال المكروه مقدم على جلب المحبوب؛ لقول الملائكة: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

١٤- إثبات النار وعذابها، وتسميتها الجحيم؛ لشدة توقدها وحرها.

١٥- دعاء الملائكة للتائبين المتبعين سبيل الله، بإدخالهم جنات عدن ومن صلح بالإيمان والإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾.

١٦- إثبات جنات عدن التي وعد الله بها عباده الصالحين، وأنها دار إقامة لا ظعن منها.

١٧- صدق وعده عز وجل المؤمنين بجنات عدن، وأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لهذا توسل الملائكة بوعده بقولهم: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾.

١٨- شفاعة المؤمنين في الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وغيرهم.

١٩- فضيلة الصلاح، وأنه سبب لشفاعة أهله بعضهم لبعض.

٢٠- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢١- إثبات اسم الله: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢٣- دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين سبيل الله بوقايتهم من السيئات وعقابها؛ لقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

٢٤- أن من وقاه الله السيئات فقد رحمه؛ لقول الملائكة: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾.

٢٥- أن الرحمة كما تكون في جلب المحبوب والمرغوب، تكون في دفع المكروه، وأن من وقي النار والعذاب، فمآله الجنة والثواب.

٢٦- إثبات القيامة وما فيها من الجزاء بالثواب والعقاب، والأهوال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ الآية، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

٢٧- إثبات رحمة الله الخاصة لأوليائه؛ لقول الملائكة: ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾، أي: برحمتك الخاصة.

٢٨- أن الفوز العظيم، الذي لا أعظم منه أن يقي الله العبد من عمل السيئات

وعقابها، ويشمله برحمته، ويدخله جنته، وينيله نعيمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢٩- فضيلة الإيمان والتوبة واتباع سبيل الله، وأن ذلك سبب لاستغفار الملائكة وسؤالهم المغفرة لهم، وإدخالهم وصالحيهم جنات عدن، ووقايتهم عذاب الجحيم والسيئات وعقوباتها، ورحمة الله إياهم، وحصولهم على الفوز العظيم.

٣٠- مناداة خزنة النار للذين كفروا وهم في غمرات النار؛ تبكيتًا لهم وتوبيخًا وتقريعًا: لمقت الله إياكم في الدنيا حين تدعوكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم لأنفسكم التي أدخلتكم النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٣١- مقت الكفار وهم في غمرات النار لأنفسهم التي أوردتهم النار، وأوبقتهم في العذاب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣٢- إثبات صفة المقت لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- إثبات إقامة الحجة على هؤلاء المكذبين المعذبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

٣٤- شدة حسرتهم، وتوسلهم بربوبية الله تعالى، وكمال قدرته؛ حيث أماتهم مرتين وأحياهم، وإقرارهم أن الأمر حق، واعترافهم بذنوبهم عسى أن يجابوا في الخروج من النار والعودة إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحًا كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

٣٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾.

٣٦- تقريعهم وتوبيخهم، وزيادة تيئيسهم من الخروج من النار؛ لكفرهم في الدنيا بوحدانية الله تعالى، وإيمانهم بالشرك به؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

﴿كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، أي: فما حكم به عز وجل من خلودكم في النار لا يبدل ولا يعدل.

٣٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبَّباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ الآية.

٣٨- أن الحكم كله لله تعالى كونًا وشرعًا وجزاءً؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العلي»، وصفة العلو المطلق له تعالى: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾.

٤٠- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه سبحانه ذو الكبرياء والعظمة.

٤١- امتنانه عز وجل على العباد بإظهار آياته الكونية لهم، الدالة على كمال قدرته وعظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره، وإنزاله لهم من السماء الرزق.

فالأولى منة دينية، والثانية منة دنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾.

٤٢- أن الرزق كله من الله تعالى، ينزله الله تعالى من السماء بإنزال المطر، الذي به حياة البلاد والعباد، وبما يقدره من الأرزاق بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

٤٣- أن من حكمة الله تعالى كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم جميع أجزاء الأرض: جبالها ومرتفعاتها وشعابها وأوديتها ومنخفضاتها وسهولها.

٤٤- أن النعمة الدينية أهم وأعظم من النعمة الدنيوية؛ لهذا قدم إظهار الآيات على إنزال الرزق من السماء.

٤٥- أنه لا يعتبر بالآيات ويتعظ بها، ويعرف قدر النعم إلا أهل الإنابة والتوبة إلى الله، وإلى طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

٤٦- وجوب دعاء الله وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، ومراغمة الكافرين في ذلك، وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٤٧- إغراق الكافرين بالشرك بالله، وكراهتهم توحيده وإخلاص الدين له.

٤٨- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته وعظمته، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾.

٤٩- امتنانه عز وجل بإلقاء الوحي على من يختاره من الرسل؛ لتحذير الناس وتخويفهم يوم القيامة، وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

٥٠- أن الوحي روح به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأبدان؛ لهذا سمَّى الوحي: «روحًا»؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

٥١- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٥٢- إثبات عبودية الرسل والأنبياء لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

٥٣- الله أعلم حيث يجعل رسالته، فيلقي الروح على من يشاء من عباده، ومشيئته مقرونة بحكمته وعلمه.

٥٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

٥٥- إثبات لقاء الله تعالى، والتقاء الخلائق بعضهم ببعض؛ للفصل بينهم.

٥٦- بروز الخلائق كلهم يوم القيامة في صعيد واحد، لا يخفى على الله منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾.

٥٧- ظهور تفرده عز وجل بالملك يوم القيامة تمام الظهور، ملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ﴾.

٥٨- إثبات اسم الله: «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوحدانية في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ﴾.

٥٩- إثبات اسم الله «القهار»، وأنه عز وجل ذو القهر والغلبة، الذي ذلت لقهره وغلبته جميع المخلوقات والكائنات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾.

٦٠- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد» و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين الوصفين في حقه عز وجل، فمن لازم وحدانيته كونه القهار، ومن لازم كونه القهار كونه «الواحد».

٦١- إثبات مجازاة كل نفس يوم القيامة بعملها وكسبها، خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٦٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، دون أن يقول: بجزاء ما كسبت، مع أن المراد مجازاتها بجزاء ما كسبت.

٦٣- أن حديث النفس لا يجازى عليه؛ لأنه ليس بكسب؛ لأن الكسب يكون بالقول والعمل، وقد قال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1].

٦٤- انتفاء الظلم يوم القيامة انتفاءً تامًّا، فلا أحد يُظلم شيئًا مهما قل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾.

٦٥- إثبات كمال عدل الله تعالى في مجازاته الخلائق.

٦٦- سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ لأن حسابه آتٍ قريب، ولعلمه التام بالخلائق، وأعمالهم وجزائهم، ولأن الإنسان قد يجد شيئًا من جزاء عمله عاجلًا في الدنيا، ولغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾، أي: وأنذر يا محمد الناس، أي: حذرهم وخوفهم.

﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾، أي: يوم القيامة وأهواله وشدائده وعذابه.

وسميت القيامة بـ«الآزفة»؛ لاقترابها ودنوها؛ كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٧]، أي: قربت القيامة وآن قيامها ووقوعها، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الملك: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

فالقيامة قريبة مهما طال الوقت؛ لأنها آتية، وكل آتٍ قريب؛ كما أن كل ماضٍ بعيد؛ لأنه لا يمكن أن يرجع.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾، أي: حين القلوب من شدة الخوف والروع والكرب.

﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، أي: قد ارتفعت عند الحناجر والحلوق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

و«الحناجر»: جمع «حنجرة»، وهي ما بين الترقوتين.

﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ حال، أي: ممتلئين غمًّا وهمًّا.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿مِنۡ حَمِيمٍ﴾، أي: من قريب أو صديق وصاحب ينتصر لهم.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾، أي: ولا شفيع يشفع لهم، فيخلصهم من عذاب الله؛ كما حكى تعالى عن الظالمين قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١].

والشفيع: من يتوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محل جر صفة لـ«شفيع»، والمعنى: ولا شفيع مطاع.

وهذه الصفة يحتمل أن تكون بيانًا للواقع، والمراد: نفي الشفيع، أي: ليس لهم شفيع مطلقًا.

ويحتمل أن يكون المعنى: لو قدر أن لهم شفعاء كما يزعمون، فإن هؤلاء الشفعاء لا يطاعون؛ لأنه لا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

﴿يَعۡلَمُ﴾، أي: يعلم عز وجل ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾؛ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: يعلم الأعين الخائنة، وخيانة الأعين: مسارقتها النظر إلى الشيء المحرم خفية عن الآخرين.

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾، أي: ويعلم ما تخفيه وتكنه الصدور والقلوب من الأسرار والمضمرات في المعتقدات وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾، أي: يحكم بالحق في جميع أحكامه: القدرية والشرعية والجزائية، فما قدره فهو حق، وما شرعه فهو حق، وما جازى به العباد على أعمالهم فهو حق، وقوله حق، وفعله حق، وهو الحق سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: قرأ نافع وهشام عن ابن عامر بالخطاب: «تدعون»، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَدۡعُونَ﴾.

أي: وجميع الذين يدعوهم ويعبدهم المشركون من دون الله، أي: غير الله، من الأصنام وغيرها.

﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ «شيء»: نكرة في سياق النفي، أي: لا يقضون بأيِّ شيء مهما كان؛ لا بحق ولا بباطل؛ لعجزهم التام، وعدم استطاعتهم فعل أيّ شيء، أي: فكيف يدعونهم ويعبدونهم من دون الله؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الواسع الذي يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ الذي أحاط بصرًا وعلمًا بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، أي: أولم يسر هؤلاء المشركون المكذبون برسالتك يا محمد في الأرض بأبدانهم على أقدامهم؟

﴿فَيَنظُرُوا۟﴾، أي: فينظروا بأبصارهم، ويعتبروا ويتفكروا بقلوبهم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبياء الله، وما حل بهم من العذاب والعقوبات والهلاك والخزي والفضيحة بسبب تكذيبهم لرسل الله؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

﴿كَانُوا۟ هُمْ﴾، أي: كان أولئك المكذبون من الأمم السابقة.

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾: قرأ ابن عامر بكاف الخطاب: «منكم»، وقرأ الباقون بهاء الغيبة: ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: أشد من المكذبين له ﷺ، من كفار قريش وغيرهم.

﴿قُوَّةً﴾ في كبر الأجسام وقوتها، وفي العدد والعدة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦- ١٤].

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من العمران والغراس، واتخاذ المصانع، وبناء المعالم، ونحت البيوت من الجبال، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام: ٦].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الباء: للسببية، أي: فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم؛ لتكذيبهم رسل الله وكفرهم وتوليهم، ولم تنفعهم شدة قوتهم، وآثارهم في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: وما كان لهم من الله ومن عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما كان لهم من الله من أيِّ واقٍ يقيهم عذابه، فيدفعه ويمنعه عنهم قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله؛ كما قال نوح عليه السلام لابنه لما قال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ﴾، قال له عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى أخذه عز وجل إياهم بذنوبهم، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، والحجج القاطعات، على وجوب الإيمان بالله وعبادته وحده.

قال ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان ١٥٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَكَفَرُواْ﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فكفروا بالله تعالى، وأشركوا معه غيره، وكذبوا رسله، وجحدوا ما جاؤوهم به من الآيات البينات، من غير تأمل ولا نظر.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فأهلكهم الله.

﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾، أي: ذو قوة عظيمة كاملة تامة.

﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي: ذو العقاب الشديد المؤلم الموجع، الذي لا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

و﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: عقابه شديد.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم ما كلف الله به الرسول ﷺ وغيره من الرسل: إنذار الناس وتخويفهم يوم القيامة وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾.

٢- قرب القيامة ودنوها؛ لهذا سميت الآزفة؛ لقرب قيامها ووقوعها.

٣- شدة أهوال القيامة، وبلوغ القلوب فيها الحناجر من شدة الروع والكرب والخوف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾.

٤- امتلاء القلوب غمًّا وهمًّا في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾.

٥- تقطع الأسباب بالظالمين بالكفر والشرك في ذلك اليوم، فلا قريب أو صديق ينتصر لهم؛ فيخلصهم من العذاب، ولا شفيع يشفع لهم فيطاع؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾.

٦- ثبوت الشفاعة للمؤمنين بإذن الله تعالى ورضاه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾، فنفاها عن الظالمين الكافرين، ومفهوم هذا: ثبوتها للمؤمنين.

٧- سعة علم الله عز وجل بكل شيء مهما دق وخفي، فيعلم خائنة الأعين ومسارقتها النظر إلى ما لا ينبغي، ويعلم ما تكنه الصدور والقلوب؛ لقوله تعالى:

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾.

٨- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في لحظات الأعين، ومضمرات الصدور، وفي كل شيء.

٩- امتداح الله تعالى لنفسه لقضائه وحكمه بالحق في جميع أحكامه الكونية والشرعية والجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

١٠- ذم الأصنام والأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون من دون الله، وأنهم لا يقضون بشيء؛ لعجزهم التام وضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾.

١١- تسفيه عقول المشركين؛ حيث يعبدون من دون الله معبودات لا تقضي لهم بشيء، ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

١٢- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٣- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه سبحانه قد أحاط بصرًا وعلمًا بكل شيء.

١٤- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع لجميع الأصوات، والبصر المحيط بكل شيء في حقه عز وجل، كمال إلى كمال.

١٥- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم، كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بسوء عاقبة أولئك الأقوام؛ لقوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

١٦- أن أولئك الأقوام مع ما كانوا عليه من شدة قوتهم، وعظم آثارهم في الأرض، لم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾.

وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ، الذين هم أضعف بكثير من أولئك المهلكين.

١٧- أن عذاب الله تعالى إذا نزل فلا واقي منه، ولا دافع له، ولا رافع له من دونه؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد: ١١].

١٨- ينبغي النظر والتأمل والاعتبار فيما حل بالمكذبين من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره.

١٩- أن سبب أخذ الأمم السابقة وإهلاكهم: ذنوبهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله، وجحودهم لما جاؤوهم به من الآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ﴾.

٢٠- إقامة الحجة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل وإنزال الآيات البينات عليهم.

٢١- إثبات الأسباب وأثرها في المسبَّبات بإذن الله تعالى، وإثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٢٢- إثبات كمال عدل الله تعالى، وأنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنب.

٢٣- إثبات كمال قوة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

٢٤- شدة عقاب الله تعالى لمن عصاه، فلا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

٢٥- ينبغي الحذر من مخالفة أمر الله تعالى؛ لأنه قوي شديد العقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ البينات، ودلائلنا الواضحات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وحجة بينة، وبرهان ظاهر دال على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق، من ذلك: العصا، والحية، وغير ذلك من الآيات والحجج

والدلائل التي أيد الله بها موسى عليه السلام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط في مصر.

﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون في مملكته.

﴿وَقَٰرُونَ﴾ وهو رجل من قوم موسى، آتاه الله الأموال والكنوز، من الذهب والفضة، ففرح بذلك فرح اختيال وبطر، وأفسد في الأرض، وكفر نعمة الله، ونسبها إلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٦- ٧٨] فخسف الله به وبداره الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿فَقَالُوا۟﴾، أي: فقال فرعون ووزيره هامان وقارون صاحب الكنوز لموسى: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، أي: هو ساحر كذاب، أي: هو ساحر في آياته، كذاب في دعواه الرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ الباء: للمصاحبة والملابسة، أي: فلما جاءهم موسى بالحق والصدق الذي أرسلناه به من عندنا، وهو توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، الذي عجزوا أن يدحضوه بحججهم الباطلة، لجؤوا إلى الوعيد والتهديد بالقوة.

﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، أي: لم يكتفوا بمجرد رميه بالسحر وتكذيبه، وصد الناس عنه، بل أمروا بقتل أبناء الذين آمنوا معه من بني إسرائيل؛ تنكيلًا بهم، أي: اقتلوا أبناءهم الذكور.

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾، أي: واستبقوا نساءهم، أي: الإناث.

وهذا أمر ثانٍ من فرعون بعد بعثة موسى، غير الأمر الأول الذي كان قبل بعثة موسى، وكان القصد من الأمر الأول: الاحتراز من وجوده، مع إذلال بني إسرائيل،

وتقليل عددهم.

وهذا الأمر الثاني؛ لإهانة بني إسرائيل وإذلالهم، وتقليلهم، ولكي يتشاءم بنو إسرائيل بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: وما مكر الكافرين وخداعهم، وتدبيرهم الخفي والجلي في تكذيب رسل الله واتهامهم بالسحر، ورد الحق وإبطاله.

وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: وما كيدهم؛ لتسجيل وصفهم بالكفر، وليشملهم هذا الحكم هم وغيرهم من الكفار.

﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في ضياع واضمحلال، وذهاب وهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ «أقتل»: فعل مضارع مجزوم بالسكون، جواب الأمر «ذروني»، أي: اتركوني أقتل موسى.

وهذا من فرعون من باب التمويه؛ كأن الناس يمنعونه من قتل موسى، مع أنه لا يستطيع أحد منهم منعه من ذلك، كيف وهو يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكنه يموه ويكذب على الناس بقوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾؛ لأنه لا يستطيع قتله.

﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، و«يدع»: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة الواو. والأصل: «يدعو».

أي: وليدع ربه إن كان صادقًا؛ ليمنعه مني. وفي هذا تحدٍّ سافر لموسى، ولربه عز وجل الذي أرسله، وجرأة وسوء أدب، يدل على شدة تمرد فرعون وعتوه وعناده.

وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓۖ﴾، ولم يقل: ربنا؛ لأنه ينكر ربوبية الله ظاهرًا، ويزعم أنه هو الرب الأعلى.

وإنما أضاف الربوبية لموسى من باب التبكيت والتحقير؛ كأنه يقول لموسى: هذا ربك الذي زعمت، إن كنت صادقًا فليمنعك مني.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب

مفعول به لـ«أخاف»، أي: أخاف أن يبدل موسى دينكم فتتركوا عبادتي وتعبدوا رب موسى، أي: يخاف من موسى أن يرد الناس إلى الدين الحق، وهو عبادة الله وحده، وترك الدين الباطل وهو عبادة فرعون.

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بزيادة همزة مفتوحة قبل الواو وإسكان الواو: ﴿أَوْ أَن﴾.

والمعنى على هذه القراءة، أي: إني أخاف منه أحد الأمرين: إما تبديل دينكم، وإما إظهار الفساد في الأرض، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، فتكون بمعنى القراءة التي بعدها.

وقرأ الباقون بغير ألف: «وَأَنْ يُظْهِرَ»، والمعنى: إني أخاف أن يحصل منه الأمران: تبديل دينكم، وإظهار الفساد في الأرض.

ومؤدى القراءتين واحد؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين، فيكون فرعون خاف من موسى الأمرين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وحفص: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ونصب ﴿ٱلْفَسَادَ﴾، والتقدير: أو أن يظهر- يعني: موسى- في الأرض الفساد.

وقرأ الباقون: «يَظْهَرَ» بفتح الياء والهاء، و«الفَسَادُ» بالرفع فاعل.

والفساد على زعم فرعون: هو صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله تعالى هذا من وجه، ومن وجه آخر: تفريق الناس، فيكون بعضهم تابعًا له، وبعضهم تابعًا لموسى؛ مما يسبب الاختلاف وربما الاقتتال.

وهذا من أعجب وأشد ما يكون في قلب الحقائق، ولا ينطلي إلا على من أعمى الله بصيرته ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أي: وقال موسى لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم.

وخطاب موسى يحتمل أنه لقومه، أو لفرعون وقومه.

وفي قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ بيان منه عليه السلام: أن ربه هو رب الجميع، لا كما قال فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ إنكارًا لربوبية الله، وزعمًا منه أنه هو ربهم؛ كما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول الحق وعلى الخلق، طاغٍ عاتٍ، قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»[(١)]، أي: رد الحق، واحتقار الناس.

﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: لا يصدق بيوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

وأول من ينطبق عليه هذا الوصف فرعون وقومه.

وفي هذا تطمين من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وتسكين لهم؛ لإشفاقهم عليه من بطش فرعون، وقد أعاذه وحفظه.

عن أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «**اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم**»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾، أي: مؤمن بالله، مصدق بما جاء به موسى من الحق، ولم يعين هذا الرجل باسمه؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: من قرابة فرعون، أو من قومه القبط، قال ابن عباس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول إذا خاف قومًا ١٥٣٧، وأحمد ٤/ ٤١٤، ٤١٥.

رضي الله عنهما: «لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام، الذي قال: «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك»[(١)].

﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾، أي: يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خوفًا منهم، ولكنه لما وصل الأمر بفرعون إلى العزم على قتل موسى أظهر إيمانه، وانبرى للدفاع عن موسى عليه السلام؛ غضبًا لله تعالى، ونصرة للحق، وقد قال النبي ﷺ: «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[(٢)].

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم، وهذا من أول ألطاف الله بموسى، وحفظه له وإعاذته أن سخر له هذا الرجل المؤمن.

و«أن» والفعل «يقولون» في تأويل مصدر في محل جر بلام مقدرة، أي: أتقتلون رجلًا؛ لقوله: ربي الله، أي: بسبب قوله: ربي الله، أي: كيف تقتلون رجلًا لم يرتكب جرمًا، إلا أنه يقول: ربي الله؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، ولم يقل: أتقتلون موسى؛ إبعادًا للتهمة عن نفسه؛ لئلا يُظن أنه يعرف موسى، ويدافع عنه عن معرفة.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الواو: حالية، والباء للمصاحبة، أي: والحال أنه قد جاءكم بالبينات، أي: بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات، من ربكم على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق.

عن عروة بن الزبير، قال: سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم، الأمر والنهي ٤٣٤٤، والترمذي في الفتن، أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٢١٧٤، وابن ماجه في الفتن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠١١- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾»[١].

وقد فاق أبو بكر رضي الله عنه مؤمنَ آل فرعون من جهتين:

الأولى: أن دفاعه رضي الله عنه كان عن أفضل الخلق وسيد ولد آدم ﷺ، ودفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام، وهو في المرتبة الثالثة بعد نبينا وإبراهيم عليهم السلام.

الثانية: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، بينما أظهر أبو بكر إيمانه رضي الله عنهما.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾.

هذا تنزل من هذا الرجل المؤمن معهم في المخاطبة لاستمالتهم واستعطافهم، لعلهم ينظرون في آيات موسى، ولا يعجلوا في قتله، ولا في اتباعه، وليس شكًّا منه في صدق موسى عليه السلام.

أي: فإن يك كاذبًا في دعواه الرسالة وصدقتموه فعليه ضرر كذبه، ولا يضركم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾، أي: وإن يكن صادقًا في رسالته، وكذبتموه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾، أي: يصبكم بعض الذي يتوعدكم به من العذاب، عاجلًا وآجلًا.

وقدّم احتمال كذبه على احتمال صدقه تنزلًا ثانيًا معهم، وزيادة في التباعد عن ظنهم أنه يريد الانتصار لموسى، فأراد أن يظهر بمظهر المهتم بأمرهم ابتداءً، وتنزل معهم ثالثًا، فلم يقل: يصبكم الذي يعدكم، بل قال: بعض الذي يعدكم، وهذا من حسن عقله، وتلطفه في دفعه عن موسى عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ الجملة: تعليلية، أي: إن الله لا يوفق الذي هو ﴿مُسْرِفٌ ﴾، أي: متجاوز الحد في أقواله وأفعاله.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٢٦٧٨.

﴿كَذَّابٌ﴾ ذو كذب، أو كثير الكذب.

وهذا ذم لفرعون؛ لأن هذا الوصف ينطبق عليه؛ فإنه مسرف متجاوز للحد، كذاب مدَّع للربوبية والألوهية؛ ولهذا فهو أبعد الناس عن هداية الله وتوفيقه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾: الشهادة لموسى بالصدق، وأنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله وأرشده ووفقه إلى ما جاء به من الحق الظاهر بالآيات البينات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، فانتقل هذا الرجل المؤمن رحمه الله من التنزلات السابقة في وصف موسى إلى قرب التصريح بأنه على الحق والهدى، ثم انتقل بعد ذلك إلى ما هو أبين وأوضح وهو تخويفهم زوال ملكهم، وعذاب الدنيا والآخرة إن ردوا دعوة موسى ولم يتبعوه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾.

بعدما أنكر عليهم قتل موسى بلا مبرر ولا سبب يوجب ذلك، ولَّمح لهم بأن موسى على الحق والهدى، أتبع ذلك بتذكيرهم ما هم فيه من نعمة الملك والظهور في الأرض، ومحذرًا من زوالها وحلول عذاب الله فيهم.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: لكم الملك الآن.

﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ال»: للعهد الذهني، أي: غالبين عالين في أرض مصر على أهلها، لكم التصرف التام والتدبير فيها.

وفي هذا من حسن الخطاب والتودد إلى قومه، والإشارة إلى التخوف من زوال ملكهم في المستقبل إن لم يشكروا- ما لا يخفى.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«من»: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: فمن الذي ينصرنا من عذاب الله، أي: فمن الذي يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه في الدنيا والآخرة؟ ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾، أي: إن نزل بنا بسبب كفرنا وقتلنا لأوليائه، أي: لا أحد يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه إن جاءنا، حتى ولو كنا اليوم ظاهرين في الأرض، وكنا ملوكًا، فكل ذلك لا ينفع ولا يدفع.

وفي قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ تنزل معهم؛ حيث جعل الأمر

مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾؛ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لقول الرجل المؤمن، ومغررًا بقومه.

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ «ما» الأولى: نافية، والثانية: موصولة، أي: ما أريكم وما أختار لكم إلا الرأي الذي أراه وأختاره لنفسي، وما أشير علكم إلا بما أراه هو الحق.

وصدق في أنه لا يشير عليهم إلا بما يراه، وهو الاستخفاف بهم، والغش لهم، والكذب عليهم؛ ليؤمنوا بربوبيته وألوهيته، لتبقى رياسته وملكه.

وكذب في زعمه أنه ما يريهم إلا ما يراه حقًّا، وما يهديهم إلا سبيل الرشاد، بل إنه يعلم أن ما هو عليه هو الباطل، وأن ما جاء به موسى هو الحق، لكنه غش رعيته، وما نصحهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، أي: وما أدلكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إلى طريق الحق والرشد والصواب والسداد.

وكذب أيضًا في هذا؛ فهو إنما يدعوهم إلى طريق الغي والضلال والفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ قال قبل هذا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾، وقال هنا وفي الذي

بعده: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ تحقيقًا لإيمانه، وأنه مؤمن حقًّا.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كرر دعوة قومه رجاء أن يهديهم الله، غير آيس من هدايتهم.

﴿يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ «يوم» اسم جنس، أي: مثل أيام الأحزاب، أي: أيام وقائع الله تعالى فيهم، وعقوباته إياهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [يونس: ١٠٢].

والأحزاب: جمع حزب؛ يعني: المكذبين من الأمم السابقة، الذين تحزبوا واجتمعوا على تكذيب أنبيائهم وعداوتهم، ورد ما جاؤوا به من الحق.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ «مثل»: بدل من «مثل» التي قبلها، أي: مثل عادة قوم نوح، وعادة عاد وثمود، أي: مثل عادة هؤلاء الأقوام بالكفر والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٢] وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٤].

أي: مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بالكفر والتكذيب، وعادة الله بهم بأخذهم بالعقوبات العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، أي: إني أخاف أن يحل بكم مثل ما حل بأولئك الأقوام من العقوبات.

وذكر قوم نوح؛ لأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ لأنهما بعد قوم نوح.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ «ظلمًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أيِّ ظلم مهما قل، أي: وما الله يريد أيَّ ظلم للعباد، فلا يعذبهم إلا بذنب أذنبوه، وجرم أسلفوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء على الأصل: «التَّنَادِي»، وقرأ الباقون بدون ياء: ﴿ٱلتَّنَادِ﴾.

و﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾: يوم القيامة، فبعد أن خوفهم العقوبات الدنيوية خوفهم العقوبات الأخروية، أي: إني أخاف عليكم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والعذاب.

وسمي يوم القيامة: يوم التناد؛ لمناداة الناس فيه بعضهم بعضًا، ففيه ينادي أهل الجنة أهل النار، وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، وينادي أهل النار ربهم لإخراجهم منها، وينادى كل قوم بأعمالهم، وينادي الشركاء شركاءهم، وغير ذلك؛ كما دل على ذلك القرآن والسنة.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾، و«التولي»: الرجوع.

﴿مُدۡبِرِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها؛ لأن التولي هو الإدبار، أي: يوم تولون وترجعون حال كونكم مدبرين، أي: تولون مدبرين إلى النار.

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما لكم من الله ومن بأسه وعذابه ﴿مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لكم من الله أيّ عاصم، أي: أيّ مانع يمنعكم من عذاب الله، ويرده عنكم، لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه أحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة: ١٠- ١٢].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ هذا يحتمل أنه من تتمة كلام الرجل المؤمن، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله، أي: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ كونًا وقدرًا بحكمته وعدله.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من» كالتي قبلها، أي: فما له أيّ هاد يهديه من بعد الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقول هذا الرجل في ختام نصحه لقومه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، أي: إني قد بذلت النصح لكم، والهداية بيد الله، فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فما له من هادٍ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ هذا من كلام الرجل المؤمن لقومه، أي: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، أي: جاء أسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾، أي: يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بعثة موسى بزمن بعيد.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات، على صدقه، وصحة ما جاء به من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ﴾، أي: فما زلتم في ريب ﴿مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾، أي: من الذي جاءكم به يوسف من الرسالة منذ بعثته فيكم إلى زمن موسى وآل فرعون، فلم يصدقه في رسالته سلفهم ولا خلفهم، ولم يؤمنوا به.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾، أي: مات ولم يعقب ذرية، ﴿قُلْتُمْ﴾، أي: من غير دليل ولا برهان، بل بناءً على أمانيكم الكاذبة: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، أي: قالت لكم نفوسكم: استرحتم وكفيتم، هلك من أرسل إليكم فكذبتموه وتوعدكم، فاطمئنوا؛ لن يبعث الله من بعده رسولًا، أي: فلن تزالوا كافرين بيوسف وغيره من الرسل بعده.

قال ابن كثير(١): «يعني: أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى وهو يوسف عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولًا يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾».

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أي: مثل ذلك يضل الله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ متجاوز الحد إلى الكفر والشرك، ﴿مُّرْتَابٌ﴾، أي: شاكّ، راكن للشك والريبة، مكذب بالحق.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: يخاصمون ويحاجون في آيات الله، ودلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته؛ لردها وإبطالها.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، أي: بغير حجة، ولا برهان جاءهم، ولا دليل.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ١٣٣.

وهذا القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له؛ لأن المجادلين في آيات الله لردها وإبطالها لا يمكن أن يكون لهم سلطان مطلقًا.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ «مقتًا»: تمييز، والمقت: البغض الشديد، أي: عظم بغضا عند الله الجدال في آيات الله بغير سلطان.

﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: وكبر مقتًا عند الذين آمنوا هذا الفعل، أي: الجدال في آيات الله بالباطل؛ لأنهم يمقتون ويبغضون كل ما مقته الله وأبغضه.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ قرأ أبو عمرو: «قَلْبٍ» بتنوين الباء، وقرأ الباقون بغير تنوين: ﴿قَلْبِ﴾.

أي: كما طبع الله، أي: ختم على قلوب هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، الذين يمقتهم الله أشد المقت، ويمقتهم المؤمنون، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، أي: يختم الله، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ﴾ عن اتباع الحق، ومتكبر على الخلق محتقر لهم؛ كما قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»[1]، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس وازدراؤهم.

﴿جَبَّارٖ﴾ قاسي القلب، كثير الاعتداء على الخلق، وظلمهم بغير حق.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وتأييده بالآيات البينات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

٢- تكذيب فرعون وهامان وقارون وآل فرعون لموسى عليه السلام، وعنادهم ومكابرتهم، واتهامهم له بالسحر والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، ووصفه بالسحر، وغير ذلك.

٣- اعترافهم في داخل أنفسهم بعجزهم عن مدافعة ما جاءهم به موسى من

---

(١) سبق تخريجه.

الآيات والحجج والبراهين؛ ولهذا اتهموه بالسحر والكذب.

٤- التلازم بين السحر والكذب؛ لأن السحر كله مبني على الكذب.

٥- أن ما جاء به موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه هو الحق من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾.

٦- تنكيلهم بمن آمن من بني إسرائيل معه بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾.

٧- شدة حقدهم وعداوتهم للمؤمنين خاصة؛ لقولهم: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ الآية.

٨- أن الله قد يبتلي المؤمنين بتسليط الكفار عليهم؛ لحكمة يعلمها من تمحيصهم، وغير ذلك.

٩- ضلال وضياع كيد الكافرين ومكرهم، كفرعون وقومه وغيرهم في تكذيب رسل الله، واتهامهم بالسحر ورد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾، وفي هذا بشارة للمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، وتقوية لعزائمهم.

١٠- تهديد فرعون بقتل موسى عليه السلام، وعزمه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾.

١١- تمويهه وخداعه للناس بقوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كأنهم يمنعونه، مع أنهم لا يستطيعون منعه؛ لعلمه بنفسه أنه لا يستطيع قتله.

١٢- شدة عتو فرعون وتمرده ومكابرته، وتحديه لموسى وربه؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾.

١٣- معرفة فرعون في قرارة نفسه أن الدعاء سلاح المؤمن، وإن كابر وتحدى.

١٤- تخوف فرعون من موسى أن يبدل دين الناس، فيصرفهم عن عبادته إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾.

١٥- قلب فرعون للحقائق، وتغريره بقومه بزعمه الكاذب التخوّف من موسى أن يبدل دينهم، أو يظهر الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

﴿يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

١٦- أن الفساد في نظر فرعون وغيره من دعاة الكفر: هو ما خالف دينهم الباطل، ولو كان بالإيمان بالله.

١٧- لا عجب إذا كان فرعون- وهو أشد الناس كفرًا، وزعيم دعاة الكفر ورأس المفسدين في الأرض- يخاف من موسى رسول الله وكليمه أن يظهر الفساد في الأرض، فلا عجب أن يرفع أناس عقائرهم باسم الدين والإصلاح، وهم أفجر خلق الله وأشدهم فسادًا؛ كما يفعل المنافقون، وأهل البدع والأهواء من الرافضة والخوارج وغيرهم من غلاة أهل البدع.

١٨- قوة توكل موسى على ربه، واعتصامه واستجارته به من فرعون، ومن كل متكبر مكذب بالقيامة والمعاد، وطمأنته لبني إسرائيل بأن الله مجيره وحافظه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام، وللمؤمنين؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقول فرعون قبل هذا: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول موسى: ﴿وَرَبِّكُم﴾ على اعتبار الخطاب لفرعون وقومه، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢١- ذم فرعون؛ لاتصافه بهذين الوصفين الذميمين: التكبر، وعدم الإيمان بيوم الحساب.

٢٢- خطر الكبر، وأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتكذيب به، وإنكار البعث والحساب؛ لقول موسى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

٢٣- إثبات القيامة، والحساب، والجزاء على الأعمال.

٢٤- تسخير الله عز وجل ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون، وإنكاره على فرعون أشد الإنكار ما عزم عليه من قتل موسى، وهذا من دلائل استجابة الله تعالى لموسى وإعاذته إياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ

رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- فطنة هذا الرجل المؤمن في العدول عن التعيين في قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، فلم يقل: أتقتلون موسى؟ لئلا يتهم بانحيازه إليه، مع أنه آمن به ويعرفه.

٢٦- أن من كتب الله له الإيمان والهداية آمن واهتدى ولو كان من بين قوم كفار، فهذا الرجل وفقه الله للإيمان مع أنه في وسط قوم كلهم كفار.

٢٧- جواز كتمان المؤمن إيمانه إذا كان يخاف على نفسه.

٢٨- حرمة النفوس وعصمتها، فلا يجوز قتلها إلا بما يبيح ذلك شرعًا.

٢٩- شهادة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون لموسى عليه السلام، بتبليغه رسالة ربه لفرعون وقومه، وإقامة الحجة عليهم بمجيئه إليهم بالآيات والبينات من ربهم؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

٣٠- قوة إيمان هذا الرجل وشجاعته في الحق؛ لقوله لفرعون وقومه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا يتضمن إنكاره ربوبية فرعون، وإثبات أن لهم ربًّا سوى فرعون؛ كما يدل على قوة إيمانه قوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.وفي هذا تحذير وتهديد لفرعون وقومه.

٣١- حكمة هذا الرجل المؤمن، وعقله، وبعد نظره؛ لتنزله في الخطاب مع قومه مرة تلو أخرى؛ عسى أن يتأملوا ويتفكروا فيما يدعوهم إليه موسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

فتنزل معهم في ذكر هذه المعادلة، مع أنه يعلم أن موسى صادق، وتنزل معهم أيضًا في تقديم احتمال كونه كاذبًا؛ حتى لا يتهم بالانتصار لموسى، وتنزل معهم أيضًا في قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، ولم يقل: يصبكم الذي يعدكم.

وفي هذا كله دلالة على جواز التورية.

٣٢- أن إثم الكاذب وضرر كذبه إنما يعود على نفسه، وأن خبر الصادق إذا كُذِّب

يعود ضرر تكذيبه على من كذبه.

٣٣- ذم هذا الرجل المؤمن لفرعون؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ ومفهوم هذا: الشهادة بصدق موسى عليه السلام، أي: أنه لو كان موسى بهذا الوصف لما هداه الله ووفقه لبيان الحق على أحسن وجه وأتمه من غير اختلاف ولا اضطراب.

٣٤- الحذر من الإسراف والكذب؛ لأن ذلك سبب للحيلولة دون هداية الله وتوفيقه.

٣٥- الإشارة للتلازم- ولو من بعض الوجوه- بين الإسراف والكذب.

٣٦- تذكير هذا الرجل المؤمن لقومه ما هم فيه من نعمة الملك، والظهور في أرض مصر بلا منازع، وتحذيرهم من حلول عذاب الله فيهم، وزوال ملكهم، إن استمروا على مخالفة أمر الله، وتكذيب موسى؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾.

٣٧- أن الظهور والغلبة قد يكونان سببًا للأشر والبطر، ومخالفة أمر الله، وكفر نعمه، إلا من وفقه الله وهداه، وأن الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم.

٣٨- أنه لا دافع لعذاب الله إذا جاء، ولا رافع له إذا نزل.

٣٩- تنزل هذا الرجل في الخطاب مع قومه في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾؛ حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم؛ لِيُفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضاه لنفسه.

٤٠- تمادي فرعون في غيه وطغيانه، والتمويه على قومه وخداعهم، والكذب عليهم وغشهم؛ لقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وكَذَبَ والله، فما هداهم إلا سبيل الضلال والنار؛ كما قال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: ٩٨].

وفي الحديث: «**ما من والٍ يلي رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم**

الله عليه الجنة»[1].

٤١- شدة إشفاق هذا الرجل من عقاب الله تعالى، وخوفه على قومه، ومعرفته ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات، وتحذيرهم من مثل تلك العقوبات؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الآية.

٤٢- أن سنن الله وعادته في إهلاك المكذبين ثابتة لا تتغير؛ كما أن دأب الأمم وعادتهم تكذيبُ الرسل، وتقليد بعهم بعضًا في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾.

٤٣- ينبغي أخذ العظة والعبرة من أحوال السابقين وما حل بهم من العقوبات.

٤٤- أن الله لا يظلم أحدًا من خلقه أيَّ ظلم مهما قل، ولا يريد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾.

٤٥- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٤٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فإذا كان لا يريد ظلمًا للعباد، فإنه يريد العدل فيهم.

٤٧- إيمان هذا الرجل بيوم القيامة، وإشفاقه من أهواله وعذابه، وتخوفه على قومه من ذلك؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢)﴾.

٤٨- مناداة الخلائق بعضهم بعضًا يوم القيامة، والمناداة عليهم بأعمالهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

٤٩- تولي المكذبين يوم القيامة مدبرين إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾.

٥٠- لا عاصم من أمر الله إلا من رحم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾.

٥١- أن من يضلله الله كونًا وقدرًا فلا هادي له من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٥١، ومسلم في الإيمان ١٤٢؛ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

٥٢- إثبات رسالة يوسف عليه السلام، وأنه أرسل إلى أهل مصر القبط قبل موسى بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٥٣- مخاطبة القرآن الكريم للخلف من أيِّ أمة من الأمم بما حصل للسلف منهم، فآل فرعون الموجودون في عهد موسى ليسوا هم الموجودين في عهد يوسف، بل بينهم مدة طويلة.

٥٤- شك آل فرعون فيما جاءهم به يوسف، واستمرارهم على ذلك، وعلى الكفر في حياته وبعد مماته إلى عهد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾.

٥٥- كراهتهم ليوسف، ولما جاءهم به؛ ولهذا لما مات، كأنه زال عن كواهلهم حمل ثقيل، وقالوا بناء على ظنونهم الكاذبة، وأمانيهم الباطلة: لن يبعث الله من بعده رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

٥٦- إضلال الله عز وجل كونًا وقدرًا لكل مسرف مرتاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

٥٧- التلازم بين الإسراف والشك والارتياب ولو من بعض الوجوه.

٥٨- ينبغي الحذر من الإسراف والارتياب؛ لأن ذلك سبب للضلال.

٥٩- مقت الله وبغضه للذين يجادلون في آيات بغير حجة ولا برهان؛ لإبطالها وردها، ومقت المؤمنين لذلك؛ لأنهم يمقتون ما مقته الله؛ لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

٦٠- أنه لا حجة ولا سلطان، ولا دليل ولا برهان لمن يجادل في آيات الله لإبطالها وردها.

٦١- إثبات صفة المقت لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يتفاضل، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية عند وجود سببه، فيمقت الله المجادلين في آياته بغير حجة ولا برهان، ويمقت الظلم وأهله، والكفر وأهله.

٦٢- محبة الله تعالى لمن يجادل في آياته بالحجة والبرهان؛ لإحقاق الحق، ومحبة المؤمنين لذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ﴾ الآية.

٦٣- طبع الله وختمه على كل قلب متكبر جبار؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

٦٤- الحذر من التكبر والجبروت؛ لختمه عز وجل على قلوب المتكبرين عن الحق وعلى الخلق، المتجبرين بالاعتداء على الناس وظلمهم بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1].

٦٥- الإشارة إلى التلازم بين الكبر والجبروت ولو من بعض الوجوه.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، تحريم الكبر وبيانه ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متماديًا في طغيانه وتمرده وعتوه وعناده لموسى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾، أي: قصرًا عاليًا عظيمًا مرتفعًا شامخًا مبنيًّا من الطين المشوي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ «لعل»: للتعليل، و«الأسباب»: جمع «سبب»، وهي الطرق المؤدية إلى المقصود، أي: لعلي أصل وأبلغ الأسباب.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من «الأسباب»، أي: طرق الوصول إلى السموات وأبوابها.

قال زهير[1]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

أي: لعلي أبلغ وأصل إلى طرق السموات وأبوابها، وأنَّى له ذلك؟ وإنما هذا من باب التمويه والكذب على قومه.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قرأ حفص بنصب العين: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾.

وقرأ الباقون بضمها: «فَأَطَّلِعُ».

والفاء: للسببية، والمعنى: فأصل إلى إله موسى، أي: فأنظر هل هو حق أو غير حق؟ ثم استدرك خوفًا من أن يقال: إنه في شك من أمره، فقال:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾، أي: لأظن أن موسى كاذبًا في أن له إلهًا غيري هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] كما يقول.

وإنما قال هذا فرعون تمويهًا على أصحابه، وخوفًا من أن يقع في نفوسهم شك في ربوبيته وألوهيته لهم حين أمر وزيره ببناء الصرح.

وهو في الحقيقة يعلم أن موسى صادق؛ كما يعلم أنه هو الكاذب، وأنه لا سبيل له إلى بلوغ أسباب السموات، ولا إلى الاطلاع إلى إله موسى؛ كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، أي: مثل هذا التزيين زين لفرعون كونًا وقدرًا سوء عمله، أي: عمله السيئ الذي بلغ غاية السوء، من الكذب والتمويه على قومه.

ويحتمل أن يكون المعنى: وكذلك زين لفرعون سوء عمله، أي: زين له ذلك الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، مع حب الرياسة والتسلط.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بضم الصاد بالبناء للمفعول:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١١١، «المعلقات العشر» ٧/ ٣.

﴿وَصُدَّ﴾، وقرأ الباقون بفتح الصاد والبناء للفاعل: «وَصَدَّ»، أي: أعرض بنفسه، وصد غيره بالتغرير بهم وإيهامهم.

و«ال» في «السبيل» للعهد الذهني، أي: صد عن السبيل المعهود، وسبيل الحق، وطريق الهدى، وعن الصراط المستقيم.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: مكره وخداعه، وتدبيره الخفي والجلي لموسى، ولما جاء به من الحق، والتمويه على الناس، بإظهار أنه على الحق، وأن موسى على الباطل.

﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في خسار وبوار، وهلاك وضياع ودمار؛ كما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

انتقل هذا الرجل المؤمن وتدرج- بتوفيق الله له ومنته عليه- من منكر على فرعون وقومه قتل موسى، إلى محذر لهم عقاب الله لهم في الدنيا، وزوال ملكهم إن خالفوا موسى وكذبوه، ثم إلى محذر لهم يوم القيامة وأهواله وعذابه، إلى أن صار داعية يدعو قومه إلى اتباعه؛ ليبين لهم طريق الحق والصواب.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾، أي: أدلكم وأرشدكم إلى طريق الحق والرشد والصواب، حقًّا وصدقًا، لا كما كذب عليكم فرعون بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ وهو إنما يهديكم إلى طريق الغي والضلال، ويقودكم إلى النار.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

لما حثهم على اتباعه؛ ليهديهم طريق الحق، زهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة؛ لأن سبب ضلال كثير من الخلق الافتتان بالدنيا، ونسيان الآخرة.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع، أي: يُتمتع بها ويتنعم قليلًا، ثم تذهب وتضمحل وتزول، فلا تغرنكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، [الحديد: ٢٠] فهي متاع غرور، ودار عبور؛ كما قال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١).

﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ لما بين لهم حقارة الدنيا، أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة.

والآخرة: هي ما بعد الدنيا، وضمير الفصل «هي»: للتوكيد والحصر.

﴿دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾، أي: دار المستقر، التي لا زوال لها، ولا ظعن منها إلى غيرها، إما نعيم أبدي، وإما عذاب سرمدي؛ ولهذا يؤتى بالموت على هيئة كبش، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح، ويقال: «**يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**»(٢).

ولما بين قيمة الدار الآخرة أتبع ذلك بالتحذير من العمل السيئ، والترغيب بالعمل الصالح؛ استعدادًا لتلك الدار التي هي الحيوان، وهي دار القرار، فقال:

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾، أي: من عمل عملًا سيئًا يسوءه في الحال والمآل، من شرك أو فسوق أو عصيان.

﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾، أي: فلا يعاقب إلا بسيئة واحدة مثلها، بقدر ما تستحقه سيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ: ٢٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٣٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٩؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: ومن عمل عملًا صالحًا بجوارحه، خالصًا لله عز وجل، موافقًا لشرعه، وهدي رسله.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ «من»: بيانية، أي: لا فرق بينهما في مضاعفة الأجر لكل منهما؛ كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو مصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، فمن لم يكن مؤمنًا لم ينفعه عمله الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1].

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الخاء: «يُدْخَلُونَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء: ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، دار السلام والأمن والنعيم التام.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» إشارة إلى علو مرتبتهم وشرفهم.

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: يعطون فيها من جزيل الثواب وعظيم الأجور بلا حد ولا عد، مما لم تبلغه أعمالهم، ولم يخطر على بالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ في وصف الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٤.

قلب بشر»[١].

وهكذا لخص هذا الرجل المؤمن الموفق سبيل الرشاد الذي دعا قومه إليه، بالأخذ بأربع وصايا، الأولى: الحذر من الاغترار بالدنيا، والثانية: الاستعداد للآخرة، والثالثة: البعد عن السيئات، والرابعة: الإيمان وعمل الصالحات مع البشارة بدخول الجنة والرزق بغير حساب. فيا لها من وصايا!

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، أي: إلى النجاة من النار، وذلك بدعوتي إياكم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، وتصديق رسوله واتباعه.

﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: معطوف على «أدعوكم»، أي: وما بالكم تدعونني إلى النار، أي: إلى ما يكون سببًا لدخولي النار، ثم فسر ذلك بقوله:

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن أكفر بالله، أي: لأجحد ربوبيته وإلهيته، وما يجب له، ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾، أي: وأشرك بالله من الشركاء.

﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، «ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة في محل نصب مفعول لـ«أشرك»، أي: الذي ليس لي به علم، وهذا قيد لبيان الواقع؛ لأن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بما أشرك به، ولا أصل لما فعل؛ لأنه على جهل وضلال وبلا دليل.

---

(١) سبق تخريجه.

والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب، إن لم يكن أكبرها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، أي: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز الغفار، ذي العزة التامة، والمغفرة الواسعة.

وبدأ هنا باسم «العزيز»؛ لأن المقام يقتضيه؛ لأن فرعون وقومه يرون أن العزة لهم- مع ما فيه تهديد ووعيد لهم، إن استمروا على كفرهم وشركهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا شك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ «ما»: موصولة، أي: أن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام والأنداد، والكفر بالله.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ «دعوة»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ليس له أيُّ دعوة، أي: لا يستحق العبادة والدعوة والالتجاء إليه، ولا يستجيب لداعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ولا جرم، ولا شك أن مردنا إلى الله، أي: مرجعنا ومصيرنا إلى الله في الآخرة، إليه إيابنا، وعليه حسابنا، ومجازاة كل منا بعمله؛ كما أن مردنا إليه في الدنيا في جميع أمورنا؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: معطوف على ما قبله، أي: ولا جرم ولا شك أن المسرفين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا الحد بالكفر والمعاصي.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ «هم»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هم دون غيرهم أهل النار، وملازموها الخالدون فيها.

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«السين»: للتحقيق والقرب، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فستذكرون ولا بد عن قريب الذي أقوله لكم، أو قولي لكم، عند حلول آجالكم، ومعاينة العذاب، وحرمانكم الثواب، وتندمون حين لا ينفعكم الندم، وكل ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: أكل أمري كله إلى الله، وأعتمد عليه، وأعتصم به من شركم، ومن شر كل ذي شر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، أي: عليم بهم، مطلع على أحوالهم، وبواطنهم وظواهرهم، يعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضله، ويعلم من يستحق الغواية فيضله بعدله، يحفظ أولياءه وينجيهم، وينتقم من أعدائه ويهلكهم؛ ولهذا قال:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ الضمير يعود إلى الرجل المؤمن الناصح لقومه، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوقاه سيئات مكرهم، أو سيئات الذي مكروا، أي: حفظه ووقاه سوء عاقبة مكرهم، من إرادة قتله وإهلاكه، ونجاه مع موسى من الغرق، ومآله في الآخرة إلى جنات النعيم.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: وأحاط ونزل بفرعون وقومه.

﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السيئ، بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخيرًا بإغراقهم جميعًا في اليم في صبيحة واحدة، ثم نقلهم إلى النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ ﴾، أي: يعرضون على النار صباحًا ومساءً في البرزخ في قبورهم، فيأتيهم من سَمومها وعذابها ما لا يطيقون.

وقوله: ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ يحتمل أن المراد: على الدوام، ويحتمل أن المراد به: في هذين الوقتين فقط.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**»[1].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: ويوم تقوم القيامة، ويبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بوصل الهمز وضم الخاء: «ادْخُلُوا»، والابتداء لهم بضم الهمزة، أي: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب، والأمر للإهانة والإذلال.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة وكسر الخاء: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾، أي: يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أعظم العذاب، وأغلظه، وأقواه ألمًا، وهو عذاب جهنم.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي فرعون في غيه وطغيانه وتكبره وعلوه، وكذبه وتمويهه على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته؛ لقول فرعون: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، فهذا يدل على أن موسى أبلغه أن الله في السماء.

٣- احتراز فرعون من تشكيك قومه بربوبيته وإلهيته بعد أمره هامان ببناء صرح له، بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وهذا من التمويه والكذب على قومه؛ لأنه يعلم أن موسى صادق، ويعلم في قرارة نفسه أنه هو الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ١٣٧٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٦، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٠، والترمذي في الجنائز ١٠٧٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٠.

٤- تزيين الشيطان والنفس الأمارة- مع حب الرياسة والتسلط- لفرعون سوء عمله والصد عن طريق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾.

٥- أن من كتب عليه كونًا وقدرًا الضلال، والصد عن طريق الحق وقع في ذلك ولا بد؛ لأن قدر الله نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾، وهذا على اعتبار التزيين قدريًّا.

٦- إعراض فرعون وصده بنفسه عن طريق الحق، وصده الناس عن ذلك؛ لقوله تعالى: «وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ» على قراءة فتح الصاد.

٧- أن كيد فرعون ومكره وتدبيره الخفي والجلي لتكذيب موسى وما جاء به من الحق في فساد وبوار، وهلاك وضياع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾، وهكذا كل داعٍ للشر فكيده في تباب وخسار.

٨- تلطف هذا الرجل المؤمن في دعوته قومه إلى الله؛ لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٩- تدرج هذا الرجل المؤمن من الإنكار على قومه قتل موسى بغير حق، ومن تحذيرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، إلى دعوتهم إلى اتباعه؛ ليهديهم طريق الرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

١٠- شجاعة هذا الرجل وقوته في الحق، في دعوته قومه إلى اتباعه، وتعريضه بقوله لهم: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ بكذب فرعون عليهم، وتضليله لهم بقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

١١- أن سبيل الحق والرشد واحد، لا ثاني معه.

١٢- تزهيده قومه في الدنيا وبيان حقارتها، وأنها مجرد متاع سرعان ما تضمحل وتزول، فلا يغتروا بها، وينشغلوا عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وقد قال ﷺ: **«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما**

أهلكتهم»(١).

١٣- ترغيبهم في الدار الآخرة، وبيان أنها دار الاستقرار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ويجب الاستعداد والعمل لها؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

١٤- وجوب الحذر من الدنيا وفتنتها؛ فإنها سبب هلاك وضلال كثير من الخلق، ووجوب الاستعداد للآخرة والعمل لها.

١٥- إثبات الدار الآخرة، وقيام الساعة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٦- التحذير من عمل السيئات، وأن من عمل سيئة جوزي بمثلها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

١٧- كمال عدل الله تعالى، فمن عمل سيئة جوزي بسيئة واحدة مثلها، من غير زيادة.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان ما أعده الله لمن عمل صالحًا وهو مؤمن من دخول الجنة، وما لهم فيها من واسع الرزق بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

١٩- لا بد لقبول العمل من كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٠- لا فرق بين الذكر والأنثى في الثواب والعقاب، فكل منهما يجازى بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٢١- أن العمل الصالح لا ينفع إلا مع الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

٢٢- التنويه بشأن من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن؛ للإشارة إليهم

---

(١) سبق تخريجه.

بإشارة البعيد: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ رفعة لهم وتنويهًا بقدرهم.

٢٣- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٢٤- كرم الله عز وجل وواسع جوده وعطائه؛ حيث يعطي أهل الجنة بلا حساب، ولا عد، ولا حد.

٢٥- تعجب هذا الرجل المؤمن وإنكاره على قومه، كيف يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم من الإيمان والعمل الصالح، وعبادة العزيز الغفار، وتصديق رسوله واتباعه، ويدعونه إلى ما يكون سببًا لدخول النار من الكفر بالله والشرك؛ لقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٦- أن من دعا إلى اتباع الحق فهو داعٍ إلى النجاة في الدنيا والآخرة، ومن دعا إلى الباطل فهو داعٍ إلى الهلاك والشقاء في الدنيا وإلى النار في الآخرة.

٢٧- إثبات وجود النار، وأن الله أعدها لمن كفر وأشرك وأسرف؛ لقوله: ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

٢٨- أن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بذلك، وإنما تعبد على جهل وضلال.

٢٩- إثبات اسم: «العزيز»، وأنه ذو العزة التامة، لا يضام من لاذ بجنابه واحتمى بحماه؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٣٠- إثبات اسم الله: «الغفار»، وأنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لعباده، يستر ذنوبهم ويتجاوز عنها؛ لقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

٣١- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الغفار»، وصفتي العزة التامة، والمغفرة الواسعة في حقه كمال إلى كمال.

٣٢- أن الدعوة إلى الكفر والشرك بالله دعوة باطلة؛ لأن الشركاء لا يستحقون العبادة والدعاء من دون الله، ولا يستجيبون لداعيهم ولا ينفعونه؛ لأنهم لا يملكون

لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا؛ لقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾.

٣٣- أن مرد الخلائق في جميع أمورهم إلى الله تعالى، وإليه إيابهم في الآخرة، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقول هذا الرجل المؤمن مذكرًا قومه بذلك: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾.

٣٤- تهديد المسرفين بالكفر والشرك والمعاصي، ووعيدهم بالخلود في النار، والتحذير من ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وفي هذا تعريض بما عليه قومه من الكفر والشرك والإسراف، وتحذير لهم.

٣٥- تهييجه مشاعر قومه، وأنهم سيذكرون قوله ونصحه لهم، وسيندمون حين لا ينفع الندم، عندما يحل بهم العقاب، ويُحرَمون الثواب، وفي هذا تحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾.

٣٦- تفويضه أمره إلى الله واعتماده عليه واعتصامه به؛ ليمنعه من شرهم ومن شر كل ذي شر؛ لقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٣٧- إحاطة علم الله تعالى وبصره بالعباد، وأحوالهم الظاهرة والباطنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة.

٣٩- حفظ الله تعالى إياه، ووقايته له من سوء مكرهم وكيدهم، وإنجاؤه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ وهو الواقي والكافي سبحانه لمن توكل عليه.

٤٠- إحاطة سوء العذاب بأصنافه المختلفة بآل فرعون، وفي النهاية إغراقهم في اليم في صبيحة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

٤١- تعذيبهم في البرزخ بعرضهم على النار صباحًا ومساءً؛ لقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

٤٢- إثبات عذاب القبر؛ لقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فقالت لها: أعاذك الله من

عذاب القبر. فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم، عذاب القبر حق**». قالت عائشة: «فما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: «**فأوحي إلى أنكم تفتنون في قبوركم**»[(٢)].

فعذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤٣- إدخال آل فرعون يوم القيامة أشد العذاب، والجمع لهم بين العذاب المعنوي بالإهانة والإذلال، والعذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

٤٤- أن النار هي أشد العذاب، وأن شدة العذاب فيها بقدر شدة الكفر، فلما كان فرعون وآله من أطغى الخلق جوزوا بأشد العذاب.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، ما جاء في عذاب القبر ١٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٦٢- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر إذ يتحاجون، أي: حين يتحاج أهل النار ويتخاصمون فيها.

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ الفاء: عاطفة، و«الضعفاء» جمع: «ضعيف»: ضد القوي، والضعف يكون في البدن؛ كما يكون في المال والشرف والسيادة، وغير ذلك، والمراد بهم: لأتباع.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: للذين استكبروا عن الحق، وعلى الخلق، من السادة والكبراء ونحوهم، وهم المتبوعون.

﴿إِنَّا كُنَّا﴾، أي: في الدنيا، ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع: «تابع»، أي: مُتَّبعين.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾، أي: فهل أنتم دافعون ومتحملون عنا نصيبًا من النار، أي: جزءًا أو قسطًا من النار؛ جزاء متابعتنا لكم في الدنيا.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾، أي: كلنا نحن وأنتم في النار، فكيف نغني وندفع عنكم نصيبًا منها ونحن كلنا فيها؟

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

لكن شتان ما بين عذاب الأتباع وعذاب المتبوعين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال ﷺ: **«من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»**(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾، أي: قد قضى بحكمه القدري الجزائي.

﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾، أي: بين الناس عمومًا، أي: بين أهل الجنة وأهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ من الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين.

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، أي: لخزنة النار، وسميت النار بجهنم؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وخزنتها: هم الملائكة الموكلون عليها، وهم من الغلظة والشدة كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وهم كثرة كاثرة؛ كما دل عليه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك**

---

(١) سبق تخريجه.

يجرونها»[١].

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: اسألوا ربكم واطلبوا منه.

﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: قدر يوم من العذاب؛ لأن يوم القيامة يوم واحد، ليس فيه ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر.

وإنما طلبوا التخفيف؛ لشدة ما هم فيه من العذاب، واكتفوا بطلب تخفيف العذاب لا رفعه، وتخفيف يوم واحد فقط؛ لشدة يأسهم من ذلك كله.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الخزنة للذين في النار موبخين لهم.

﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع والتقرير، أي: أولم تك تأتيكم رسلكم بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات، التي فيها بيان الحق وتحذيركم من النار؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ «بلى»: حرف جواب، أي: قال الذين في النار: بلى قد جاءتنا رسلنا بالبينات، وقامت علينا الحجة، لكننا كذبنا رسلنا وعاندناهم، وكفرنا بما جاؤوا به من البينات وخالفناهم.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال الخزنة لهم تهكما بهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ أنتم، فلن ندعوا لكم؛ لأن الدعاء والشفاعة للكفار مما لا يجوز ولا يقبل.

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ هذا من تتمة كلام الخزنة لهم، أي: وما دعاء الكافرين إلا في ضياع واضمحلال، فلن يستجاب لكم، ولن يخفف عنكم العذاب. ويحتمل: أنه استئناف من كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٣.

يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: إنا لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، ببيان الحق وإظهاره، بالآيات البينات، والحجج والبراهين الواضحات، وإزهاق الباطل وإبطاله.

وننصرهم بالانتصار لهم ممن آذاهم؛ بجعل الغلبة والظفر لهم بالقتال في الميدان، وهزيمة أعدائهم وإهلاكهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»**[1].

ولهذا أهلك الله المكذبين من الأمم السابقة بأنواع العقوبات، وأنجى رسله والمؤمنين، ومكن لرسوله محمد ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ونصرهم في بدر وفي فتح مكة، وجعل لهم العز والسؤدد، ونصر خلفاءه وأصحابه، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، أي: وننصر رسلنا والذين آمنوا نصرًا أعظم وأكبر وأجل يوم يقوم الأشهاد، أي: يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم، وذلك بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم، بإدخالهم جنات النعيم، وإدخال من خالفهم نار الجحيم.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير: ﴿يَنفَعُ﴾، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «تَنْفَعُ»، و«يوم» بدل من «يوم» في

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، أي: يوم لا ينفع الظالمين بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أي: اعتذارهم، أي: لا ينفعهم اعتذارهم، ولا يقبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ اللام: للاستحقاق، أي: ولهم اللعنة من الله، بطردهم وإبعادهم من رحمته وجنته، ولهم اللعنة من الملائكة والناس أجمعين، ومن عامة اللاعنين بالدعاء عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿وَلَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهي النار التي تسوء ساكنيها من شدة عذابها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ [الملك: ٦].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: التوراة، والآيات البينات التي اهتدى بها بنفسه، وهدى بها الناس وأرشدهم إلى الحق، فصار بذلك هاديًا مهديًّا.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: جعلناهم من بعد موسى يتوارثون الكتاب، أي: التوراة، وعلمها، والعمل بأحكامها.

﴿هُدًى﴾: مصدر في موضع الحال، أي: هاديًا ومرشدًا، أو مفعول لأجله، أي: لأجل أن يكون هدى.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على «هدى»، أي: وتذكرة وعظة وعبرة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لأنهم هم الذين

ينتفعون بالآيات الشرعية والكونية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، [آل عمران: ٧].

﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ كما في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: اصبر على حكم الله الشرعي والكوني؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، أي: اصبر على دعوة قومك، وعلى ما تلقاه منهم من التكذيب، وما ينالك منهم من الأذى والعناء.

وقد صبر ﷺ صبر الجبال الراسيات، فوضع سلى الجزور على ظهره وهو ساجد، وأدميت قدماه، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته، ورمي بالسحر والشعر والكهانة والكذب والجنون، وعاداه أقرب الناس إليه، وتحزب الناس عليه، وقُدح في رسالته، واتهم في أهله، ولقي ﷺ من أنواع الابتلاء ومن صنوف الأذى من قومه ما لم يلقه نبي قط، وهو مع ذلك صابر محتسب، يردد قوله: «**رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[(١)].

فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه عن أمته خير الجزاء.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله لك بالنصر والتمكين، وجعل العاقبة لك في الدنيا والآخرة وللمؤمنين.

﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت لا مرية فيه ولا شك؛ لأن الله لا يخلف الميعاد؛ لتمام قدرته، وصدق وعده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرن بين تسبيح ربك وحمده؛ ولهذا جاء الترغيب في أن يقال في ختام المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»[(١)].

وذلك؛ لأن في التسبيح تنزيهَ الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين،

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الحمد إثبات وصفه عز وجل بصفات الكمال.

﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، أي: في آخر النهار وأوله، اللذين هما من أفضل الأوقات، فالعشي: ما بعد الزوال، والإبكار: ما قبل الزوال.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة ذي اليدين، قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي**»(١).

والتسبيح بمعناه العام يشمل أداء العبادة من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك، وفي حديث أم هانئ رضي الله عنها قالت: «صلى النبي ﷺ في بيته سبحة الضحى»(٢).

ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لو كنت مسبحًا لأتممت»(٣).

أي: لو كنت مصليًا نافلة في السفر لأتممت الصلاة وما قصرتها؛ لأن السنن الرواتب تسقط في السفر ما عدا راتبة الفجر.

ولهذا حمل كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨] على أن المراد به: أوقات الصلوات الخمس.

والأمر بالآية بالصبر والاستغفار والتسبيح لا شك أنه أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن لها فيه الأسوة والقدوة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، أي: بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة. وهذا قيد بيان للواقع، وهو أن كل مجادل في آيات الله إنما يجادل بغير سلطان وبغير حجة.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، تشبيك الأصابع في المسجد ٤٨٢، ومسلم في المساجد، السهو في الصلاة والسجود له ٥٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، تستر المغتسل بثوب ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٦٨٩، وأبو داود في الصلاة ١٢٢٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧١.

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما في صدورهم ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما في صدورهم وقلوبهم إلا كبر عن اتباع الحق، وتكبر على من جاءهم به، واحتقار للخلق. ونكر «كبر» للتعظيم.

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الجملة مستأنفة، والضمير يعود إلى «كبر»، أي: ما هم ببالغين في هذه المجادلة مرادهم من الكبر الذي في صدورهم، والتعالي على الحق وعلى من جاء به، وإخمال الحق، وإظهار الباطل، بل سيزيدهم ذلك ذلًّا ومهانة واحتقارًا، ويبقى الحق هو الثابت المرفوع، والباطل هو الزاهق الموضوع؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، أي: استجر بالله واعتصم به من شر هؤلاء المجادلين المتكبرين وحالهم، ومن شر كل ذي شر من شياطين الإنس والجن وغير ذلك، ومن كل مكروه؛ فإنه حافظك وعاصمك.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أي: إنه هو وحده السميع المجيب لدعاء من دعاه، الذي وسع سمعه الدعاء، وجميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ ذو البصر الذي أحاط رؤية وعلمًا بكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- تخاصم أهل النار فيها، وعداوتهم فيما بينهم؛ الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الآية.

٢- تسلط الأقوياء على الضعفاء، وخضوع الضعفاء للأقوياء، واتباعهم لهم وتقليدهم، مما يوجب على المسلمين أفرادًا وجماعات ودولًا أخذ زمام القوة، في جميع نواحي الحياة، ماديًّا وعسكريًّا، وغير ذلك؛ لأنهم يملكون أعظم قوة معنوية، وهو كونهم على الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]،

وقال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[1].

٣- ندم المستضعفين وتمنيهم وطلبهم من المستكبرين الذين أضلوهم أن يدفعوا ويتحملوا عنهم نصيبًا- ولو قليلًا- من النار، مقابل اتباعهم لهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾.

٤- اعتذار المستكبرين المتبوعين بقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: فلا يمكن أن نتحمل عنكم نصيبًا من النار ما دمنا جميعًا فيها.

٥- خنوع المستكبرين وصَغارهم وذلهم يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: فلا فضل لأحد منا على الآخر؛ كلنا في النار.

٦- إقرارهم بحكم الله العدل بين العباد، وقضائه الفصل بينهم بمجازاة كل بعمله، وإدخال الكفار النار، وإدخال المؤمنين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

٧- أن حكم الله إذا نفذ فلا يمكن دفعه ولا رفعه؛ ولا معقب له؛ لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩].

٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

٩- سؤال أهل النار خزنة جهنم الدعاء لهم بتخفيف العذاب عنهم يومًا واحدًا؛ لشدة حسرتهم، وشدة ما هم فيه من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

ولشدة يأسهم من التخفيف سألوا فقط تخفيف العذاب عنهم يومًا واحدًا.

١٠- إثبات خزنة النار الموكلين عليها، وعلى تعذيب أهلها.

١١- إثبات ربوبية الله الخاصة لخزنة النار وغيرهم من الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- توبيخ الخزنة وتقريعهم لأهل النار، وتقريرهم بقيام الحجة عليهم؛ بإرسال الرسل إليهم بالبينات، يحذرونهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾.

وفي هذا تعذيب معنوي ينصب على قلوبهم قد يفوق العذاب الحسي.

١٣- إقرار أهل النار واعترافهم بقيام الحجة عليهم، ولكنهم لم يستجيبوا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: ١٠، ١١].

١٤- إقامة الحجة على الأمم بإرسال الرسل إليهم بالبينات، وأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير.

١٥- تهكم الخزنة بأهل النار؛ لقولهم لهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾، أي: فادعوا أنتم.

١٦- ضياع دعاء الكافرين واضمحلاله، وأنه لا يستجاب، ولا قيمة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

ويستثنى من هذا في الدنيا دعوة المضطر، ودعوة المظلوم؛ فإنهما يستجابان ولو من كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

وذلك أن المضطر يكون مخلصًا لله في الدعاء، مظهرًا لكمال افتقاره إلى الله، ولأن المظلوم طالب لإقامة العدل.

١٧- وعد الله تعالى الذي لا يُخلف وعده بنصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

١٨- نصر الله تعالى لرسله والمؤمنين نصرًا أجلَّ وأعظم يوم القيامة عند قيام الأشهاد بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم وعاداهم، بإدخال الرسل والمؤمنين

---

(١) سبق تخريجه.

جنات النعيم، وإدخال من خالفهم وحاربهم نار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

١٩- إثبات قيام الأشهاد يوم القيامة من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

٢٠- التحذير من مخالفة الرسل وسلوك غير سبيل المؤمنين؛ لأن من فعل ذلك فهو مغلوب مخذول في الدنيا والآخرة.

٢١- نفي انتفاع الظالمين بمعذرتهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

٢٢- لعنهم وطردهم وإبعادهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار أسوأ دار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٢٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وبعثه بالهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بتوريثهم التوراة: علمها والعمل بها بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يقوموا بها، بل حرفوها وبدلوها.

٢٥- اشتمال التوراة على الهدى والنور والضياء، والذكرى والموعظة والعبرة، لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

٢٦- أنه لا ينتفع بالهدى والذكرى إلا أصحاب القلوب السليمة الصحيحة.

٢٧- الثناء على أهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، ويتذكرون ويعتبرون بالآيات، وأن من لم يتذكر بالآيات فليس بعاقل.

٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٢٩- تأكيد أن ما وعد الله تعالى به من النصر والتمكين له ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت وتقوية لقلبه، ولأتباعه، وتحذير لأعدائه.

٣٠- وجوب الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو أمر له ﷺ ولأمته.

وهو ﷺ وغيره من الرسل من باب أولى- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكنهم لا يُقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم: ١].

وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس: ١- ٤].

لكنهم معصومون من الخطأ في التبليغ، ومن الوقوع في الكبائر.

٣١- مشروعية التسبيح بحمد الرب عز وجل بآخر النهار وأوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٣٢- فضيلة القِران بين التسبيح والتحميد؛ لأن التسبيح فيه التنزيه لله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، والتحميد فيه إثبات الوصف بالكمال لله تعالى.

٣٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٣٤- فضيلة هذين الوقتين: العشي والإبكار؛ لأنهما ينتظمان أوقات الصلوات الخمس كلها.

٣٥- ذم المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة،

وبيان أن ما حملهم على ذلك إنما هو الكبر الذي في قلوبهم عن اتباع الحق، وعلى من جاءهم بالحق، وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾.

٣٦- أن المجادلين في آيات الله لردها وإبطالها ليس لديهم حجة ولا دليل، بل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وهيهات لهم ذلك.

٣٧- خطر الكبر، وأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق.

٣٨- تحقير هؤلاء المجادلين المتكبرين، وتيئيسهم من بلوغ مرادهم، من رد الحق وإخماله، وإعلاء الباطل وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.

وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ، وبشارة له.

٣٩- مشروعية الاستعاذة بالله من جميع الشرور وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٤٠- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع الذي وسع دعاء الداعين وإجاباتهم، ووسع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٤١- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه عز وجل ذو البصر الذي أحاط بكل شيء بصرًا وعلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾.

٤٢- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع والبصر المحيط بكل شيء كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللام: لام الابتداء والتوكيد، أي: لخلق السموات والأرض والتي هي من أكبر المخلوقات.

﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أكبر وأعظم من خلق الناس ابتداءً، ومن إعادتهم أحياءً بعد موتهم الذي ينكره المشركون، وهو على الله يسير، فمن قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق ما دونه من باب أولى.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

قال ابن القيم: «وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السموات والأرض. وخلْقهما أكبر من خلقكم، كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقًا

جديدًا؟!»(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: جاهلون، لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتفكرون في خلق السموات والأرض، ولا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة على كمال قدرة الله تعالى؛ ولهذا ينكرون المعاد والبعث؛ استبعادًا وكفرًا وعنادًا، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن الأعمى لا يرى شيئًا مما أمامه، وكثيرًا ما يصطدم بما يؤذيه.

والبصير يرى ويشاهد كل ما أمامه، فيتجنب غالبًا كل ما يؤذيه، فلا يستوي هذا وهذا، وهذا أمر معلوم لكل أحد، وإنما ذكر توكيدًا لنفي الاستواء بين المؤمن وغيره؛ لقوله بعده:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، أي: ولا يستوي الذين ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، فأحسنوا بالإيمان بالله، والإخلاص له، ومتابعة شرعه.

﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ اللام: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا المسيء الذي لم يؤمن ولم يعمل الصالحات، بل كفر وعمل السيئات، فالذي آمن وعمل الصالحات كالبصير، يرى الطريق، ويمشي على بصيرة من أمره، والمسيء كالأعمى، لا يرى الطريق، ويتخبط في مشيته، وحال الاثنين كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

فشتان بين الطريقين، وشتان بين سالكيهما؛ ولهذا قال تعالى مخاطبًا المؤمنين ومرغبًا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٠

لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتاء الخطاب: ﴿تتذكرون﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة ﴿يذكرون﴾، أي: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون.

و«قليلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، عامله: «تتذكرون».

و«ما»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للقلة، أي: تتذكرون تذكرًا قليلًا قليلًا، وقيل: «ما»: مصدرية، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: لكائنة وواقعة لا محالة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ توكيد معنوي لإتيانها، أي: لا ريب ولا شك في إتيانها ووقوعها قريبًا؛ كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧)﴾ [النجم: ٥٧].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يؤمنون بإتيان الساعة، ولا يصدقون بها، بل يكذبون بها.

ولهذا صار أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيمان بها وباليوم الآخر والحساب من أعظم ما يحفز ويحمل على الإيمان والعمل.

ولهذا يربط القرآن الكريم كثيرًا بين الإيمان بالله واليوم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ الدعاء هو العبادة، وهو شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

قال ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ١٤٧٩، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٢، وابن ماجه في الدعاء، =

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أي: أستجب لكم دعاءكم، فأتقبل عبادتكم، وأعطيكم سؤلكم، فمن فضله عز وجل أمر بالدعاء وتكفل بالإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم»**. فقال رجل من القوم: إذن نكثر؟ قال: **«الله أكثر»**(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: **«أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئًا، وأما التي لك علي: فما عملت جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء، وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي: فارض لهم ما ترضى لنفسك»**(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء، فإن الإجابة معه»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يدع الله سبحانه غضب الله عليه»**(٤)، وفي رواية: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**(٥).

قال الشاعر:

= فضل الدعاء ٣٨٢٨، وأحمد ٤/ ٢٧١، والحاكم ١/ ٤٩٠- ٤٩١، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٧٣.

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٤٢.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٦٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الباب السابق ٣٨٢٧، وأحمد ٢/ ٤٧٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٤٣: «إسناده لا بأس به».

(٥) أخرجها أحمد ٢/ ٤٤٢، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٣.

الله يغضب إن تركت سؤاله   وترى ابن آدم حين يُسأل يَغضَب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي وعبادتي وحدي بلا شريك.

﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول: «سَيُدْخَلُونَ»، أي: سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء: ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾.

﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين حقيرين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾، أي: صيَّر كونًا وقدرًا لأجلكم، ولمصالحكم ومنافعكم، ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ يغشاكم بظلامه ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، أي: لأجل أن تسكنوا فيه، فتسكن جوارحكم وقلوبكم ونفوسكم، وينتقض عنكم تعب العمل في النهار، ويتجدد نشاطكم.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، أي: وجعل النهار مبصرًا، أي: صيَّره مضيئًا بالشمس، وموضع إبصار تتحركون فيه بأعمالكم وطلب معاشكم، وفي أسفاركم وتجاراتكم.

وفي هذا دلالة على كمال ربوبية الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته وعظيم منته؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، اللام: للتوكيد، ونكَّر «فضل»؛ للتعظيم، أي: إن الله لذو فضل عظيم، أي: صاحب إفضال عظيم على الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، أي: مع عظيم فضله عليهم أكثرهم لا يشكرون الله على ما أولاهم من النعم؛ من جعل الليل سكنًا من أجل راحتهم، وجعل

النهار مضيئًا من أجل تصرفهم في أعمالهم ومعاشهم، وغير ذلك.

أي: لا يشكرون الله، لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بجوارحهم، بنسبة النعم إليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لجهلهم وظلمهم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي جعل لكم ما ذكر وامتن به عليكم ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول لـ«ذلكم»، أي: المألوه المعبود، المتفرد وحده بالألوهية ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثانٍ لـ«ذلكم»، أي: المتفرد بالربوبية، أي: بالخلق والملك والتدبير.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر ثالث لـ«ذلكم»، أي: خالق جميع الأشياء، وفي هذا تقرير وتوكيد لكمال ربوبيته.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو، وفي هذا تقرير وتوكيد لكمال ألوهيته، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده إلى عبادة غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، مع قيام البرهان على وحدانيته، وتفرده بالخلق دون غيره؟!

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: كما أفك هؤلاء وصرفوا عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره بسبب تكذيبهم آيات الله ورسوله، كذلك يصرف عن عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يجحدون بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: الذي صير لكم الأرض.

﴿قَرَارًا﴾، أي: ذات قرار، أي: مستقر، بجعلها ساكنة، وإرسائها بالجبال؛ لئلا تميد بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

وجعلها مذللة مهيأة للاستقرار والعيش والبناء عليها، والزرع فيها، واستخراج خيراتها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: وجعل السماء بناءً عاليًا، وسقفًا محفوظًا للأرض، وللمخلوقات كلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، أي: جعل صوركم على أحسن الأشكال، فليس في الحيوانات كلها أحسن صورة من بني آدم.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾، أي: وأعطاكم من الطيبات كلها، مما لذ وطاب، من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وغير ذلك.

فامتن عز وجل عليهم بجعل الأرض قرارًا وسكنًا لهم، وبجعل السماء تظلهم، وبخلقهم وإحسان صورهم، وبتأمين أرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي جعل لكم الأرض قرارًا وسكنًا، والسماء بناءً، وخلقكم وأحسن صوركم، ورزقكم من جميع الطيبات.

﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود الذي يجب أن تعبدوه وحده دون سواه.

﴿رَبُّكُمْ ۖ﴾ المتفرد بربوبيتكم وربوبية جميع الخلق، خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: فتعالى الله وتقدس وتعاظم، وكثر خيره وفضله، أي: أنه ذو البركة الثابتة العظيمة العامة.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم، من عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم الجماد، وغير ذلك.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو عز وجل وحده ذو الحياة التامة أزلًا وأبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣].

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ لكمال حياته ودوامها أزلًا وأبدًا.

﴿فَٱدْعُوهُ﴾ دعاء عبادة، ودعاء مسألة، أي: اعبدوه واسألوه.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ حال، أي: مخلصين له وحده العمل، أي: العبادة والدعاء دون شريك.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أعقب وصفه عز وجل بالحياة الكاملة، وتفرده بالألوهية بلا شريك، والأمر بإخلاص الدعاء والدين له، بحمد نفسه على كمال حياته، وتمام وحدانيته في إلهيته وربوبيته، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الوصف بصفات الكمال، مع المحبة والتعظيم، مستحَق لله وحده، خاص به.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾؛ خالقهم ومالكهم، ومدبرهم؛ لكمال صفاته وتمام نعمه.

عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال: لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، قال: فذلك قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾»(١).

وروي عن سعيد بن جبير؛ أنه كان يستحب ذلك، ويأمر به(٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، بدءًا وإعادة؛ لقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، بل إن الناس جزء من الأرض؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٨.

لأنهم خلقوا من طين.

٢- إثبات البعث بعد الموت، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض فهو على إعادة الناس أحياءً بعد موتهم أقدر من باب أولى.

٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة؛ ولهذا ينكرون البعث تكذيبًا به واستبعادًا، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس؛ فأكثرهم على جهل وضلال.

٥- أنه لا يستوي الأعمى الذي لا يشاهد ما أمامه، ويسير في الطريق على غير هدى، والبصير الذي يشاهد ما حوله، ويسير في الطريق على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

٦- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾.

فالمؤمن يسير على نور من ربه، وبصيرة من أمر دينه، وغيره يتخبط في ظلمات الجهل والكفر، وشتان بين هذا وذاك؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

٧- تقريب القرآن للمعاني بضرب الأمثلة الحسية، فقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لتقريب المعنى الذي بعده، وهو عدم استواء المؤمن وغيره.

٨- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.

٩- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، موافقًا لشرعه.

١٠- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والعمل السيئ.

١١- قلة التذكر والاتعاظ عند كثير من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فقليل تذكرهم، وقليل المتذكر منهم.

١٢- إثبات وتأكيد إتيان الساعة، وقيام القيامة بلا شك، ووجوب الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

١٣- تكذيب كثير من الناس بالساعة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٤- يجب الحذر من الاغترار بما عليه أكثر الناس من التكذيب بالساعة، ورد الحق.

١٥- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٧- وجوب دعاء الله تعالى؛ دعاء عبادة، ودعاء مسألة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٨- تكفله عز وجل ووعده بإجابة دعاء من دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٩- قرب الإجابة من الله عز وجل إذا تحقق الدعاء على وجه صحيح؛ لأن الله رتب الإجابة على الدعاء ترتب الجواب على الشرط؛ فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

أي: إن تدعوني أستجب لكم.

٢٠- أن الدعاء هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾.

٢١- التهديد والوعيد بجهنم للمستكبرين عن عبادة الله تعالى ودعائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٢٢- التحذير من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على التكبر عن قول الحق، وعلى التعالي على الخلق.

٢٣- الجمع للمتكبرين عن عبادة الله تعالى في جهنم بين العذاب الحسي بالنار، والعذاب والمعنوي بالإذلال لهم والإهانة.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن استكبر عن عبادة الله تعالى سيدخل جهنم صاغرًا ذليلًا.

٢٥- إثبات جهنم، وأنها موجودة الآن، معدة لأهلها.

٢٦- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرة الله تعالى بجعل الليل مظلمًا؛ ليكون وقتًا للسكن، وجعل النهار مبصرًا؛ ليكون وقتًا للعمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾.

٢٧- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأحكامه القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾.

٢٨- فضل الله العظيم على الناس، وقلة الشاكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٢٩- وجوب شكر الله على نعمه، وعدم الاغترار بما عليه كثير من الناس، فأكثرهم غير شكور لنعم الله وفضله، بل كفور بذلك، ينسب ذلك إلى غير الله، ويستعمله في معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٣٠- إثبات وحدانية الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

٣١- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأنه الرب الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

٣٢- التعجب والإنكار على المشركين في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الرب الخالق لكل شيء، إلى عبادة الأصنام والأوثان، مع قيام البرهان على تفرده بالخلق ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٣٣- أنه كما أُفك هؤلاء وصُرفوا عن عبادة الرب الخالق، إلى عبادة آلهة لا تخلق شيئًا، بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق؛ كذلك يصرف عن عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يجحدون؛ بسبب كفرهم وجحودهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوٓاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٣٤- أن الذنوب والمعاصيَ تحول دون رؤية الحق ومعرفته؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٣٥- بيان تمام قدرته عز وجل، والامتنان على العباد بجعل الأرض قرارًا لهم، يسكنون ويعيشون عليها، والسماء بناءً وسقفًا للمخلوقات، وتصويرهم وتحسين صورهم، ورزقهم من الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٣٦- تأكيد إثبات وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته، والاستدلال على ألوهيته، بربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، والتذكير بعظيم إنعامه وإفضاله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: الذي أنعم عليكم بهذه الأشياء الأربعة.

٣٧- تعاليه عز وجل، وتعاظُمُه، وأنه سبحانه ذو البركة العامة، والإفضال والخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٣٨- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه سبحانه ذو الحياة الكاملة أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ﴾.

٣٩- وجوب دعاء الله تعالى، وإخلاص العبادة والدين له وحده؛ لأنه لا معبود بحق إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٤٠- استحقاقه عز وجل لكمال الحمد، واختصاصه بذلك؛ لكماله في ذاته وصفاته وفي إنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده، وذكر الأدلة والبيِّنات على ذلك، أتبع ذلك بذكر النهي عن عبادة غير الله، والأدلة على ذلك، فالأول أعظم مأمور على الإطلاق، والثاني أعظم منهي على الإطلاق.

قوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون وتعبدون غير الله على جهل منكم وضلال؛ من الأصنام، والأوثان، والأنداد.

﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾، أي: حين جاءني الآيات البينات، والحجج والأدلة الواضحات، والبراهين القاطعات من ربي على أنه لا يستحق العبادة سواه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾، أي: أمرني ربي أن أستسلم وأخضع وأنقاد على علم وبصيرة، بالطاعة باطنًا وظاهرًا، بقلبي ولساني وجوارحي.

﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لرب جميع العالمين؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية.

لما ذكر أنه نُهي عن عبادة غير الله، ذكر الموجب لهذا النهي، وهو كونه عز وجل المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الرب الخالق المحيي المميت.

ومعنى ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي: ابتدأ خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: ثم ابتدأ خلق سائر النوع الإنساني في بطن أمه من نطفة، وهي «المني»، الماء المهين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي: دم غليظ تعلق في جدار الرحم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد اكتمال أطوار خلقكم في بطون أمهاتكم من علقة إلى مضغة إلى عظام، إلى أن كسا العظام لحمًا، وأنشأه خلقًا آخر ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: أطفالًا، أو ثم يخرج كل واحد منكم طفلًا.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا﴾ اللام في المواضع الثلاثة: للتعليل.

﴿أَشُدَّكُمْ﴾، أي: غاية قوتكم وشدتكم، وتكامل قواكم البدنية والعقلية، وذلك ما بين الثلاثين سنة إلى الأربعين.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان وحمزة والكسائي بكسر الشين «شِيُوخًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُيُوخًا﴾، أي: تبلغوا سن الشيخوخة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بلوغ الأشد والشيخوخة.

﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾، أي: ولأجل أن تبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، أي: وقتًا محددًا معينًا، ومدة تنتهي بها أعماركم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: ولأجل أن تعقلوا وتتفكروا في أطوار خلقكم، وأن الذي نقلكم في هذه الأطوار، من طور إلى طور، هو المستحق وحده للعبادة الذي لا يجوز صرف العبادة لغيره، وهو قادر تمام القدرة على بعثكم بعد موتكم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: هو وحده الذي يحيي ويميت، أي: المتفرد بالإحياء والإماتة، يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي؛ كما ذكر تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله للذي حاجه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، أي: إذا أراد أمرًا وحكم به وقدَّره.

و﴿أَمْرًا﴾: واحد الأمور، لا واحد الأوامر، أي: إذا قضى شأنًا من الشؤون.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر: «فَيَكُونَ» بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿فَيَكُونُ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾: رابطة لجواب الشرط «إذا»، والفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ للتعقيب، أي: فيكون من غير تأخر، ولا ممانعة؛ لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولهذا وُصِف عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ

يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر إلى الذين يجادلون ويخاصمون من المشركين والمكذبين في آيات الله؛ لردها وإبطالها.

﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾، الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: كيف يُصرفون عن الإيمان بها وتصديقها، إلى المجادلة بها وتكذيبها، مع وضوحها وظهورها، ودلالتها على الحق؟!

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ «الذين»: بدل من الموصول الأول، و«ال» في «الكتاب» يحتمل أن تكون للعهد الذهني، أي: الذين كذبوا بالكتاب المعهود «القرآن الكريم»، ويحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد به: جنس الكتاب، فيشمل جميع كتب الله.

﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾، أي: وبالذي أرسلنا به رسلنا من الكتب، أو من الدعوة للإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك، والإيمان بالبعث، وغير ذلك.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة مجادلتهم بآيات الله وتكذيبهم بالكتاب، وبالذي أرسلنا به رسلنا، وهذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ «الأغلال»: جمع «غُل»، وهي القيود في الأيدي والأعناق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ [يس: ٨]، وقال تعالى: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ الواو: استئنافية، و«السلاسل»: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: في أرجلهم، أو خبره: ﴿يُسۡحَبُونَ﴾، أي: يسحبون بها.

ويجوز كون «السلاسل» معطوفة على «الأغلال»، فتكون في الأعناق، أي: تغل

أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل.

و«السلاسل»: جمع: «سلسلة»، وهي القيود في الأرجل، وقد تجعل في الأعناق.

﴿يُسْحَبُونَ ﴾، أي: يجرون بهذه السلاسل التي في أرجلهم على وجوههم إهانة وإذلالًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

﴿فِي ٱلْحَمِيمِ﴾، أي: في الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة.

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾، أي: يوقد عليهم فيها اللهب العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦]، أي: أشعلت وأوقدت نارًا تتأجج، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: المؤجج نارًا.

أي: يسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى النار الملتهبة.

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٥٠].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الملائكة أو غيرهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع والتبكيت لهم، والتحقير لمعبوداتهم، أي: أين الذين كنتم تشركونهم.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: مع الله، أي: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ لـِمَ لم ينصروكم اليوم، ويدفعوا عنكم بعض العذاب، وينفعوكم؟ كما قال تعالى:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي: غابوا عنا، وذهبوا فلا نراهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

أي: غابوا عنا أحوج ما كنا إليهم، فلن ينفعونا.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لم نكن ندع ونعبد من قبل شيئًا، فأنكروا عبادتهم إياهم ظنًّا منهم أن ذلك يفيدهم وينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

كما ينكر الشركاء في المقابل عبادة المشركين لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦].

ويحتمل أن مرادهم بقولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾: الإقرار ببطلان عبادتهم إياهم، وأنها لا قيمة لها؛ لأنهم ليسوا بشيء؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الكهان: «**ليسوا بشيء**»[(١)]، أي: ليسوا بشيء يعتد به فيما يقصدهم الناس لأجله.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، أي: مثل ذلك الإضلال يضل الله الكافرين، حتى إنهم يوم القيامة يقرون بضلالهم، وبطلان ما كانوا عليه.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: كذلك يضلهم الله؛ للتسجيل عليهم بالكفر،

(١) أخرجه البخاري في الآداب ٦٢١٣، ومسلم في السلام ٢٢٢٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأنه سبب إضلالهم وعذابهم، وليعم هذا الوصف بالكفر واستحقاق العذاب كل من سلك مسلكهم.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ويقال لهم أيضًا من الملائكة أو غيرهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾، الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الباء: للسببية في الموضعين، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تفرحون في الأرض، أي: بسبب فرحكم في الأرض.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالباطل، فرح أشر وبطر واختيال، وهذا هو الفرح المذموم؛ كما قال قوم قارون محذرين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

وهذا بخلاف الفرح المحمود، وهو الفرح بالخير والعلم والهدى والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تمرحون، أي: تتوسعون في الفرح.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر للإذلال والإهانة والإلزام، أي: ادخلوا أبواب جهنم أذلاء صاغرين حقيرين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها مكثًا أبديًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فقبِّح وساء مأوى ومسكن المتكبرين ومقيلهم جهنم.

وأظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: فبئس مثواكم؛ لتسجيل التكبر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعمهم هذا العذاب وغيرهم من المتكبرين.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله عز وجل للنبي ﷺ عن عبادة غير الله بما أنزل الله عليه من الآيات

البينات، والدلائل والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات على بطلان عبادة غير الله، وأنه لا يستحق العبادة سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾.

٢- أنه ﷺ في هديه فيما يأمر به أو ينهى عنه على بصيرة ووحي من ربه، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣- ٤].

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾.

٤- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى والاستسلام له، والانقياد والخضوع له عز وجل ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدم النهي عن الشرك على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧- إثبات كمال قدرته عز وجل، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وتمام قدرته على البعث؛ لابتدائه خلق آدم أبي البشر من تراب، وخلقه النوع الإنساني من نطفة ونقله في مراحل خلقه من طور إلى طور، إلى بلوغ أجله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

٨- أن أصل خلق الإنسان من التراب بخلق آدم عليه السلام؛ مما يوجب عليه التواضع والخضوع لله تعالى، وعدم التكبر عن قبول الحق، وعلى الخلق.

٩- عناية الله تعالى بالإنسان في جميع أطوار خلقه، ومراحل حياته إلى بلوغ أجله.

١٠- حكمة الله تعالى البالغة في كون بعض بني آدم يتوفى، وهو في بعض أطوار خلقه، ومراحل حياته، وبعضهم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا.

١١- بلوغ كل مخلوق الأجل المسمى له، والمدة التي ينتهي بها عمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، فلا أحد يموت قبل أجله، ولا أحد يتأخر عن أجله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

١٢- أن كل يوم يمر على الإنسان ينقص من عمره؛ لأن عمره معدود له غاية ونهاية؛ مما يوجب على المرء تدارك أيام حياته؛ للاستعداد لما أمامه.

قال الشاعر:

المـــرء يفــرح بالأيـــام يقطعهـــا ... وكـل يـوم مضى يـدني مـن الأجـل[1]

وقال الآخر:

يســـر المـــرء مـــا ذهـــب الليـــالي ... وكـــان ذهـــابهن لـــه ذهـــاب[2]

١٣- في ذكر أصل خلق الإنسان، وأطوار خلقه، ومراحل حياته، تذكير للعباد ليتفكروا ويتأملوا بعقولهم كمال قدرة الله تعالى، ووحدانيته، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى.

١٥- تفرده عز وجل بالإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٦- نفوذ قضائه عز وجل وأمره بقوله للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ دون تأخر، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء من إحياء أو إماتة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٧- إثبات تمام قدرته عز وجل على البعث؛ لأن بيده عز وجل الحياة والموت: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وفي هذا الرد على منكري البعث.

١٨- التعجب من حال المكذبين المجادلين بآيات الله لردها وإبطالها، كيف يصرفون عن الإيمان بها وتصديقها إلى المجادلة بها وتكذيبها؟ أين عقولهم؟ وأين تدبرهم الآيات؟ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

١٩- ينبغي سؤال الله الثبات على الحق، والخوف من صرف القلب عن الهدى:

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» ٥/ ١٠٢، «زهر الآداب» ١/ ٣٦٧.

(٢) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية» ١/ ١٠٢.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

٢٠- تهديد المكذبين بالقرآن، وبما أرسل الله به رسله من الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٢١- شدة عذاب المجادلين في آيات الله، المكذبين بالكتاب، وما أعد لهم من الأغلال في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وسحبهم بين الحميم والنار المسجورة الموقدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٢- تعذيبهم عذابًا معنويًّا لا يقل عن العذاب الحسي، بتوبيخهم وتقريعهم على إشراكهم مع الله آلهة لا تنفعهم ولا تدفع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾.

٢٣- إقرارهم بتخلي هؤلاء الشركاء عنهم أحوج ما كانوا إليهم، وأنهم لم ينفعوهم؛ لقولهم: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾.

٢٤- إنكارهم أنهم كان يدعون من دون الله شيئًا؛ ظنًّا أن ذلك ينفعهم ذلك اليوم؛ لقولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾.

٢٥- إقرارهم ببطلان عبادتهم آلهة من دون الله، وأنها كالعدم لا قيمة لها، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى قولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾.

٢٦- أنه كما أضل الله هؤلاء الكافرين الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم وما ليس بشيء، كذلك يضل الله الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٢٧- أن الكفر سبب الإضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥].

٢٨- إثبات القدر، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة.

٢٩- توبيخ المجادلين بآيات الله، المكذبين بالكتاب وبهدي الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقريعهم، بأن ما حل بهم من العذاب والنكال إنما هو بسبب فرحهم في

الأرض بغير الحق، ومرحهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

٣٠- جواز الفرح بحق؛ كالفرح بحصول الخير والنصر للمسلمين، والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح وبالرزق من أهل وأولاد صالحين، ومال حلال يعفه عن السؤال، ونحو ذلك؛ لمفهوم الآية، بل هو مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤- ٥] وقال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**من سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلك المؤمن**»(١).

٣١- إثبات الأسباب وتأثيرها في المسبَّبات بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

٣٢- إهانة الكافرين وإذلالهم، وتعذيبهم معنويًّا وحسيًّا؛ بأمرهم بدخول أبواب جهنم والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

٣٣- إثبات وجود جهنم، وتعدد أبوابها، وخلود أهلها فيها.

٣٤- أن جهنم بئس المأوى والمسكن للمتكبرين المكذبين لرسل الله تعالى وآياته؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٣٥- التحذير من التكبر عن الانقياد للحق، والتكبر على الخلق؛ لأن ذلك هو سبب المجادلة في آيات الله والتكذيب بها، وتكذيب الرسل، المفضي بصاحبه إلى جهنم وبئس المصير.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٨، والترمذي في الفتن، ما جاء في لزوم الجماعة ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣.

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فيه تأكيد لأهمية الاستعانة بالصبر، وتأكيد لتحقق وعد الله تعالى له ﷺ بالنصر.

والأمر بالصبر يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، أي: فاصبر على دعوة قومك، وما ينالك منهم من التكذيب والأذى.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالنصر والتمكين، وجَعْلِ العاقبة لك في الدنيا والآخرة ﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت واقع، لا مرية فيه، ولا شك؛ لكمال صدقه عز وجل، وتمام قدرته.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: فإما

نرينك في حياتك ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، أي: بعض الذي نتوعدهم به من العذاب والنكال الدنيوي، وهكذا وقع؛ فإن الله أقر عينه بقتل كبرائهم وسادتهم في يوم بدر، وهزيمتهم شر هزيمة، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته صلى الله عيه وسلم.

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: قبل أن نرينك ذلك.

﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾، أي: فإلينا يردون، وسنريك بهم، ونذيقهم ما توعدناهم به من عذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى وأكبر من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ نكّر «رسلًا»: للتكثير، أي: رسلًا كثيرين من قبلك.

﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ «من»: تبعيضية في الموضعين، أي: بعضهم الذين قصصناهم عليك، وأخبرناك خبرهم، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وصبرهم على ما حصل لهم من الأذى، وما انتهى إليه أمرهم: من إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل ونصرهم وأتباعهم، وجعل العاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وبشارة بإهلاك المكذبين له، ونصره عليهم، وجعل العاقبة له وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، وتهديد للمكذبين.

﴿وَمِنۡهُم﴾، أي: وبعض الرسل ﴿مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾، أي: الذين لم نقصصهم عليك ولم نخبرك خبرهم، وهم الأكثر؛ كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ ﴾ [النساء: ١٦٤].

والذين قصهم الله عليه في القرآن وسماهم خمسة وعشرون رسولًا، منهم ثمانية عشر رسولًا مذكورون في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ

كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦].

وسبعة ذكروا في آيات متفرقة، وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ومحمد.

قال الناظم:

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية   من بعد عشر، وبعد سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا[1]

والعرب منهم أربعة: إسماعيل، وشعيب، وصالح، ومحمد، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾، أي: وما كان لرسول من هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله تعالى على كثرتهم.

﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: وما كان لرسول الإتيان بآية، أي: المجيء بآية من الآيات السمعية أو العقلية التي جاؤوا بها.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بأمر الله الكوني ومشيئته.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الكوني بنزول النصر للرسل وأتباعهم المؤمنين، وحلول العذاب على الكافرين.

﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: حكم بالعدل بين الرسل وبين المكذبين، فينجي الله الرسل وأتباعهم، ويهلك المكذبين الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّۖ﴾ [غافر: ٢٠].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: وخسر وقت مجيء أمر الله وقضائه بالحق ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: أهل الباطل وأربابه ودعاته.

---

(١) البيتان للبيجوري. انظر: «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

والباطل: ضد الحق، فإذا قُضيَ بالحق زال الباطل، وإذا جاء الحق زهق الباطل، وإذا زال الباطل وزهق خسر أهله.

وفي هذا تهديد وتحذير للمكذبين له ﷺ من الاستمرار على باطلهم فيخسرون؛ كما خسر المبطلون قبلهم.

وفي الإظهار بقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ دون الإضمار بأن يقول: «وخسروا هنالك» تسجيل عليهم بهذا الوصف، وأنه سبب خسرانهم، وأن كل مبطل فهو خاسر.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، أي: الذي جعل لأجلكم الأنعام وخلقها لكم، وهي: الإبل والبقر والغنم.

﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾، أي: لأجل أن تركبوا منها الذي يُركَب ويُحمَل عليه، وهي الإبل.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: ومنها جميعًا: إبلها وبقرها وغنمها تأكلون لحمًا.

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كثيرة لا تحصى؛ من شرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها؛ في صنع الأثاث والأمتعة، وغير ذلك.

ومن الحرث والسقي على البقر، وعلى الإبل أحيانًا، وغير ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ معطوف على «تركبوا»، أي: ولأجل أن تبلغوا عليها حاجة في صدوركم؛ من حمل الأثقال عليها إلى البلاد البعيدة، والمتاجرة بها، وكونها جمالًا وزينة لكم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٦، ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فالإبل والرواحل تحملكم في البر، والفلك والسفن تحملكم في البحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: ويظهر لكم آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، حتى تروها وتعقلوها.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتحدي والنفي، أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آيات الله؛ لظهورها.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد لما سبق في قوله في أول السورة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقد سبق بيان معاني مفردات هاتين الآيتين في الكلام على الآية الأولى منهما.

وقوله هنا: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، أي: أكثر منهم عددًا وعدة.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله وبأسه.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: الذي كانوا يكسبونه، أو كسبهم، من كثرة العدد والعدة والقوة والآثار، وما جمعوه من الأموال وغير ذلك.

ويحتمل كون «ما» في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ استفهامية، أي: فما الذي أغنى عنهم كسبهم؟ والاستفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمن النفي مع التحدي، أي: أيّ شيء أغنى عنهم

كسبهم لما دمرهم الله وأهلكهم؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: فلما جاءت هؤلاء المكذبين رسلُهم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، الدالة على صدقهم، وصحة ما أرسلوا به.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي: فرح هؤلاء المكذبون بالذي عندهم من العلم، وهو ما هم عليه من التقليد لآبائهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط ونزل وحلّ بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: العذاب الذي كانوا به يسخرون ويكذبون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، أي: فلما أبصروا عذابنا بأعينهم.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، أي: صدقنا بوحدانية الله تعالى إلهًا لا شريك له.

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ هذا تأكيد لما قبله، أي: وكفرنا بكل الذي كنا به مشركين مع الله من الأصنام والأوثان والأنداد، أي: جحدنا ذلك وأنكرناه.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ﴾، أي: فلم يكن ينفعهم إيمانهم حين رأوا بأسنا وشاهدوه؛ لأنه إيمان عن مشاهدة، لا إيمان بالغيب، وإيمان اضطرار لا اختيار؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦۖ﴾ «سنة» مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مفعول

به لفعل محذوف، أي: احذروا سنة الله، أي: طريقته الكونية التي قد مضت في إهلاك المكذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب؛ كما قال تعالى لفرعون لما قال حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقال الله تعالى له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: خسر وقت رؤية بأسنا الكافرون، أي: ظهر حقيقة خسرانهم، حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ لبطلان ما هم عليه وكفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد الأمر له ﷺ بالصبر؛ لأهميته، وتأكيد تحقق وعد الله له بالنصر؛ ليطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢- فضيلة الصبر؛ لأن الله أمر به رسوله ﷺ، وأكد الأمر له بذلك، وهو أمر له ولأمته.

٣- أن وعد الله حق ثابت لا شك فيه؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وفي هذا بشارة له ﷺ ولأمته.

٤- وعد الله عز وجل له ﷺ بالانتقام له وللمؤمنين من المكذبين، إما في حياته في الدنيا، وإما في الآخرة، والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

وقد أراه الله عز وجل فيهم ما شفا صدره والمؤمنين في بدر وغيرها من الغزوات، ولعذاب الآخرة أشق.

٥- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٦- أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، بل الأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ الآية.

٧- أن مرجع الخلائق ومردهم إلى الله تعالى، فيجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

٨- تهديد المكذبين له ﷺ بأنهم لن ينجوا من العذاب، فإن نجوا من عذاب الدنيا فلن ينجوا من عذاب الآخرة.

٩- إخباره ﷺ بكثرة الرسل قبله، وما جرى لهم مع أقوامهم، وصبرهم على ما نالهم من الأذى من أقوامهم، ممن قصهم الله تعالى عليه، وممن لم يقصصهم عليه تسلية له وتثبيتًا لقلبه، وتهديدًا للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

١٠- أن الرسل على كثرتهم فإن كل ما جاؤوا به من الآيات إنما هو بإذن الله عز وجل، وليس لأحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله؛ لأن ذلك إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وفي هذا رد على الذين يكذبون بما جاءت به الرسل من الآيات من عند الله، أو يقترحون عليهم الإتيان بآيات من عند أنفسهم.

١١- إثبات الإذن الكوني لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١٢- التهديد والتحذير للمكذبين المبطلين من مجيء أمر الله بتعذيبهم، والقضاء بالحق بإهلاكهم وخسرانهم، وإنجاء الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

١٣- خسران أهل الباطل عند نزول العذاب وهلاكهم، وربح أهل الحق ونجاتهم.

١٤- الامتنان على العباد بخلق الأنعام لهم؛ لركوبهم، وأكلهم، والانتفاع بمنافعها الكثيرة، وبلوغ حاجات في صدورهم، وحملهم عليها في أسفارهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٥- جواز التمتع بجمال وزينة هذه الأنعام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦].

١٦- نعمة الله تعالى على العباد بتسخير الفلك تحملهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

١٧- الامتنان على العباد بإظهاره آياته الدالة على كمال قدرته، وعظيم خلقه في الأنعام وغيرها، وتحديهم بها؛ مما لا يستطيعون إنكار آية منها إلا على سبيل العناد والمكابرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

١٨- تقرير المشركين المكذبين بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين من قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم: كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بذلك؟ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٩- أن أولئك الأقوام كانوا أكثر من كفار قريش، وأشد منهم قوة وآثارًا في الأرض، فما نفعهم ولا دفع عنهم ما كانوا يكسبون عذاب الله حين نزل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٢٠- أن عذاب الله إذا نزل بقوم لم ينفعهم، ولم يدفعه عنهم شدة قوتهم وما كانوا يكسبونه من المال والعدد والعدة.

٢١- ردهم ما جاءتهم به رسلهم من البينات، وفرحهم بما عندهم من العلم بما ورثوه عن آبائهم من الجهالات والأباطيل التي يحاجون بها لإدحاض الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٢٢- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بما جاءتهم به الرسل من البينات.

٢٣- إحاطة العذاب- الذي كانوا به يسخرون ويكذبون- بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وفي هذا تحذير من مخالفة الرسل وردِّ ما جاؤوا به من البينات.

٢٤- إيمانهم بوحدانية الله تعالى، وبراءتهم من الشرك وأهله حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

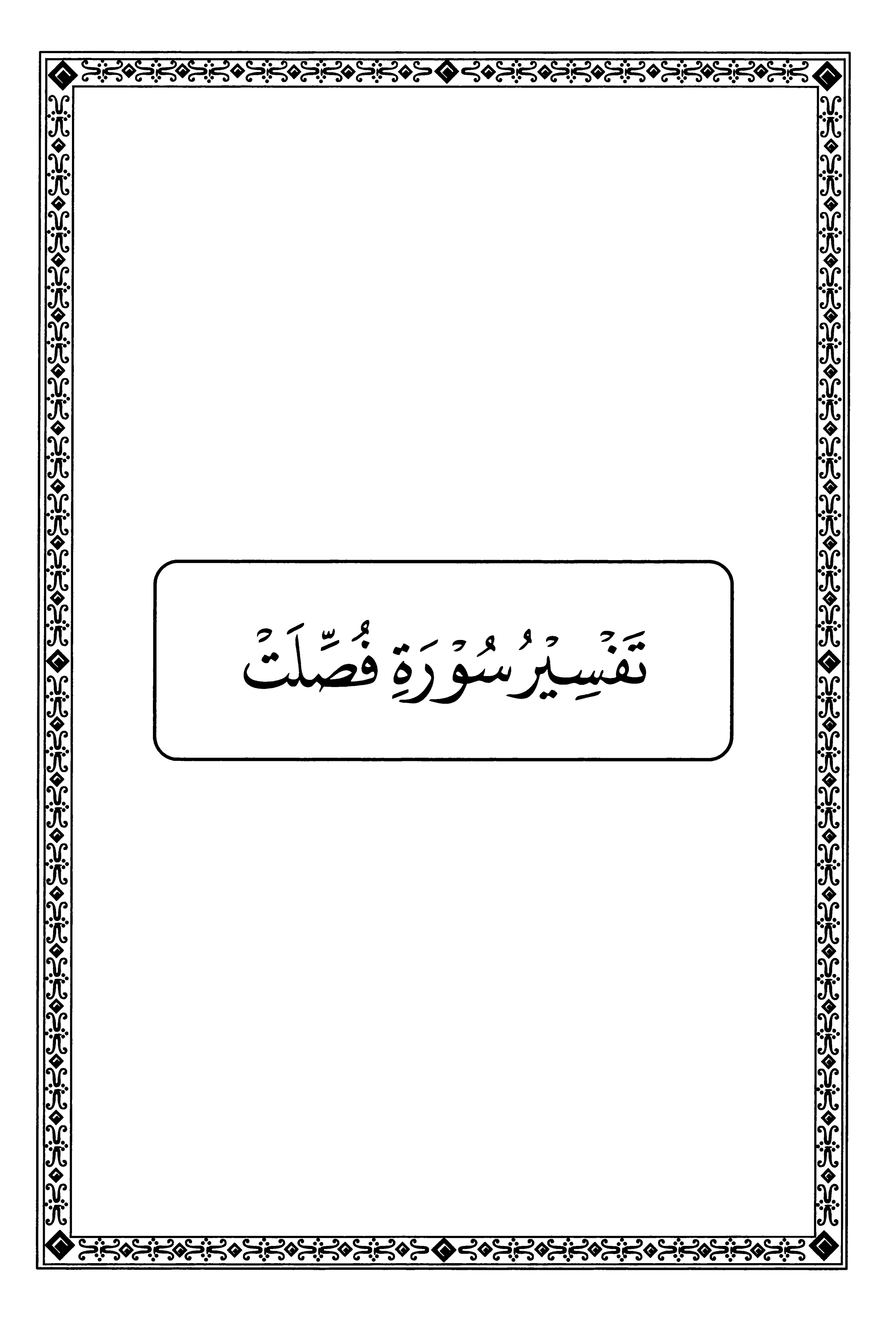
٢٥- أن الإيمان عند مشاهدة العذاب، وفي حالة الاضطرار لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

٢٦- أن سنة الله الكونية الماضية في عباده التي لا تتبدل ولا تتحول: إهلاك المكذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾.

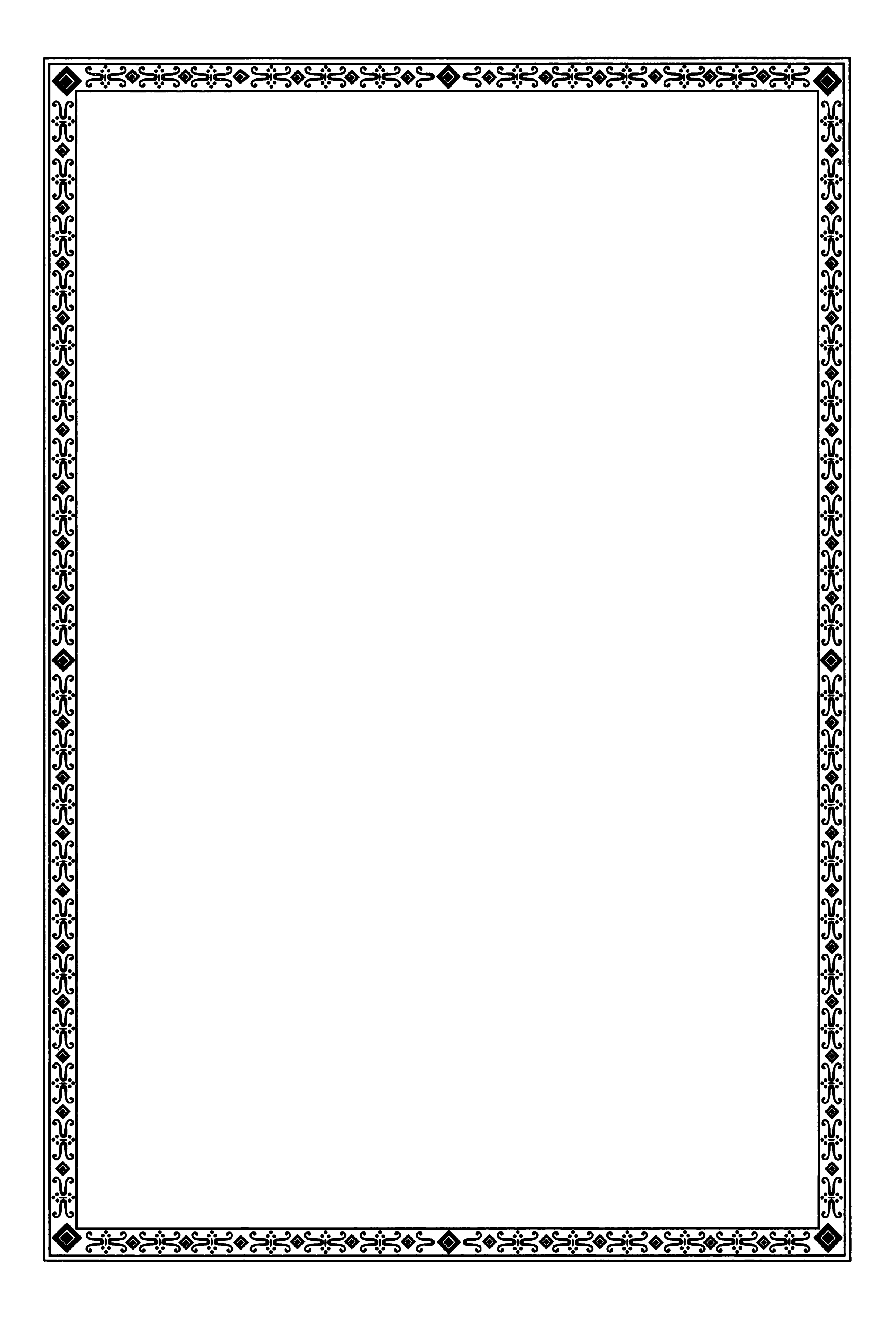
٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي عِبَادِهِۦ﴾.

٢٨- خسارة الكافرين عند حلول العذاب وهم على الكفر خسارة تامة في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة فصلت» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية: ٣].

وتسمى: «سورة حم السجدة»؛ لجمعها بين بدئها بـ «حم» ووجود السجدة فيها دون بقية الحواميم.

وتسمى: «سورة المصابيح»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [الآية: ١٢].

كما تسمى: «سورة الأقوات»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [الآية: ١٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه (**أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «ألم تنزيل»، و«تبارك الذي بيده الملك»**)(١).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت: «سورة فصلت» بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل رحمة للعالمين، وامتداحه بتفصيله وكونه قرآنا عربيا مشتملاً على التبشير والإنذار ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٢- إعراض كثير من المشركين عن القرآن فلا يسمعونه بآذانهم، ولا يتعقلونه بقلوبهم. وتوعدهم بالويل، ووعد المؤمنين بأجر غير ممنون: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، ٢٨٩٢.

فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

٣- الإنكار على المشركين كفرهم بالله تعالى مع كمال ربوبيته، وعظيم خلقه، وواسع ملكه، وتمام تدبيره: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝١٢﴾.

٤- إنذار المعرضين عما جاء به ﷺ من الحق أن يحل بهم من العذاب ما حل بعاد وثمود، بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بما أرسلوا به، وبيان ما أُخذوا به من العقوبات، وإنجاء المؤمنين المتقين ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾.

٥- تهديد ووعيد أعداء الله من الكفرة المكذبين والمشركين بحشرهم إلى النار وشهادة جلودهم عليهم، وما لهم فيها من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ۝٢٤﴾.

٦- تقييضه عز وجل للمشركين قرناء زيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحق عليهم قول الله تعالى في الكفر والخسران والعذاب كالمكذبين قبلهم: ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا

لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٧- وعد الله تعالى العظيم للذين آمنوا بالله واستقاموا على طاعته بتنزل الملائكة عليهم عند الاحتضار وطمأنتهم بأن لا يخافوا ولا يحزنوا، وبشارتهم بالجنة التي كانوا يوعدون، وما لهم فيها من النزل العظيم، وتوليهم إياهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

٨- لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين.

٩- بيان عدم استواء الحسنة والسيئة، والحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

١٠- بيان عظيم آيات الله تعالى الكونية الدالة على وجوب عبادته تعالى وحده، وتمام قدرته على البعث: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

١١- تهديد ووعيد الملحدين بآيات الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

١٢- ذم الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، وامتداحه والثناء عليه، وتمام حفظه عز وجل له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢)﴾.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن ما يقال له من التكذيب قد قاله المكذبون للرسل من قبله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ (٤٣)﴾.

١٤ - إقامة الحجة على المشركين بكون القرآن عربيًا: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ (٤٤)﴾.

١٥ - التذكير برسالة موسى عليه السلام وإيتائه الكتاب واختلاف قومه وتشكيكهم وارتيابهم فيه وتهديدهم.

١٦ - تمام عدل الله تعالى فمن عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٤٦)﴾.

١٧- اختصاصه عز وجل بعلم الساعة، وإحاطة علمه بكل ما تخرجه الثمرات من أكمامها وما تحمل حق أنثى ولا تضع إلا بعلمه.

١٨ - توبيخ المشركين يوم القيامة بندائه تعالى إياهم ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ (٤٧) وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ (٤٨)﴾.

١٩- بيان أن من طبيعة الإنسان أنه لا يسأم من طلب الخير، وإن مسه الشر أيس وقنط ولئن أذاقه الله رحمة منه بعد ضراء مسته قال هذا لي، وإنكاره الساعة، وإدلاله على الله، وإعراضه عند النعمة، ودعائه العريض إذا مسه الشر، وتهديده عز وجل الكافرين بالعذاب الغليظ: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ (٤٩) وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

٢٠- إثبات أن القرآن من عند الله حقًا، ووعيد وتهديد الكافرين به، وبيان إغراقهم بالضلال والشقاق البعيد، والشك في لقاء ربهم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ سبق الكلام عليه.

﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأ، وخبره: «كتاب»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا القرآن تنزيل، ونُكِّر للتعظيم.

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أي: من عند الرحمن الرحيم، وفي هذا إشارة إلى أن تنزيله بمقتضى رحمته عز وجل، رحمة منه بعباده، بل هو أجل رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُكِّر «كتاب» للتعظيم، أي: كتاب عظيم ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ تفصيلًا لفظيًّا؛ بأن جعلت كل آية مستقلة عن الأخرى، مفصولًا بعضها عن بعض، وتفصيلًا معنويًّا ببيان معاني آياته وإيضاحها، وما فيها من الحكم والأحكام؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال، ونُكِّر «قرآنًا»: للتعظيم، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا بأعظم اللغات وأفصحها وأوسعها ألفاظًا ومعانيَ؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وصدق حافظ إبراهيم في قوله على لسان اللغة العربية[1]:

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظات

﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون ويفهمون معناه، وهم العرب، وينتفعون بعلمهم، فيعملون بالقرآن، فيكون حجة لهم لا حجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: صفة ثانية لـ«قرآنًا»، أو حال، أي: حال كونه بشيرًا ونذيرًا.

أي: بشيرًا للمؤمنين بما يسرهم من الثواب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، ببيان ما أعد الله لمن اتبعه من الحياة الطيبة والجزاء العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: ونذيرًا للكافرين، أي: محذرًا لهم من العقاب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وبين قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: طباق، وقدم البشارة على الإنذار؛ لأن رحمة الله تغلب غضبه.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾، أي: فأعرض أكثر أهل مكة، وأكثر الخلق، أي: انصرفوا عن القرآن.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٣.

﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، أي: لا يسمعون سماع فهم وانتفاع وقبول وإجابة؛ بسبب إعراضهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، أي: وقال هؤلاء المعرضون، من شدة عنادهم وكفرهم:

﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾، أي: في أغطية، وفي أغلفة مغشاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾، أي: مانعة من فهم الذي تدعونا إليه يا محمد؛ من توحيد الله تعالى وتصديقك، وتصديق القرآن.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، أي: صمم وثقل، فلا نسمعه.

﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾، أي: حاجز وساتر وحائل يحول بيننا وبينك فلا نراك، وهذا مبالغة منهم في عدم قبول ما يدعوهم إليه؛ لأنه إذا انسد طريق السمع، وطريق البصر، وهما طريقا وصول المعرفة والعلم والهدى إلى القلب، صار القلب مغلقًا لا ينفذ إليه هدى؛ ولهذا قالوا قبل هذا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾؛ لأنهم أصموا أسماعهم عن سماعه، وتعاموا بأبصارهم عن رؤيته.

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾، أي: فاعمل أنت على دينك وشاكلتك، ونحن نعمل على ديننا وشاكلتنا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقد يُشعر قولهم هذا بالتحدي له ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

قوله: ﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين وغيرهم:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾: للتوكيد، أي: ما أنا إلا بشر مثلكم، ولست بملك، وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به.

والبشر: هم بنو آدم، وسموا بذلك؛ لظهور بشرتهم عارية غير مكسوة؛ بخلاف

الحيوانات الأخرى، فهي مكسوة إما بالوبر، أو بالصوف، أو بالشعر، أو بالريش، أو بغير ذلك.

ولعل الحكمة في هذا: ليعلم الإنسان أنه كما أنه محتاج إلى اللباس الحسي، فهو أعظم حاجة منه إلى اللباس المعنوي لباس التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«بشر»، أي: خصني الله وفضلني عليكم بوحيه إليَّ.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ مصدر مؤول في محل رفع نائب فاعل للفعل «يوحى»، أي: أنما يوحي إليّ وحدانية إلهكم.

والإيحاء: هو الإعلام بسرعة وخفاء، والوحي: ما ينزله الله تعالى من كلامه وشرعه على رسله.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستقيموا على دينه علمًا وعملًا، واقصدوا إليه، وأخلصوا له، ودوموا على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لما أمر بالاستقامة، أتبع ذلك بالأمر بالاستغفار؛ لأن العبد مهما حرص على الاستقامة، فلا بد أن يحصل منه خلل؛ بتقصير بمأمور، أو ارتكاب لمحظور، وقد قال ﷺ: «**استقيموا، ولن تحصوا**»(٢).

وقد قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه(١)

والمعنى: واطلبوا منه عز وجل المغفرة لذنوبكم وما يقع منكم من خلل أو تقصير؛ بستره والتجاوز عنه.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: ويل وهلاك وعذاب للمشركين بالله؛ لعدم استقامتهم على أمر الله، ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان، وتطهيرها من الشرك، ولا يزكون أموالهم بالصدقة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النازعات: ١٧، ١٨].

وقال ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها**»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله»(٣).

قال ابن القيم: «أي: لا يأتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان؛ ولهذا فسرها غير واحد من السلف بأن قالوا: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: لا يقولون: لا إله إلا الله. فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية جاءت بها الرسل، ودعوا إليها الأمم».

وقال أيضًا: «وقال كثير من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب،

---

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص٩٣، «زهر الآداب» ١/ ٥٥، «نهاية الأرب» ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٥.

وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي- وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة- فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد».

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة والمعاد والحساب والجزاء.

﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ «هم»: تأكيد للأول، أي: هم جاحدون للآخرة، غير مؤمنين بها؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

لما توعد المشركين أتبع بوعد المؤمنين؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بالقرآن، وبكل ما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات القائمة على الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ بجوارحهم.

﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ﴾، أي: لهم خاصة أجر عظيم، وهو ثواب وجزاء إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، أي: غير مقطوع ولا ممنوع؛ كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦٢]، أي: في جميع الأوقات.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وتحدي العرب به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ١﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات نزوله من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

٤- الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الذاتية له عز وجل، والرحمة الفعلية؛ العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٦- أن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»؛ لهذا قدم عليه.

٧- الامتنان على العباد بإنزال القرآن، وأن ذلك من رحمته بهم، بل هو أجل رحمته.

٨- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾.

٩- الامتنان على العباد بتفصيل آيات القرآن وبيانها، وكونه بلغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

١٠- أنه إنما يستفيد من إنزال القرآن، وتفصيل آياته، وكونه عربيًّا: أهل العلم الذين ينتفعون بعلمهم، ويهتدون به إلى الحق، دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- فضل العلم؛ لأنه هو سبب معرفة الحق، والاهتداء إليه بتوفيق الله، وفضيلة أهله المنتفعين به.

١٢- تضمن القرآن الكريم البشارة للمؤمنين الذين يصدقون به ويتبعونه، والنذارة للكافرين الذين يكذبون به ويخالفونه؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

١٣- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لتقديم البشارة في الآية على الإنذار.

١٤- إعراض كثير من قريش وكثير من الخلق عن القرآن، وانصرافهم عنه، وعدم سماعهم له سماع فهم وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٥- شدة عتو وعناد المشركين، وإغلاقهم قلوبهم، وصمهم آذانهم، وحجبهم أبصارهم عما يدعوهم إليه ﷺ، والقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

١٦- أن السمع والبصر هما طريقا وصول العلم والمعرفة إلى القلب، فإذا انسد هذان الطريقان لم يصل الهدى إلى القلب.

١٧- شدة تشبثهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال؛ لقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

١٨- بيان أنما هو ﷺ بشر مثلهم، يعتريه غالبًا ما يعتري البشر، فليس بملك، ولا بيده من الأمر شيء، ولا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

١٩- أن ما خصه الله تعالى به دونهم، وفضله به عليهم هو الوحي إليه؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٢٠- إثبات رسالته ﷺ بوحي الله تعالى إليه.

٢١- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأن ذلك أهم وأعظم ما جاءت به الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

٢٢- وجوب الاستقامة على دين الله علمًا وعملًا، والإخلاص له، والدوام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

٢٣- أن من امتثل أمر الله، واجتنب نهيه، وأخلص له العبادة والطاعة، فالأولى أن يوصف بكونه «مستقيمًا»، لا «ملتزمًا» كما درج على ألسنة كثير من الناس.

٢٤- وجوب سؤال الله مغفرة الذنوب والتوبة منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾.

٢٥- أن العبد مهما حرص على الاستقامة على أمر الله فإنه لا يخلو من نقص وتقصير، ولهذا أمر بالاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾.

٢٦- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للمشركين بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٢٧- ذم المشركين، وبيان سبب توعدهم بالعذاب، وهو عدم تزكيتهم لأنفسهم بالتوحيد، وعدم تطهيرها من الشرك، بالإيمان بالله، والإخلاص له، والاستقامة على أمره، وعدم تزكيتهم أموالهم بالصدقة، وكفرهم بالآخرة، وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾.

٢٨- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٢٩- وعد الله تعالى للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بالأجر والثواب العظيم الذي لا انقطاع له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

٣٠- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٣١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والأعمال الصالحة بالجوارح.

٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.

٣٣- ضمانه عز وجل لثواب أهل الجنة وجزائهم؛ لهذا سماه أجرًا.

٣٤- أن نعيم الجنة لا يفنى ولا ينقطع.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

بعدما ذكر إعراض المشركين عن القرآن، وما فيه من البشارة والنذارة، وعن الآيات الشرعية، أتبع ذلك بذكر كفرهم بالله، وعدم تأملهم في الآيات الكونية، وإنكار ذلك عليهم.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره؛ منكرًا عليهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، واللام: للتوكيد، أي: أئنكم أيها المشركون لتكفرون بالخالق العظيم، الذي خلق الأرض في يومين، والذي خلق الأشياء كلها؟ أي: تجحدون إلهيته وتنكرونها، وتستكبرون عن عبادته؟

وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أي: أوجد السبع الأرضين على عظمتها وسعتها في يومين. وبدأ بخلق الأرض؛ لأنها كالأساس.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: وتصيرون له شركاء ونظراء وأمثالًا تعبدونهم من دونه، لا يخلقون شيئًا، بل هم مخلوقون لله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الذي خلق الأرض في يومين، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له عز وجل، أي: ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو سبحانه.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم: خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم.

و«العالمين»: كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: وجعل في الأرض، أي: أوجد فيها ﴿رَوَٰسِىَ﴾، أي: جبالًا ثوابت.

﴿مِن فَوْقِهَا﴾ تشاهد منتصبة فوق الأرض، لها فوائد عظيمة، ولها أصول ثابتة في عمق الأرض، قد تزيد على ما يشاهد منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾، أي: جعلها كثيرة البركات والخيرات، من الزروع والأشجار والثمار والمياه والمعادن، وغير ذلك، مما لا يحصى من بركاتها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، أي: وقدر وقسم في الأرض أقواتها، أي: أرزاق أهلها، وما يقتاتون به ويعتاشون عليه هم وأنعامهم، أي: قدر ذلك وحدده من حيث النوع والكمية والكيفية والمكان والزمان، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تامة: يومان لخلق الأرض، ويومان لجعل الرواسي فيها من فوقها، والمباركة فيها، وتقدير أقواتها.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قرأ أبو جعفر: «سَوَاءٌ» بالرفع، وقرأ يعقوب: «سَوَاءٍ» بالخفض، وقرأ الباقون: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب.

أي: في أربعة أيام كاملة مستوية، بلا زيادة ولا نقصان، لمن أراد السؤال عن ذلك.

أو سواء للسائلين، أي: تقديرًا على وفق مصالح طالبي الحاجات من الرزق ونحوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ثم بعد أن خلق الأرض قصد إلى خلق السماء.

فخَلْق السماء كان بعد خلق الأرض.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: الجملة حالية، أي: وهي بخار مرتفع تصاعد من الماء الذي كان قبل أن تخلق الأرض.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾، أي: استجيبا وانقادا لأمري وإلى مرادي منكما.

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: طائعتين أو مكرهتين.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، أي: جئنا طائعين، أي: طائعين لأمرك، مستجيبين له عن طواعية لا إكراه.

وجمع «طائعين» باعتبار جمع سبع السموات وسبع الأرضين.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، أي: خلقهن وأوجدهن، وفرغ من تسويتهن سبع سموات ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ آخرين.

فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٥٤].

وقد خلق عز وجل الأرض أولًا في يومين؛ لأنها كالأساس، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين؛ لأنها سقف المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأما دحو الأرض بإخراج مائها ومرعاها، وترسيتها بالجبال فهو بعد خلق السماء؛ كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٢٧- ٣٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة

أيام، وخلقت السموات في يومين»(١).

وبهذا الجمع بين الآيات يتبين أن المراد بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ١٠]: أن مجموع أيام خلق الأرض وما يتعلق بها هو أربعة أيام.

وليس المراد: أن يومي ترسيتها بالجبال والمباركة فيها وتقدير أقواتها جاءا بعد يومي خلقها.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: وأوحى في كل سماء شأنها الخاص بها، وبأحوال أهلها.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، أي: وجملنا السماء الدنيا، أي: القربى إلى الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، أي: بنجوم وكواكب مشرقة مضيئة يستنار بها ويهتدى، وزينة وجمالًا للسماء ظاهرًا.

﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وجعلنا هذه المصابيح حفظًا من استراق الشياطين السمع بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٦-٩].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المذكور من خلق الأرض وما فيها، والسماء وما فيها.

﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، أي: تقدير وخلق وتدبير ذي العزة التامة، الذي قهر بعزته الأشياء كلها، وخلق بها المخلوقات ودبرها.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾، أي: ذي العلم الواسع، المحيط بجميع المخلوقات.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في تفسير سورة حم السجدة، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «فتح الباري» ص٨/ ٥٥٥.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

بعدما ذكَّرهم بالآيات الشرعية والكونية، وذكر إعراضهم عنها وكفرهم، أتبع ذلك بتهديدهم- إن استمروا في إعراضهم- بعقوبات مَن قبلهم.

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾، أي: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان بالله، والانقياد لأمره، والتأمل في آياته الشرعية والكونية، واستمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر.

﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فقل لهم يا محمد: خوفتكم وحذرتكم ﴿صَٰعِقَةً﴾، أي: عقوبة شديدة تصعقكم، أي: تهلككم، ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾: وهم قوم هود عليه السلام الذين أهلكوا بالريح العقيم.

﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف على «عاد»، أي: ومثل صاعقة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين أهلكوا بالصيحة. وتخصيص عاد وثمود بالذكر بين الأمم المهلكة؛ لأنهم في الجزيرة، وآثارهم معلومة عند العرب، ولشدة عقاب الله لهم.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين جاءتهم الرسل، وجمع الضمير في قوله: ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ باعتبار مجموع أفراد عاد وثمود، وجمع «الرسل» باعتبار أن هودًا وصالحًا جاءا بما جاء به المرسلون قبلهم وبعدهم؛ كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١] وهم إنما كذبوا هودًا وصالحًا، ولكن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين.

﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، أي: يتبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم واحدة، فهود وصالح جاءا بما جاءت به الرسل قبلهم من الدعوة إلى الله، والتذكير بآياته الكونية والشرعية، المبينة للحق أتم بيان؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ «أن»: يحتمل أن تكون مصدرية، أي: بألا تعبدوا إلا الله، أي: إذ جاءتهم الرسل بعدم عبادة غير الله. وتكون «لا» على هذا نافية.

ويحتمل أن تكون «أن» تفسيرية، أي: إذ جاءتهم الرسل قائلين لهم: لا تعبدوا إلا الله، وتكون «لا» على هذا ناهية.

وهذا معنى: لا إله إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، أي: فردوا رسالتهم وقالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لو شاء ربنا ألا نعبد إلا إياه لأنزل رسلًا من الملائكة، وهكذا قال كفار مكة كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: ٨].

وهذه حجة باطلة؛ لأن المرسل إليهم بشر، فكيف ينزل الله ملائكة على بشر؟ ولو فرض أن الله أنزل ملكًا لجعله بصورة بشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩].

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، أي: فبسبب أنكم لم تكونوا ملائكة فإنا بما أرسلتم به ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: مكذبون به، جاحدون له؛ لأنكم بشر مثلنا؛ كما في قولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥﴾ [يس: ١٥].

وقولهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هذا على سبيل التنزل، لا على سبيل الإقرار؛ لأنهم لا يصدقون بأنهم رسل، وهو متعلق بالخبر: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لإفادة الحصر، مع

مراعاة الفواصل.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية:

لما ذكر عن عاد وثمود ما اشتركا فيه من المكابرة والإصرار على الكفر، فصَّل هنا ما اختصت به كل أمة منهما من صور الكفر، وما حل بهما من العذاب.

قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، والسين والتاء للمبالغة، أي: تكبروا تكبرًا عظيمًا عن قبول الحق، وتعالوا على الخلق، وبغوا وطغوا وتجبروا في الأرض.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: حال من فاعل «استكبروا»، وفيه زيادة تشنيع عليهم لاستكبارهم؛ لأن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا، لأن الكبر من خصائص الله تعالى، قال تعالى في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**»(١).

وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

﴿وَقَالُواْ﴾: معطوف على «استكبروا»، أي: وقالوا من شدة استكبارهم، مغترين بقوة تركيبهم، وشدة قواهم، معتقدين أنهم يمتنعون بها من بأس الله.

﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ «من»: اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أشد منا قوة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ الاستفهام: للتقريع والإنكار والتقرير، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وأوجدهم من العدم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؟ فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا لم يغتروا بقوتهم.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معطوف على «استكبروا»، أي: وكانوا بآياتنا الدالة على وحدانية الله تعالى، والمذكرة لهم بنعم الله تعالى عليهم، والمحذرة لهم من عذاب الله؛ كقول هود عليه

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠.

السلام لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

﴿يَجْحَدُونَ﴾، أي: يكفرون بها ويكذبونها وينكرونها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فسخرنا وسلطنا عليهم ﴿رِيحًا﴾، نُكِّرت للتعظيم، أي: ريحًا عظيمة عاتية.

﴿صَرْصَرًا﴾، أي: شديدة البرد، شديدة الصوت؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وهي الريح العقيم، وهي الدبور؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢]. وقال ﷺ: «**نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(١).

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بكسر الحاء: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾، وقرأ الباقون بإسكانها: «نَحْسَاتٍ»، أي: مشؤومات.

وهذا على سبيل الإخبار عنهن لا على سبيل السب لهن، وهن ثمانية أيام، وسبع ليال متتابعات، ابتدأت بفجر اليوم الأول، وانتهت بغروب شمس اليوم الثامن؛ كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ

---

(١) سبق تخريجه.

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عذاب الهون والذل في الحياة الدنيا، أي: العذاب الذي يذلهم ويهينهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فاجتمع عليهم مع العذاب الحسي بالتدمير والإهلاك، العذاب المعنوي بالخزي الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿أَخْزَىٰ﴾، أي: أشد خزيًا من خزي عذاب الدنيا؛ لأن عذاب الآخرة على رؤوس الخلائق ومشهدهم كلهم، وهو أشد من عذاب الدنيا وأبقى وأكبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله، أو يرفعه عنهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم؛ كما كانوا يعتدُّون بشدتهم وقوتهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، أي: أرشدناهم إلى طريق الحق والهدى، ودللناهم عليه، وبيَّناه لهم بيانًا ظاهرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

أي: آية مبصرة بيّنة واضحة على صدق صالح عليه السلام، وصحة ما جاءهم به.

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: فاختاروا الجهل والكفر والضلال ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: على العلم والإيمان، وكذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وخالفوه، وعقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، أي: فأصابتهم وأهلكتهم صاعقة العذاب المهين المذل لهم، وهي الصيحة الشديدة التي رجفت بهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم من اختيار الجهل والكفر والضلال على العلم والإيمان والهدى- مع ما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ من عاد وثمود، أي: خلصناهم من العذاب بسبب إيمانهم بقلوبهم، وتقوى الله بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين كفرهم بالخالق العظيم رب العالمين، الذي خلق الأرض وما فيها، والسماء وما عليها، وجعْلهم له أندادًا لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ الآيات.

٢- أن الله تعالى خلق الأرض في يومين؛ لقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

٣- تحريم الشرك واتخاذ الأنداد مع الله؛ لأن الله أنكر ذلك على المشركين، ودلل على امتناع الند له عز وجل بكونه سبحانه هو رب العالمين.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع العالمين؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾.

٥- أن الله عز وجل جعل في الأرض رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فيكون خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- الامتنان على العباد بخلق الأرض، وترسيتها بالجبال حتى لا تميد بهم، ونشر البركة والخير فيها، وتقدير أقواتها حسب حاجاتهم ومصالحهم.

٧- التنبيه والتذكير بنعمة الله تعالى بترسية الأرض بالجبال من فوقها؛ لما في ذلك من الفوائد العظيمة من حفظ توازن الأرض، ومن كونها أعلامًا يُهتدى بها، ودرئها العواصف، ووجود المغارات والملاجئ فيها، وانحدار السيول من سفوحها وقممها وخدودها بشدة إلى الرياض الخصبة المنبتة، وما جعل الله تعالى في قممها من أنواع

المعادن الجيدة، وغير ذلك.

٨- أن كل شيء عند الله عز وجل بمقدار من الأقوات والأرزاق وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

٩- أن خلق السماء بعد خلق الأرض، وكانت دخانًا قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، أي: قصد وعمد إلى خلقها؛ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

١٠- أمره عز وجل للسماء والأرض بالإتيان طوعًا أو كرها، وانقيادهما لأمره، وإتيانهما طائعتين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

١١- انقياد جميع المخلوقات وتسليمها التام لأمر الله تعالى الكوني.

١٢- أن الله عز وجل خلق السموات السبع، وفرغ منها في يومين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

١٣- أن خلق السموات والأرض وما فيهما كان في ستة أيام، وفي ذلك دلالة على كمال وعموم ربوبيته، وتمام قدرته تعالى وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٤- إيحاؤه عز وجل في كل سماء أمرها وشأنها، وما تحتاجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

١٥- تزيينه السماء الدنيا بنجوم وكواكب مضيئة على أهل الأرض، وحرسًا لها من استراق الشياطين السمع من الملأ الأعلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

١٦- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة خلقه وتقديره وإتقانه، وكمال عزته، وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العزيز» و«العليم»، وصفتي:

العزة والعلم التامتين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

١٨- في اقتران اسميه العزيز والعليم، وصفتي «العزة» و«العلم» في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٩- إنذار المعرضين عن الإيمان، وعن الانقياد لأمر الله تعالى، وعن التأمل في آياته، وتحذيرهم من عقوبات المكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾.

٢٠- ينبغي التأمل فيما حل بالمكذبين من العقوبات بسبب إعراضهم وتكذيبهم، والحذر من ذلك، والسعيد من وعظ بغيره.

٢١- أن من أشد عقوبات المكذبين ما حل بـ«عاد وثمود» من قبائل الجزيرة.

٢٢- إقامة الحجة على عاد وثمود بمجيء الرسل إليهم، من بين أيديهم ومن خلفهم، يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾.

٢٣- تكذيبهم وكفرهم بما جاءتهم به رسلهم بحجة أنهم بشر، وليسوا بملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإقرار الكفار بها، وبربوبية الله تعالى لهم ربوبية عامة؛ لقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾.

٢٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه، وإثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾.

٢٦- استكبار عاد في الأرض بغير الحق، واغترارهم بقوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾.

٢٧- أن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا؛ لأن الكبر من خصائص الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

٢٨- الإنكار عليهم وتقريعهم في زعمهم أنه لا أحد أشد منهم قوة، وتقريرهم بأن الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ

يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

٢٩- كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بها، وإنكارهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، فجمعوا بين الاستكبار والتكذيب.

٣٠- إهلاكهم بالريح الصرصر العاتية، شديدة البرد، شديدة الصوت؛ تعذيبًا لهم، وخزيًا في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣١- جواز نسبة النحس إلى الأيام على سبيل الإخبار، لا على سبيل السب والشؤم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾.

قال ابن القيم: «فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أيامًا نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين، فهي نحس على المكذبين، سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة؛ فإنه عسير على الكافرين، يوم نحس لهم، يسير على المؤمنين، يوم سعد لهم»[1].

٣٢- الجمع للمكذبين من عاد بين العذاب الحسي المهلك، وبين العذاب المعنوي المخزي المذل المهين في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣٣- الجمع لهم ولغيرهم من المكذبين بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشد وأخزى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾.

٣٤- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الثواب والعذاب.

٣٥- أنه لا ناصر لهم لا من أنفسهم، ولا من غيرهم، يدفع عنهم عذاب الله أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

٣٦- إقامة الحجة على ثمود بدلالتهم وإرشادهم إلى الحق، وإيتائهم الناقة آية مبصرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾.

٣٧- اختيارهم العمى والجهل، والكفر والضلال، على العلم والإيمان والهدى؛

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٦.

لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

٣٨- أن من كتب عليه الضلال فلن يهتديَ مهما بُيِّن له الحق وأرشد إليه.

٣٩- أن هداية الدلالة والإرشاد عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.

٤٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبرًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٤١- إهلاك ثمود بصاعقة العذاب الهون، وهي صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم، وأذلتهم، وأهانتهم، فاجتمع لهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، مع ما ينتظرهم كنظرائهم عاد وغيرهم من المكذبين من عذاب الآخرة، الذي هو أشد وأكبر إيلامًا، وأعظم خزيًا وهوانًا.

٤٢- التحذير من إيثار العمى على الهدى، وأن ذلك سبب للعقوبة العاجلة.

٤٣- إثبات الأسباب، وأن ما حل بهؤلاء المكذبين بسبب كسبهم، وهو اختيارهم الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

٤٤- إنجاء المؤمنين المتقين من العذاب؛ لإيمانهم وتقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝١٨﴾.

٤٥- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، وتقوى الله بعمل الجوارح.

٤٦- فضيلة الإيمان والتقوى والترغيب فيهما؛ لأنهما سببا النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

٤٧- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث أهلك المكذبين، وأنجى المؤمنين المتقين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ قرأ نافع ويعقوب بالنون وفتحها، وضم الشين: «نَحْشُرُ»، ونصب: «أَعْدَاءَ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها، وفتح الشين: ﴿يُحْشَرُ﴾، ورفع: ﴿أَعْدَآءُ﴾.

و«يوم»: متعلق بفعل محذوف، أي: اذكر لهؤلاء المكذبين وغيرهم يوم يحشر أعداء الله، أي: يوم يجمعون ويساقون إلى النار.

وأعداء الله هم الكفار؛ كما أن أولياءه هم المؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، أي: يرد أولهم على آخرهم ويساقون إلى النار سوقًا عنيفًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: حتى إذا جاؤوها ووردوها ووصلوها.

﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم من الكفر والشرك والمعاصي، وهم ينكرون ذلك؛ كما في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فتشهد عليهم أسماعهم بما سمعت من الباطل، وتشهد عليهم أبصارهم بما أبصرت من ذلك، وتشهد عليهم جلودهم بما مست.

وقوله: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الجلود تحوي جميع الأعضاء والجوارح والحواس، فشهادتها عليهم بمثابة شهادة جميع أعضائهم.

فذَكَر السمع والبصر من بينها؛ لأن أكثر الذنوب تقع بسببها، وذَكَر الجلود؛ لأنها تعم جميع الجوارح.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ الاستفهام: للتوبيخ واللوم والعتاب، أي: لاموا جلودهم وعاتبوها: لم شهدتم علينا، ونحن نداف عنكم؟ وخصوا الجلود؛ لأن لومها لوم لجميع الأعضاء.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قالت الجلود وغيرها من الأعضاء: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ بالشهادة عليكم، ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ﴾ بقدرته التامة، ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ فلا يستعصي عليه شيء، ولا يخرج عن إرادته وتقديره شيء.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، أي: وهو لكمال قدرته أوجدكم من العدم أول مرة، وبقدرته أنطقنا، وبقدرته يبعثكم خلقًا جديدًا؛ ولهذا قالوا:

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: تُردون خلقًا جديدًا للحساب والجزاء على أعمالكم.

والتعبير بالمضارع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ لاستحضار حالتهم ووقوفهم بين يدي الله، وما

ينتظرهم من العذاب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من كلام الله تعالى، وليس من تتمة كلام الجلود.

أي: أنه عز وجل لما ذكر حشرهم وجمعهم يوم القيامة دلل عليهم بالخلق الأول، فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾»[1].

قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي، ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ «أن» والفعل «يشهد» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله بحذف مضاف، أي: مخافة أن يشهد، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن يشهد، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين.

أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي خوفًا من أن يشهد عليكم بذلك سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم؛ لأن هذه الجوارح لا انفكاك لكم عنها، ولأنكم لم توقنوا بالبعث، ولم يطرأ على بالكم أن هذه الجوارح ستشهد عليكم يومًا من الأيام.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «لكن»: حرف استدراك لا عمل له، والمصدر المؤول: «أن الله لا يعلم» في محل نصب سد مسد مفعولي «ظننتم»، أي: ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ ٤٨١٧، ومسلم في صفات المنافقين ٢٧٧٥، والترمذي في تفسير سورة حم السجدة ٣٢٤٨، وأحمد ١/ ٣٨١، ٤٠٨.

ظننتم بارتكابكم الكفر والمعاصي، واستتاركم عن الخلق.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أن الله لا يعلم كثيرًا من الذي تعملونه، أو من عملكم، وأنكم تستطيعون الاستتار عنه كما استترتم عن الخلق.

وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ ولهذا قال:

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ﴾ السيئ الفاسد ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ مما لا يليق بجلاله، وهو اعتقادكم الباطل أنه لا يعلم كثيرًا مما تعلمون، ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾، أي: أهلككم.

﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أي: فصرتم بسبب هذا الظن السيئ من الخاسرين، الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ على العذاب ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، أي: مأوى ومسكن لهم، لا مفر لهم منها، ولا محيد لهم عنها، أي: فليس لهم إلا النار صبروا أو لم يصبروا، وهذا من باب التيئيس لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾، أي: وإن يطلبوا ويسألوا العتبى، وقبول عذرهم، والرضا عنهم، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، أي: فما هم من المجابين إلى ما طلبوا من قبول عذرهم، وإزالة عتبنا عليهم والرضا عنهم؛ لفوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

قال ابن القيم: «أي: وإن يطلبوا إعتابنا، وهو إزالة عتبنا عليهم، فما هم من المزال

عنهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم»(١).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾، أي: وهيأنا وقدرنا لهؤلاء المشركين المكذبين، وسلطنا عليهم ﴿قُرَنَآءَ﴾، أي: أصحاب سوء ملازمين لهم من شياطين الإنس والجن، فشياطين الإنس من دعاة الكفر والضلال يتولونهم في الظاهر، وشياطين الجن يتولونهم في الباطن بالوسوسة ونحو ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾، أي: فحسنوا لهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: الذي بين أيديهم مما ليس بحسن، مما هم عليه من الكفر والشرك والمعاصي، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: وحسنوا لهم الذي أمامهم، من الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والشرك في المستقبل.

أو: فحسنوا لهم الذي بين أيديهم من زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها وشهواتها الفانية، فانشغلوا بها عما خلقوا له، وحسنوا لهم الذي أمامهم من أمر الآخرة بأن قالوا لهم: لا بعث ولا حساب، أو: أنه إن كان ثَمَّةَ بعث فسيكون حالهم أحسن من غيرهم؛ كقول بعضهم: ﴿هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وكقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٧.

[الكهف: ٣٦].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: وجب عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، ووجبت عليهم كلمة العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال الظالمون وهم في دركات الجحيم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات: ٣١].

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي: في جملة أمم قد مضت من قبلهم، من الجن والإنس، ممن زينت لهم الشياطين أعمالهم، فحق عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، وحقت عليهم كلمة العذاب فأهلكوا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى مخاطبًا الشيطان: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، أي: استووا هم وإياهم في الخسران؛ حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: لا تصغوا إليه، ولا تنصتوا له، ولا تنقادوا له.

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه عند قراءته؛ من اللغط والصياح والجلبة وغير ذلك؛ لتحولوا بين الناس وبين سماعه، ولتخلطوا على القارئ قراءته سواء كان النبي ﷺ أو غيره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، أي: لأجل أن تكون لكم الغلبة بالحيلولة دون سماع القرآن،

والتشويش على من يقرؤه.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الفاء: استئنافية، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: فوالله لنذيقن الذين كفروا.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولنذيقنهم، لذكر علة إذاقتهم العذاب وهو الكفر، ولتسجيله عليهم، وليعمهم هذا الوعيد وغيرهم من الكفار، أي: ولنعذبن الذين كفروا عذابًا شديدًا، أي: قويًّا عظيمًا، كيفًا وكمًّا ونوعًا، يذوقون ألمه في الدنيا كما حصل في بدر وغيرها.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، أي: والله لنجزينهم في الآخرة.

﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: جزاء أسوأ وأقبح وأشرَّ الذي كانوا يعملونه، من الكفر والشرك، أي: شر الجزاء وأسوأه؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إذاقتهم العذاب الشديد، ومجازاتهم بأسوأ أعمالهم، أي: ذلك العذاب والجزاء.

﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: جزاء الذين عادوا الله وحاربوه بالكفر والمعاصي، وحاربوا دينه وأولياءه.

﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي النار، أو مبتدأ وخبره ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: في النار ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: دار الخلود الدائم الأبدي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

﴿جَزَآءًۢ﴾ مفعول مطلق ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كونهم بآياتنا يجحدون، أي: يكفرون بها، ويكذبونها، وينكرونها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قرأ ابن عامر والسوسي عن أبي عمرو، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الراء: «أَرْنَا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَرِنَا﴾.

أي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم الأتباع: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، ﴿أَرِنَا﴾، أي:

اجعلنا نرى ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، أي: اللذين كانا سبب ضلالنا ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي: من شياطين الجن وشياطين الإنس.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾: جواب الأمر، أي: إن أريتنا إياهما ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار؛ إهانة لهما، وليكونا أشد عذابًا منا.

﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، أي: لأجل أن يكونا من الأذلين المهانين في الدرك الأسفل من النار.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بحشر أعداء الله من الكفار والمكذبين، وسوقهم إلى النار، وتهديدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٢- أن الكفار أعداء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، وهو تعالى عدو لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣- إثبات المعاد والقيامة والحشر والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٤- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾.

٥- رد أول الكفار على آخرهم، وجمعهم وسوقهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

٦- شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: «**هل تدرون مم أضحك؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**من مخاطبة العبد ربه،**

يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول، فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعدًا لكُنَّ وسحقًا؛ فعنكن كنت أناضل»[1].

٧- في عطف الجلود على السمع والأبصار- وهو من عطف العام على الخاص- دلالة على أن جميع الأعضاء والجوارح تشهد بما عملت، وإنما خص السمع والبصر إشارة إلى أن أكثر الذنوب تقع بسببهما.

٨- معاتبتهم لجلودهم وأعضائهم، ولومهم لها: لمَ شهدت عليهم وهم يدافعون عنها؟ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾.

٩- قدرة الله التامة على إنطاق هذه الجوارح؛ كما أنطق كل شيء، وبدأ الخلق أول مرة، وإليه مرجعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٠- إثبات البعث والمعاد إلى الله تعالى، وأن من خلق الخلق أول مرة فهو على إعادتهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١١- توبيخهم على مجاهرتهم بالكفر والمعاصي، وعدم استتارهم خوفًا من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم؛ حيث لا انفكاك لهم عنها، وذلك؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وبشهادة الأعضاء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

١٢- ظنهم السيئ الفاسد: أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٣- تبكيتهم وتوبيخهم على هذا الظن بربهم، وأنه سبب هلاكهم وخسرانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٩.

١٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد وبكل شيء، ووجوب الإيمان بذلك؛ لأن الله أنكر عليهم هذا الظن وعاقبهم بسببه.

١٥- وجوب حسن الظن بالله تعالى، عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله؛ فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٢٣﴾**»[1].

١٦- الحذر من سوء الظن بالله، وأنه سبب للهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢﴾ [الفتح: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

١٧- أن النار مثوى الكافرين سواء صبروا أو لم يصبروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

١٨- الإشارة إلى أن النار لا تفنى؛ كما دل على ذلك القرآن صراحة في عدة مواضع.

١٩- أن الكافرين لو استعتبوا فلن يجابوا ولن يقبل عتبهم، ولا ينفعهم اعتذارهم؛ لفوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

٢٠- تقدير الله وتسليطه على الكافرين والمكذبين قرناء من شياطين الإنس والجن، يزينون لهم الكفر والمعاصي، والانغماس في الدنيا وشهواتها، والتكذيب بالآخرة والإعراض عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢١- إثبات القدر السابق، وأن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء من الكفر والإيمان وغير ذلك.

٢٢- وجوب الحذر من قرناء السوء من شياطين الجن والإنس؛ لأنهم يزينون

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٩٠- ٣٩١، وأخرجه بدون ذكر قوله: «فإن قومًا» إلى آخره مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٧، وأبو داود في الجنائز ٣١١٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٧.

للناس الباطل، ويزهدونهم في الحق.

٢٣- تحقق قول الله تعالى وكلمته في عدم إيمان الكافرين، وفي عذابهم وخسرانهم في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الكافرين، من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

٢٤- كثرة الضالين والهالكين الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾، أي: في أمم كثيرة.

٢٥- إثبات وجود الجن وتكليفهم، وتعلق الثواب والعقاب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

٢٦- تواصي الكفار فيما بينهم بعدم الإصغاء للقرآن، وعدم الانقياد له واتباعه، وباللغو والتخليط والتشويش عند قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾.

٢٧- حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم، والحيلولة دون سماع الناس للقرآن، والتشويش على من يقرؤه؛ لتكون الغلبة لهم، ولهذا يجب على المؤمنين الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن، والبعد عن التشبه بالكفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢٨- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للكفار المكذبين بالقرآن المعرضين عنه؛ بالعذاب الشديد في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأسوأ عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾.

٢٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾، أي: جزاء أسوأ أعمالهم، فيجازون بأسوأ العذاب لعملهم أسوأ الأعمال.

٣٠- أن عذاب الآخرة أسوأ وأشد من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

وأخبر ﷺ المتلاعنين: «أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[1].

٣١- تهويل وتعظيم ما أعد الله لأعدائه المكذبين الكافرين من العذاب الشديد في النار؛ بسبب جحودهم آيات الله، وكفرهم بها، وتكذيبهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٢- إثبات خلود أهل النار فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾.

٣٣- إثبات عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٤- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٥- شدة حنق الأتباع على الذين أضلوهم من شياطين الجن والإنس، وسؤالهم ربهم أن يريهم إياهما؛ لينتقموا منهما بجعلهما تحت أقدامهم؛ ليكونا من الأسفلين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾.

٣٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ﴾.

٣٧- إقرار الكفار بربوبية الله تعالى لهم، لكن ذلك لا ينفعهم؛ لإنكارهم ألوهيته.

٣٨- أن الإضلال يكون من الجن والإنس؛ كما يكون من النفس الأمارة بالسوء.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: آمنوا بربوبية الله تعالى لهم بقلوبهم، وأقروا واعترفوا ونطقوا بذلك بألسنتهم.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على صراط الله المستقيم، بإخلاص العبادة لله تعالى، واتباع شرعه، فجمعوا بين الإخلاص والعمل، وثبتوا على ذلك علمًا وعملًا حتى الممات.

عن سفيان الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ «تتنزل»: تدل على تكرار التنزل، أي: تتنزل عليهم الملائكة عند الموت وفي القبر، وعند اللقاء والخوف، وفي عرصات القيامة، وكلما اقتضى الحال تنزلهم.

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾، أي: بألا تخافوا مما يستقبلكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾، أي: ولا تحزنوا على ما مضى. وقدم الخوف من المستقبل على الحزن على ما مضى؛ لأن المستقبل أهم.

---

(١) سبق تخريجه.

وبهذا تتبدد أمامهم المخاوف والأحزان، فلا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على من خلفهم.

كما قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما قيل له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم- وكان في مرض موته- فقال: أدخلوهم علي. فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بَنِيَّ، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أُخَلِّف له ما يستعين به على معصية الله»[1].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**».

قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»(٢).

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أي: التي وعدكم الله بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: نحن أنصاركم وأعوانكم، نثبتكم عند اللقاء، ونقاتل معكم، ونثبتكم عند الشدائد والمصائب، ونسددكم للخير، ونحذركم من الشر، وندعو ونستغفر لكم، ونحفظكم ونحفظ أعمالكم.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٩].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر، من أحب لقاء الله ٢٦٨٦، وأحمد ٣/ ١٠٧.

٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧- ٩].

وقال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار**» الحديث[1].

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، أي: ونحن أولياؤكم في الآخرة، نثبتكم عند الموت وشدته، وفي القبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وعند تطاير الصحف، وعند الإتيان بالنار تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ومرورها على أهل الموقف، وغير ذلك.

كما نبشركم بالجنة وما فيها من النعيم والخلود، ونحييكم ونهنئكم بكرامة الله تعالى لكم، وإدخالكم جنته.

كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾، أي: ولكم في الآخرة في الجنة: ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾.

أي: الذي تشتهي أنفسكم، من أنواع المشتهيات والملذات؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: كل الذي تطلبون من أنواع اللذات، وأصناف النعيم؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥﴾ [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٥، ومسلم في المساجد ٦٣٢، والنسائي في الصلاة ٤٨٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**»[(١)].

﴿نُزُلًا﴾ حال، أي: ضيافة وإنعامًا وكرامة.

﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، أي: من رب ذي مغفرة لذنوب عباده، بسترها والتجاوز عنها.

﴿رَّحِيمٍ﴾ رحمة عامة بجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، وفي هذا امتنان عليهم بتوفيقهم للإيمان والاستقامة، وما أعد لهم في الجنة من ألوان النعيم، وكريم الضيافة، بمغفرته التي بها أزال عنهم المرهوب، وبرحمته التي أنالهم فيها المطلوب. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أحسن قولًا.

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: لا أحد أحسن ولا أفضل قولًا من الذي دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين.

وقوله: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: دعا عباد الله إلى الله، أي: إلى الإيمان بالله وتوحيده، والاستقامة على دينه، والإخلاص له وطاعته؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٧٠١، ومسلم في الفضائل، من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١، من حديث =

وأول من يدخل تحت هذه الآية: إمام المتقين، وقدوة الداعين، نبينا محمد ﷺ، وبعده سائر المرسلين، وغيرهم من الدعاة إلى الله، ومن المؤذنين وغيرهم.

قال ﷺ: «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»[١].

وقال: «**اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين**»[٢].

﴿**وَعَمِلَ صَٰلِحًا**﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا، اجتمع فيه الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿**وَقَالَ**﴾ معتزًّا بدينه مفتخرًا به، بلسانه وقلبه: ﴿**إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾، أي: من المستسلمين لله بالتوحيد، المنقادين لطاعته، المخلصين له، المتبعين دين الإسلام.

وهذا عمل صالح، وخص لغيظ الكفار؛ كما قال ﷺ لما قال أبو سفيان: اعلُ هبل. قال ﷺ: «**ألا تجيبوه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»[٣].

وحق لكل مسلم أن يعتز بدين الإسلام ويفتخر به، وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء؟[٤]

وقال الآخر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم[٥]

= سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، فضل الأذان ٣٨٧، وابن ماجه في فضل الأذان ٧٢٥، وأحمد ٤/ ٩٥، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٥١٧، والترمذي في الصلاة ٢٠٧، وأحمد ٢/ ٢٣٢، ٢٨٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه ٥/ ٢٦٠، ومن حديث عائشة رضي الله عنها ٦/ ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٥) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

وفي قوله: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إنني مسلم» احتراز من التزكية للنفس، أي: أنا واحد من المسلمين.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الحسنة: ما يحسن ذكره وأثره، وهي: اسم جنس يعم جميع أفراد جنسه، فالحسنة تعم جميع أفراد الحسنات، من الدعوة إلى الله تعالى، والأعمال الصالحة والطاعات، وفعل المأمولات وترك المحظورات، والإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، والسيئة: ما يسوء ذكره وعاقبته، وهي أيضا اسم جنس يعم جميع أفراد السيئات؛ من ترك المأمورات، وارتكاب المحظورات، والتقصير في حق الله، والإساءة إلى عباد الله.

فلا تستوي الحسنة ولا السيئة بوجه من الوجوه، لا في ذاتهما، ولا في صفاتهما، ولا في جزائهما؛ كما أنه لا يستوي المحسن ولا المسيء؛ ولهذا قال:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع السيئة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: بالحسنة؛ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وذلك بمقابلة الأذى بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، ونحو ذلك.

والأمر في قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ للندب، لا للوجوب؛ لأنه يجوز دفع السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

ولكن الأولى دفع السيئة بالحسنة، وأفضل من ذلك وأكمل دفعها بالتي هي أحسن.

فالمعنى: قابل إساءة من أساء إليك بما هو أحسن ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد جاء في صفته ﷺ: «أنه لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر»[١].

«وما انتقم ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»[٢].

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ الفاء: تعليلية، و«إذا»: فجائية للدلالة على سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقًا.

أي: فإذا دفعت السيئة بالحسنة تفاجأت بأن الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾، أي: كأنه قريب صديق.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالتي هي أحسن، ومقابلة الإساءة بما هو أحسن.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر، أي: إلا الذين حبسوا أنفسهم وألزموها تحمل هذا الأمر ابتغاء مرضاة الله، مع شدة كراهية النفوس لذلك؛ لأنها مجبولة على حب الانتقام ممن أساء إليها، وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان إليه؟!

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أعاد هذا للاهتمام، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الكريمة.

﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: إلا صاحب نصيب عظيم من التوفيق لجميل الأخلاق، وحميد الخصال، من الصبر والأناة والحلم، ومن الفوز بالثواب العظيم.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾.

لما ذكر تعالى ما يدافع به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ لأن ذلك غالبًا يحجزه عن الإساءة، ذكر ما يدفع به العدو من الجن، وهو الاستعاذة بالله تعالى منه؛ لأنه لا يقدر على دفعه والإعاذة منه إلا الله؛ لأنه لا يريد إلا إغواء بني آدم وإهلاكهم، ولا يكفيه إلا ذلك.

وأيضًا ففي هذا تحذير من ترك الدفع بالتي هي أحسن، ومقابلة السيئة بالسيئة بسبب نزغ الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢١٢٥، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإما يصيبنك من الشيطان نزغ، والنزغ: هو الوسوسة بالنفس، للصرف عن الخير، أو تزيين الشر.

أي: وإما يزينن لك الشيطان مقابلة السيئة بمثلها، وترك مقابلتها بالإحسان، وغير ذلك من التزهيد في الخير وتحسين الشر.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاعتصم بالله والتجئ إليه، قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونحو ذلك. يعيذك ويعصمك منه؛ ولهذا قال ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه لما قال: «يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي، يلبسها علي. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا**». قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»(١).

وقال ﷺ: «فمن رأى شيئًا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثًا، وليتعوذ من الشيطان؛ فإنها لا تضره»(٢).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: إنه هو ذو السمع الذي وسع كل شيء، يسمع دعاء الداعين ويجيبهم، ويسمع استعاذة المستعيذين ويعيذهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: ٩٨] يعلم جميع أحوال عباده، ويعلم حال المضطرين إلى عصمته وحمايته، فيعصمهم ويحميهم من الشيطان، ومن كل شر.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى للذين آمنوا به واستقاموا على صراطه بإخلاص العبادة له، واتباع شرعه؛ بتنزل الملائكة عليهم، تثبتهم عند الموت وعند الخوف والشدة وفي

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ٢٢٠٣، من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٩٩٥، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦١، وأبو داود في الأدب ٥٠٢١، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

عرصات القيامة: ألا تخافوا ولا تحزنوا، وتبشرهم بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- وجوب الإيمان بالله والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله وشرعه حتى الممات.

٣- أن الإيمان تصديق واعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

٥- أن الأولى أن يقال لمن آمن بالله واستقام على شرعه: «مستقيم»؛ لأن هذا هو الوصف الذي جاء في الكتاب والسنة، ولا يقال له: «ملتزم» كما درج على الألسنة.

٦- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وتنزلهم بأمر الله على المؤمنين عند الاحتضار وفي مواقف الشدة والخوف، ونحو ذلك.

٧- أن من أشد ما يقلق الإنسان: الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى؛ لقول الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، فطمأنوا المؤمنين بسلامتهم من الخوف والحزن؛ ولهذا فإن من أعظم نعيم أهل الجنة إذهاب ذلك عنهم؛ كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥].

٨- إثبات وجود الجنة، وهي الدار التي أعد الله للمتقين.

٩- إثبات صدق وعده عز وجل للمؤمنين بالجنة، وتحقق ذلك لهم.

١٠- تسخير الله تعالى الملائكة للمؤمنين يوالونهم وينصرونهم ويحفظونهم، ويسددونهم للخير، ويحذرونهم من الشر، ويستغفرون لهم، ويدعون لهم ويثبتونهم عند اللقاء، وفي مواقف الشدة في الدنيا والآخرة، ويبشرونهم بالجنة، ويحيونهم، ويهنئونهم بكرامة ربهم؛ لقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾.

١١- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

١٢- بشارة الملائكة للمؤمنين بما أعد لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، ومن

كل ما يطلبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

١٣- عظم ما أعد للمؤمنين من الضيافة والكرامة؛ لأنها ضيافة من غفور رحيم، جواد كريم؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فأكرم بهذا من نزل، وأعظم بها من ضيافة!

١٤- أن الضيافة تعظم على قدر المضيف؛ كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم [(١)]

١٥- إثبات صفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

١٦- أن التخلية بإزالة المكروه، قبل التحلية بإعطاء المطلوب؛ لتقديم المغفرة على الرحمة.

١٧- أنه لا أحد أحسن وأفضل قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وفي المقابل فإن من أسوأ الناس وأشرهم قولًا من كان بضد ذلك، وهم دعاة الكفر والضلال، الذين ذمهم الله وتوعدهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- إثبات تفاضل الأعمال، وأن بعضها أفضل وأحب إلى الله من بعض، وحسب تفاضل الأعمال يتفاضل العمال.

١٩- فضيلة الدعوة إلى الله تعالى، وأنها من أفضل الأعمال؛ ولهذا بدأ بها، كيف وهي طريقة الرسل عليهم السلام؟

٢٠- فضيلة العمل الصالح، الخالص لله تعالى، الموافق لشرعه وسنة رسوله ﷺ؛

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٢١- وجوب اعتزاز المسلم بدينه، وإعلانه وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٢- الاحتراز من التزكية لذات النفس؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إنني مسلم»، أي: أنا واحد من المسلمين.

٢٣- إثبات الأخوة بين المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- عموم مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، والاهتمام بأمر المسلمين، وفي الحديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمسِ ناصحًا لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»[1].

٢٥- شتان بين الحسنة والسيئة، فالحسنة يسعد بها فاعلها في الدنيا والآخرة، والسيئة تشقي مرتكبها في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.

٢٦- الترغيب في فعل الحسنات، والتحذير من ارتكاب السيئات.

٢٧- الحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، والحذر من أن تأخذ المرءَ العزةُ بالإثم فيحرم خيرًا كثيرًا.

٢٨- أن من دفع الإساءة بما هو أحسن، انقلب فجأة من كان بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فسبحان مقلب القلوب!

٢٩- قدرة الله تعالى التامة على تقليب القلوب؛ كما قال ﷺ: «**إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ٧/ ٢٧٠ (٧٤٧٣)، وأخرجه في «تاريخ أصبهان» ٢/ ٢٢٢-من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٣٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

٣٠- أن الدنيا دار كدر وكبد لا تستقيم على حال، بل هي مليئة بالعداوات والأكدار.

٣١- عظم أثر الإحسان وسرعته في إزالة العداوة ومحوها بتوفيق الله.

٣٢- أن المدافعة بالتي هي أحسن شاقة على النفس، عزيزة المنال، لا يوفق لها إلا الذين صبروا أنفسهم على ما تكره، ابتغاء مرضاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

٣٣- فضيلة الصبر، والترغيب فيه، وأن عاقبته إلى خير؛ فمن صبر فقد امتثل أمر ربه، وفاز بثوابه، وأطفأ عداوة خصمه، ولم يضع ذلك من قدره؛ لأن من تواضع لله رفعه.

٣٤- أنه لا يلقى هذه الخصلة ولا يوفق لها إلا ذو نصيب عظيم من التوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

٣٥- إرشاد المسلم إذا نزغه من الشيطان نزغ بتزيين ترك الإحسان، أو مقابلة الإساءة بمثلها، أو غير ذلك إلى الاستعاذة بالله منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

٣٦- حرص الشيطان على الحيلولة بين المسلم وبين الخير، وعلى إيقاعه في الشر؛ مما يوجب الحذر منه.

٣٧- أن شيطان الإنس قد يندفع بالإحسان إليه، فتنفع فيه المداراة والإحسان، وأما شيطان الجن فلا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يريد إلا إهلاك الإنسان.

٣٨- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، يسمع دعاء الداعين ويجيبهم، واستعاذة المستعيذين ويعيذهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه ذو العلم الذي وسع كل شيء.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفة السمع والعلم في حقه كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨)﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أي: ومن آيات الله عز وجل الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على وجوده، ومعرفته، وكمال قدرته، ووحدانيته في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له: ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

فالليل بظلامه وسكون الخلق فيه، والنهار بضيائه وتصرف العباد فيه، فلا أحد يستطيع أن يأتي بذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ بضيائها وحرارتها، ﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ بنوره، وجريانهما بحساب دقيق؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

وما في ذلك كله من الآيات والعبر والمنافع والمصالح للعباد مما لا يحصى، ولا يعلمه إلا الله.

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾، أي: لا تعبدوا الشمس والقمر؛ لأنهما مخلوقان لله مدبران، وفي هذا تعريض بمن يعبدون الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب والمخلوقات. قال ﷺ: «**إن الشمس تطلع بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفار**»[1].

﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ﴾، أي: واعبدوا الله وحده، والتعبير بالسجود؛ لأنه من أعظم العبادة؛ لما فيه من الذل والخضوع لله.

ولهذا قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[2].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي: الذي خلق هذه الآيات الأربع وغيرها؛ لأنه هو الرب الخالق العظيم المستحق للعبادة وحده.

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ قَدّم المفعول «إياه»؛ لإفادة الحصر، أي: إن كنتم تعبدون الله حقًّا فخصوه بالعبادة وحده، ولا تعبدوا معه هذه المخلوقات، فإن عبدتموها معه، فإنكم لم تعبدوه، والله غني عن عبادتكم هذه؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[3].

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن عبادة الله تعالى والسجود له وحده، فإنهم لن يضروا الله

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨٣٢، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شيئًا، والله غني عنهم؛ ولهذا قال:

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: من الملائكة الكرام المقربين، وفي وصفهم بأنهم عنده عز وجل تشريف لهم.

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾، أي: ينزهونه عن الشرك، وعن النقائص والعيوب، ويصلون له، ويعبدونه وحده.

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في آناء الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: لا يملون ولا يفترون؛ لشدة الداعي منهم إلى ذلك، ولا يتعبون؛ لقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وسعة رحمته، وقدرته على إحياء الموتى: ﴿أَنَّكَ﴾ الخطاب عام لكل من يصلح له.

﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، أي: تشاهدها وتبصرها ميتة يابسة هامدة، لا نبات فيها ولا حياة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا﴾، أي: المطر، ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾، أي: دبت فيها الحياة، وتحركت بالنبات.

﴿وَرَبَتْ﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَأَتْ» بهمزة بعد الباء، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿وَرَبَتْ﴾.

والمعنى: زادت وانتفخت وعلت بالنبات، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ

أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾، أي: إن الذي أحيا الأرض بقدرته العظيمة بعد خشوعها وموتها، ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لباعثهم أحياء من قبورهم يوم معادهم ونشورهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩- ١١].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الجملة: تعليلية، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، وأنه كما أحيا الأرض بعد موتها بالنبات فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وعلى كل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ الإلحاد: الميل عن الاستقامة، والإلحاد في آيات الله: الميل والعدول بها عن الصواب، وعما دلت عليه من الحق بأيِّ وجه كان.

فالإلحاد في آيات الله الكونية بنسبتها إلى غير الله، أو اعتقاد مشارك لله فيها، أو معين له عليها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

والإلحاد في آيات الله الشرعية يكون بتكذيبها؛ كما في قول المكذبين للرسل: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وكما زعم المشركون أن الرسول ﷺ افترى القرآن وتقوله، وإنما يعلمه بشر.

ويكون بتحريفها عن ألفاظها أو معانيها الحقيقية إلى ألفاظ ومعانٍ باطلة.

ويكون بمخالفتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، أي: لا يخفى علينا أمرهم، بل نعلمهم ونعلم ظاهرهم وباطنهم، وسنحاسبهم ونجازيهم. وفي هذا إثبات كمال علمه عز وجل، وتهديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن يطرح في النار من الملحدين في آيات الله الكافرين بها.

والتعبير بـ«يلقى» للإهانة والإذلال والتحقير.

﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ «أم»: عاطفة معادلة للهمزة، و«من»: موصولة.

أي: أم الذي يأتي آمنًا يوم القيامة؟ أي: لا يستوي هذا وهذا، بل الذي يأتي آمنًا يوم القيامة هو خير، وهم الذين آمنوا بآيات الله، ولم يلحدوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة.

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ الأمر: للتهديد، أي: اعملوا الذي شئتم من الإلحاد وغيره.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي تعملونه، أو بعملكم بصير، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه، وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بالخبر «بصير»، وقدم عليه؛ ليكون أشد تهديدًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ المراد بـ«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم، وأنكروه، وزعموا أنه سحر أو شعر أو قول كاهن، وأساطير الأولين.

وسمي القرآن بـ«الذكر»؛ لما فيه من التذكير والموعظة، وذكر الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار، وذكر صفات المؤمنين وثوابهم، وصفات الكافرين وعقابهم، والبعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك.

كما أنه ذكر وشرف لمن أنزل عليه ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولم يذكر خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. والمعنى: سيجازون، أو سيعذبون، أو لهم نار جهنم، ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الواو: حالية، أو استئنافية، والضمير يعود إلى «الذكر»، أي: القرآن، واللام: للتوكيد، ﴿عَزِيزٌ﴾ صفة لـ«كتاب»، أي: قوي الحجة، غالب على غيره؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

منيع الجانب محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير، والزيادة والنقصان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: أنه حق، لا يتطرق إليه الباطل من أي سبيل، لا في أخباره، ولا في أحكامه، فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ الجملة: تعليلية، أو صفة ثالثة لـ«كتاب»، أي: تنزيل من رب حكيم في أقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، ذي الحكم التام، والحكمة البالغة، ﴿حَمِيدٍ﴾، أي: محمود في تنزيله، وفي حكمه وحكمته، وفي جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾، أي: ما يقال لك يا محمد من التكذيب والاستهزاء والسخرية من قومك؛ كقولهم: ساحر، ومجنون، وشاعر، وغير ذلك.

﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كما قيل للرسل من قبلك، فقد كُذبوا، واستهزئ بهم، وسُخر منهم، ورُموا بالسحر والجنون وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وفي هذا تسلية له ﷺ، وإرشاد له إلى الصبر كما صبر الرسل من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ اللام: للتوكيد، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: إن ربك يا محمد لصاحب مغفرة لمن تاب وأناب إليه؛ يستر ذنبه، ويتجاوز عن عقوبته، وفي هذا ترغيب بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم موجع شديد لمن أصر على كفره وطغيانه وعناده، وشقاقه واستكباره، وفي هذا تحذير من الاستمرار على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: ولو صيرنا هذا القرآن ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: بلغة العجم.

﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«لولا»: حرف تحضيض، أي: لقال المكذبون للرسول ﷺ: هلا فُصلت آيات هذا القرآن، وبُينت ووضحت، وجُعلت عربية نفهمها.

ولا حجة لهم في هذا؛ لأن الله جعل القرآن عربيًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الاستفهام: للإنكار، والجملة استئنافية في حيز القول، بمعنى: ولقالوا: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، أي: أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ أي: كيف يكون القرآن أعجميًّا، وقد أنزل على نبي عربي؟ وهذا لم يكن، فالقرآن عربي، والمنزَّل عليه عربي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وفي هذا امتنان بإنزال القرآن بأفصح اللغات وأظهرها وأبينها وأوسعها لغة العرب، وكونه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والإعجاز، بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره.

كما أن فيه بيان أن كفر المشركين به، وعدم إيمانهم، إنما هو كفر تعنت وعناد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨- ٢٠١].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد في جوابهم: ﴿هُوَ﴾، أي: هذا القرآن.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خاصة، ﴿هُدًى﴾ من الجهل والضلالة، يهدي إلى الرشد والحق، وإلى طريق مستقيم؛ كما قال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقالوا في الآية الأخرى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَشِفَآءٌ﴾، أي: من أمراض القلوب والصدور، من الشكوك والريب والنفاق وغير ذلك، ومن أمراض الأبدان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وكما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة اللديغ الذي قرأ عليه أحد الصحابة رضي الله عنهم سورة الفاتحة، فقام كأنما نشط من عقال، وفيه قول

النبي ﷺ: «**وما يدريك أنها رقية؟! خذوها واضربوا لي معكم بسهم**»[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، أي: صمم وثقل، فلا يسمعونه سماع تفهم وانتفاع.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فلا يفقهونه؛ لعمى قلوبهم وإعراضهم، ولا يهتدون إلى ما فيه من الهدى والبيان؛ لصمم آذانهم وعمى قلوبهم وأبصارهم، بل لا يزيدهم إلا ضلالًا وخسارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الحاقة: ٥٠].

وفي الحديث: «**القرآن حجة لك أو عليك**»[(٢)].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فلا يسمعون داعيًا، ولا يجيبون مناديًا، ولا يفهمون، كالذي ينادى من مكان بعيد، وكالبهيمة لا تفهم إلا دعاءً ونداءً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

والمراد: أنهم لا ينتفعون بالقرآن ولا يهتدون بهداه؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، أنزلها الله عليه مكتوبة بألواح، وهي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، وموسى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧/ ٩٢- ٩٣.

عليه السلام ثالث أولي العزم بعد نبينا وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأكثر الرسل أتباعًا بعد نبينا ﷺ؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه ﷺ رأى سوادًا قد سد الأفق، فقال: «**من هذا؟ فقيل: هذا موسى وقومه**»(١).

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: فاختلف فيه بنو إسرائيل، فمنهم من آمن به واهتدى، ومنهم من كفر به وكذبه وضل، وهذا قبل نسخ التوراة وغيرها بالقرآن.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، أي: ولقد آتينا موسى الكتاب من قبلك، فاختلف قومه فيه بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر، فليس ما حصل من قومك من اختلاف في القرآن ببدع من فعل الأمم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَوْلَا﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف شرط غير جازم، ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا محمد في قضائه الكوني القدري الأزلي، بتأجيل العذاب إلى أجل مسمى، وتأخير الحساب إلى يوم المعاد.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لقضي بينهم بتعجيل العذاب وإهلاك المكذبين لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَإِنَّهُمْ﴾، أي: المشركين، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي: من القرآن أو البعث، ﴿مُرِيبٍ﴾: موقِع في الريبة والقلق.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم آيات الله الكونية التي لا حصر لها، الدالة على وجود الله ومعرفته، وتمام قدرته، وكمال وحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ورحمته

(١) أخرجه البخاري في في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦.

بعباده: الليل والنهار، والشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

٢- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن عبادة الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٣- التعريض بالذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب من دون الله.

٤- أن السجود من أعظم أنواع العبادة؛ لهذا خص بالذكر.

٥- أن الذي يستحق العبادة هو الخالق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

٦- أن من يعبد الله حقًّا لا يسجد لغيره من المخلوقات؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٧- غِنى الله تعالى عن المستكبرين عن عبادته، وأنهم لن يضروا الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الآية.

٨- إثبات وجود الملائكة، وتشريفهم بكونهم عند الله عز وجل، والثناء عليهم بتسبيحهم له على الدوام، بلا سأم ولا ملل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾.

٩- تحدي هؤلاء المستكبرين عن عبادة الله بأنهم إن استكبروا عن عبادته، فهناك من يعبده.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١١- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ورحمته، وقدرته على إحياء الموتى: إحياؤه الأرض بعد موتها بالنبات بإنزال المطر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

١٢- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله، فحياة الأرض بسبب إنزال المطر عليها.

١٣- إثبات القياس؛ لأن الله قاس إحياء الموتى على إحياء الأرض بعد موتها.

١٤- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيوجد المعدوم، ويعدم الموجود، ويغيِّر الثابت، ويثبت المتغير، وغير ذلك.

١٥- تهديد الملحدين بآيات الله بعلمه تعالى بهم وبإلحادهم، وأنه سيجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾.

١٦- إثبات كمال وسعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء.

١٧- شتان بين من يطرح في النار بسبب الإلحاد في آيات الله ونحو ذلك، وبين من يأتي آمنًا يوم القيامة من العذاب لإيمانه بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

١٨- التحذير من الإلحاد في آيات الله، وأنه سبب للإلقاء في النار.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٢٠- إثبات النار، وأن الله أعدها للكافرين.

٢١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٢- تهديد المكذبين والكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة للعبد والاختيار، والرد على الجبرية.

٢٤- علم الله تعالى التام وإحاطته بأعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

٢٥- التنديد بالذين كفروا بالقرآن لما جاءهم، وذمهم، وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ ﴾ الآية.

٢٦- أن من أسماء القرآن الكريم: «الذكر»؛ لما فيه من التذكير والعبر والعظات، وكونه شرفًا له ﷺ ولقومه.

٢٧- تعظيم الله تعالى للقرآن؛ لما فيه من التذكير، وقوة الحجة، والإعجاز، وكونه منيع الجانب محفوظًا من التبديل والتغيير والتحريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾.

٢٨- حفظ الله تعالى التام للقرآن الكريم من تطرق الباطل إليه بأي وجه من الوجوه، وتكفله عز وجل بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾.

٢٩- إثبات نزول القرآن من عند الله عز وجل، وأنه كلامه منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، وفي هذا الرد على القائلين بخلق القرآن من أهل البدع والضلال.

٣٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٣١- إثبات صفتي الحكم والحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَكِيمٍ﴾.

٣٢- إثبات أنه عز وجل حميد، أي: محمود في أقواله وأفعاله، في شرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿حَمِيدٖ﴾.

٣٣- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلقاه من قومه من التكذيب والسخرية والاستهزاء، بأن ذلك لقيه الرسل قبله من أقوامهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

٣٤- أن المصائب إذا عمت هانت وخفت.

٣٥- إثبات أنه ﷺ خاتم المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

٣٦- توافق الأمم واجتماعهم على تكذيب الرسل والسخرية والاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣].

٣٧- إثبات أنه عز وجل ذو مغفرة واسعة للتائبين، وذو عقاب أليم للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾، وفي هذا ترغيب بالتوبة، وتحذير من

الإصرار على الكفر.

٣٨- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء على حد سواء، ويكونا له كجناحي الطائر.

قيل: ويغلب في حال الصحة جانب الخوف، وفي حال المرض، وعند الموت يغلب جانب الرجاء. قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[(١)].

ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمَنه مما يخاف»[(٢)].

وقيل: يغلب عند فعل المعصية جانب الخوف ليرتدع، وعند فعل الطاعة جانب الرجاء؛ ليقبل عليها، وتعظم رغبته فيها، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[(٣)].

٣٩- الامتنان على العباد بكون القرآن عربيًّا بأشرف اللغات وأوسعها وأفصحها، وتفصيله وتبيينه، وبيان أن كفر المشركين وعدم إيمانهم عن عتو وعناد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

٤٠- حكمة الله تعالى في أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه، فلا يصح أن يكون الكتاب أعجميًّا مع أن المرسل إليه عربي.

٤١- أن القرآن هدى للذين آمنوا خاصة من الجهل والضلالة، وشفاء لأمراض القلوب والأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

٤٢- عدم انتفاع غير المؤمنين من القرآن؛ لما في آذانهم من الصمم، ولما في قلوبهم من العمى فلا يفهمونه، ولا يفقهونه بسبب إعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٧-من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦١؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩، وأحمد ٢/ ١٧٧-من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾.

٤٣- إثبات القدر؛ لأن من كتبت له الهداية انتفع بالقرآن، ومن كتب عليه الضلال عمي عنه؛ ولقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.

٤٤- تحقير شأن الذين لم ينتفعوا بالقرآن، وأنهم أشبه بالذي ينادى من مكان بعيد، لا يسمعون داعيًا، ولا يجيبون مناديًا، ولا يفهمون؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

٤٥- تذكير النبي ﷺ تسلية له، وتثبيتًا لقلبه، بإيتائه عز وجل موسى الكتاب، واختلاف قومه فيه؛ كحال المشركين من قومه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾.

٤٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال الكتاب عليه.

٤٧- تهديد المشركين وتوعدهم بالعذاب، وأن لذلك أجلًا مسمى عند الله في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

٤٨- شك المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وبالرسول ﷺ، وبالوعيد والبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾.

قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: من عمل عملًا صالحًا، وهو ما جمع الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء في الموضعين رابطة لجواب الشرط، أي: فلنفسه عمل، أي: فنفْع عمله لنفسه، والله غني عن عمله.

﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾، أي: ومن أساء العمل، أي: عمل عملًا سيئًا، من الشرك والبدع وغير ذلك من السيئات.

﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فإساءته على نفسه، أي: فضرر إساءته على نفسه، ولن يضر الله شيئًا، فهو عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وما ربك يا محمد بذي ظلم لأحد من عبيده وخلقه؛ لأن كل الخلق عبيد له عز وجل؛ كما قال:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يمنع عز وجل أحدًا ثواب عمل استحقه، ولا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن القيم: «ولا يُحمَّل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله»(١).

﴿إِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يرجع ويفوض علم الساعة، لا يعلمه إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: «**متى الساعة؟**» قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(٢).

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثَمَرَةٍ» من غير ألف على الإفراد، وقرأ الباقون بالألف على

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجمع: ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾.

الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«ما»: نافية، و«من» في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يخرج أيّ ثمرات.

﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾، أي: من أوعيتها، فيعلم جميع ما تخرجه أكمام الأشجار من نخل وغيره من الثمر؛ قدره وكيفه وجودته، وغير ذلك؛ لأنه الخالق له، وقد قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وما تحمل أيُّ أنثى؛ من بني آدم ومن الحيوان، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ معطوف على ﴿تَحْمِلُ﴾، أي: ولا تضع حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعلمه السابق، فيعلم متى تحمل، وما هو حملها، ويعلم متى تضع، وكيف تضع؛ لأن علمه عز وجل محيط بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الواو: عاطفة، و«يوم»: متعلق بمحذوف، أي: اذكر يوم يناديهم، أي: اذكر يوم القيامة يوم ينادي ربك المشركين ويفضحهم على رؤوس الخلائق، فيقول:

﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الاستفهام للتعجيز والتوبيخ، أي: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ وفي هذا تهديد للمشركين، وتسلية له ﷺ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان شركهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾، أي: أعلمناك.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما منا أيّ شهيد يشهد أن معك شريكًا، فأبطلوا إلهية شركائهم، وتبرؤوا منهم، حين لا ينفعهم ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ذهب وغاب عنهم الذين كانوا يدعونهم من دون الله ويعبدونهم من قبل، من الشركاء من الأصنام والأنداد، فلم ينفعوهم.

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أيّ محيص، أي: أيقنوا ما لهم أيُّ مهرب ولا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: لا يمل الإنسان ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: من طلب الخير، من المال والغنى، والولد، والصحة، والجاه والشرف، وغير ذلك، ولا يكتفي ولا يقتنع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[1].

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإن أصابه المكروه كالفقر والمرض والخوف، وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٦، وأخرجه بمعناه مسلم في الزكاة ١٠٤٩، والترمذي في المناقب ٣٧٩٣.

من أنواع الابتلاء والمصائب، ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

واليأس: انقطاع الرجاء، والقنوط: أشد اليأس، أي: فهو يؤوس قنوط من رحمة الله، يظن أن ما أصابه من هذا الشر وهذا الابتلاء هو القاضي عليه، وأنه لا خير بعده، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال ﷺ لابن عباس: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[(١)].

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، واللام: موطئة للقسم في الموضعين.

أي: ولئن أذقنا الإنسان الكافر، أي: أعطيناه ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ من خير ورزق، وغنى وولد، وأمن وصحة، ونحو ذلك.

والتعبير بالإذاقة دون الإيتاء؛ لأن الإذاقة أبلغ؛ لدلالتها على الانتفاع بالشيء.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾، أي: من بعد شدة أصابته من فقر وخوف ومرض، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: هذا من عندي وبعملي، وأنا أستحقه؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، أي: وما أعتقد أن الساعة قائمة، فكفر نعمة الله عليه، ونسبها إلى نفسه، وأنكر قيام الساعة والبعث والحساب والجزاء، وظن أنه سيخلد؛ كما قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾ [الهمزة: ٣].

﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: وعلى فرض أن تقوم الساعة، وسأرد إلى ربي.

﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ اللام في قوله: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: إن لي عند ربي ﴿لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، أي: الجنة، وما هو أحسن؛ كما قال ﷺ في تفسير قوله تعالى

---

(١) سبق تخريجه.

في سورة يونس: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «**الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله**»(١).

وهذا من أعظم الغرور، والجرأة على الله، والقول عليه بلا علم؛ ولهذا توعده الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوالله لننبئن الذين كفروا بعملهم أو بالذي عملوه؛ لفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، ومحاسبتهم ومجازاتهم على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولنذيقنهم من عذاب شديد.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بحصول المطلوب من الخير والرزق والصحة ونحو ذلك، أو بالنجاة من المرهوب من مرض أو عدو، ونحو ذلك.

﴿أَعْرَضَ﴾، أي: انصرف عن طاعة ربه وشكره، غير متفكر في نعمته عليه.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أي: وتباعد وثنى عطفه متبخترًا ومتعاظمًا ومستكبرًا عن اتباع الحق، وعلى الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإذا أصابه الشر، من فقر أو مرض أو خوف، ونحو ذلك.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: صاحب دعاء كثير؛ لكشف الضر عنه؛ لعدم صبره.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

خُتمت السورة بمثل ما بُدئت به من تعظيم القرآن الكريم، وبيان صدقه، وصدق من جاء به، وذم وتحذير المعرضين عنه، الكافرين به.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: إن كان هذا القرآن من عند الله، أي: كلامه ووحيه من غير شك ولا ارتياب؛ كما قال عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢].

أي: أرأيتم إن كان من عند الله وتبين واتضح لكم ذلك ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أي: كذبتم به وأنكرتموه وجحدتموه.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أضل من الذي هو ﴿فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: في شقاق وخلاف بعيد عن الحق، ومعاندة ومخالفة له. والمراد: لا أحد أضل منكم. وإنما أظهر في مقام الإضمار؛ لتسجيل هذا الوصف عليهم، وأنهم في شقاق بعيد عن الحق، ويشمل هذا الوصف غيرهم ممن كفر بالقرآن وكذبه.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ السين: للتنفيس، وهي تفيد تحقق وقوع الشيء مع القرب، أي: سنظهر لهم قريبًا آياتنا الكونية الدالة على أن القرآن الكريم حق، منزل من عند الله عز وجل على رسوله ﷺ.

﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾، أي: في آفاق السموات والأرض وأقطارهما، حتى يروها بأبصارهم وبصائرهم، وذلك بما جعل الله في السماء من الكواكب كالشمس والقمر والنجوم، وما فيها من السحاب والرعد والبرق وغير ذلك، وما في الأرض من الجبال والبحار والأنهار والنباتات والمعادن وغير ذلك.

ومن ذلك: ظهور إعجازه بما أخبر به من الغيب، فوقع كما أخبر، من النصر له ﷺ

ولدينه، وتمكينه، وإقبال الناس عليه، وانتشار الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام، وظهوره على الأديان كلها، وخذلان الشرك وأهله، إلى غير ذلك مما يحصل في الآفاق من الحوادث والوقائع والمصائب والشدة والرخاء، وغير ذلك.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: ونريهم آياتنا في أنفسهم في تركيب خلقهم العجيب، وما أودع الله فيهم من القوى العقلية والبدنية والحواس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] وأيضًا: فيما يقع عليهم من المصائب والعقوبات؛ كمصرع كبرائهم في بدر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

قال الشاعر:

وإذا نظرت تريد معتبرًا	فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي يمسي ويصبح في الد	دنيا وكل أموره عبر
أنت المصرّف كان في صغر	ثم استقل بشخصه الكبر
أنت الذي تنعاه خلقته	ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب لا	ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بماله القدر(١)

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: إلى غاية أن يتبين لهم أن القرآن هو الحق، وأنه ﷺ جاء بالصدق، وأن ما أخبر به من النصر والتمكين له ﷺ، والبعث والحساب، وغير ذلك، كله حق.

وقد أرى عز وجل عباده من الآيات ما به تبين أن القرآن حق، وأن ما جاء به من الهدى والدين هو الحق؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٧٥ - ١٧٦، نقلًا عن كتاب «التفكر والاعتبار» لابن أبي الدنيا عن شيخه أبي جعفر القرشي.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ الاستفهام: للتقرير، والباء: زائدة لتحسين اللفظ، أي: أولم يكفهم دلالة على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق: شهادة ربك يا محمد لهما بذلك؟ كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فكفى به عز وجل شهيدًا على أن القرآن حق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وكفى به سبحانه شهيدًا على صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به حق، بتأييده عز وجل، ونصره له، وذلك أعظم شهادة منه عز وجل على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به.

وكفى به عز وجل شهيدًا على كل شيء من أفعال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ «ألا» في الموضعين: أداة تنبيه، وكررت للتوكيد، أي: ألا إن هؤلاء المشركين في شك عظيم من لقاء الله تعالى، وقيام الساعة، ومحاسبته عز وجل لهم، ومجازاته إياهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾، أي: ألا إنه عز وجل بكل شيء محيط علمًا وقدرة، فلا يفوته شيء، ولا يعجزه أحد، وسيجازيهم بكفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن من عمل صالحًا فثواب عمله لنفسه، ومن أساء فعقوبة إساءته على نفسه، والله غني عن العباد وأعمالهم، فلا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لوجه الله، تبعًا لشرعه.

٣- الترغيب في الأعمال الصالحة، والتحذير من الأعمال السيئة.

٤- كمال عدل الله عز وجل بمجازاة كلٍ بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء

بإساءته.

٥- انتفاء الظلم عنه عز وجل لعباده بالكلية، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا يُجازى أحد بغير ما عمل أو بعمل غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾.

٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٨- اختصاص الله عز وجل، وتفرده بعلم الساعة، ومتى تقوم؛ لقوله عز وجل: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

٩- إثبات القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

١٠- عموم علمه وإحاطته بجميع الذي تخرجه الأشجار من ثمرات من أوعيتها: قدره وجودته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾.

١١- علمه عز وجل الواسع بكل ما تحمله من أنثى من بني آدم، ومن سائر الحيوانات، ومتى تضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

١٢- مناداته عز وجل المشركين يوم القيامة، وفضيحتهم على رؤوس الخلائق: أين شركائي؟ توبيخًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾.

١٣- إثبات النداء والكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾.

١٤- إقرارهم ببطلان إلهية شركائهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

١٥- ذهاب ما كانوا يدعونه من قبل من الشركاء من الأصنام والأنداد، وغيابهم

عنهم، وعدم نفعهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

وهكذا فكل ما عبد من دون الله فهو هلاك وضلال.

١٦- تيقنهم أنه لا محيص لهم ولا مهرب، ولا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

١٧- أن من طبيعة الإنسان أنه لا يمل من طلب الخير، وإن أصابه الشر يئس وقنط من حصول الخير، إلا من رحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

١٨- إنكار الكافر فضل الله تعالى عليه بإعطائه النعمة بعد الضراء، ونسبته ذلك إلى حذقه وجهده، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾.

١٩- إثبات رحمة الله تعالى العامة لجميع الخلق بما في ذلك الكفار.

٢٠- إنكار الكافر قيام الساعة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

٢١- اغتراره بما أوتي من نعمة الله وإحسانه إليه في الدنيا، وأنه سيحصل له مثل ذلك في الآخرة إن كان ثمة رجوع إلى ربه كما يزعم؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكفار بإخبارهم بأعمالهم الباطلة، وتعذيبهم العذاب الشديد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد، وكتابتها عليهم في كتاب لا يغادر صغير ة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٢٥- إعراض الإنسان وانصرافه عن طاعة ربه وشكره حال النعمة، وتباعده

بجانبه، واستكباره عن الحق وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

٢٦- إقباله على دعاء ربه، والتضرع إليه، وعدم صبره إذا مسه الشر والضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، فلا شكر في السراء، ولا صبر في الضراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢٧- أن النعم كلها من الله تعالى، والخير بيديه، والشر ليس إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الآية.

٢٨- الإنكار على المكذبين كفرهم بالقرآن بعد معرفتهم أنه من عند الله، وتهويل عاقبتهم وسوء منقلبهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم من عند الله، وكلامه أنزله على رسوله ﷺ.

٣٠- أنه لا أحد أضل ممن كفر بالقرآن، وكان في شقاق بعيد عن الحق، ومعاندة ومخالفة له مع وضوحه وظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٣١- وعده عز وجل بإظهار آياته للعباد، الدالة على أن القرآن حق، وأنه ﷺ جاء بالحق من الآيات الكونية في آفاق السموات والأرض، ومن النصر والتمكين له ﷺ ولأصحابه، وظهور الإسلام على الأديان كلها وغير ذلك.

ومن الآيات في أنفسهم مما يصيبهم في ذواتهم من المصائب والعقوبات المتتابعة؛ كمصارع كبرائهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾.

٣٢- أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾.

٣٣- كفاية الله تعالى بشهادته على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق،

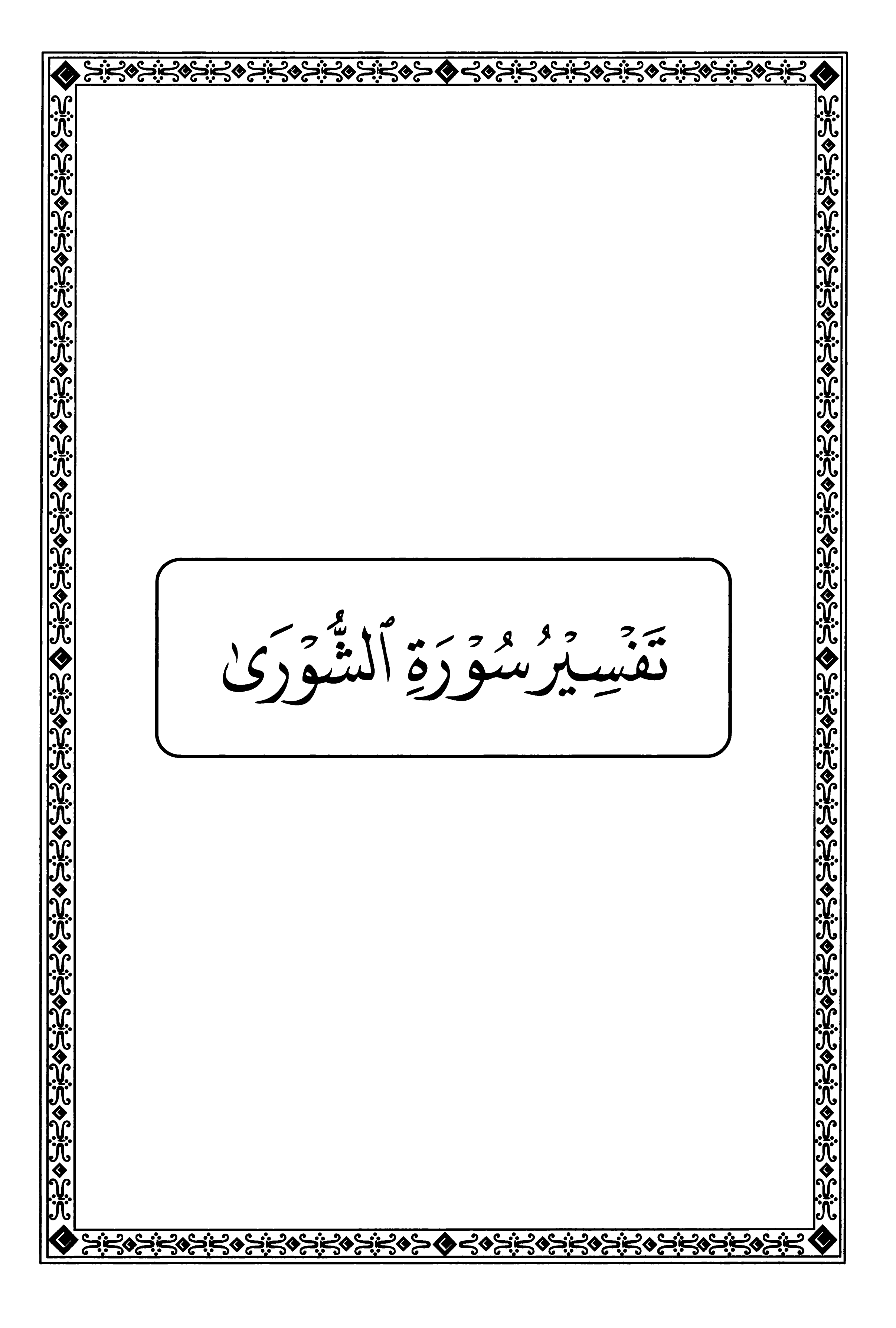
وبشهادته عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣، الإسراء: ٩٦].

٣٤- وجوب مراقبة الله تعالى، والحذر من مخالفته؛ لأنه على كل شيء شهيد، وبكل شيء محيط.

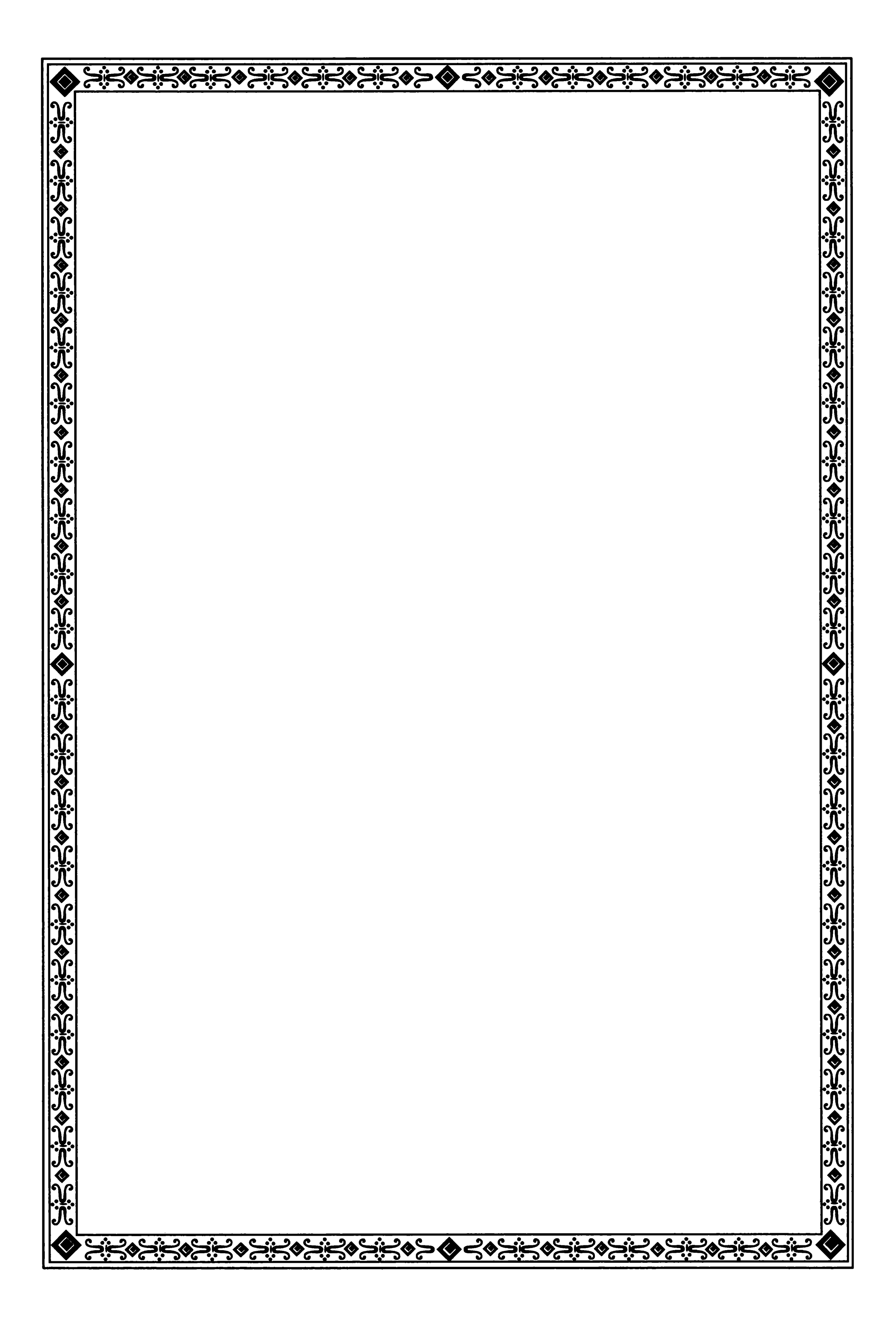
٣٥- شك المشركين وتكذيبهم بلقاء ربهم، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

٣٦- إحاطته عز وجل بكل شيء: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وعلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلشُّورَىٰ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشورى»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية: ٣٨].

وتسمى أيضًا: «سورة حم عسق»؛ لافتتاحها بذلك وتسمى: «سورة عسق».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ - موضوعاتها:

١ - افتتحت «سورة الشورى» بقوله تعالى في مطلعها: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ خمسة حروف من حروف الهجاء، وهي أقص ما جاءت عليه الحروف المقطعة أوائل السور، كقوله: (كهيعص)، والحكمة من ذكر هذه الحروف الدلالة على إعجاز القرآن والتحدي به -كما سبق بيانه.

٢- تعظيم الله عز وجل لوحيه، وبيانه سعة ملكه عز وجل وعلوه وعظمته ومغفرته ورحمته: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

٣ - تهديد المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء، والانكار عليهم، وتسليته ﷺ، وبيان أنه ليس وكيلاً عليهم، وأن مهمته الإنذار فمن أطاع فله الجنة ومن عصا فله السعير، وفق مشيئة الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

٤ - وجوب رد المختلف فيه إلى الله عز وجل، المتفرد بالألوهية، والربوبية، فاطر

السموات والأرض جعل للعباد من أنفسهم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا، ذو الكمال والملك والتدبير: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

٥- الامتنان على هذه الأمة بأنه عز وجل شرع لهم من الدين ما وصى به الأنبياء السابقين وهو إقامة الدين وإخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والحذر من التفرق في الدين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

٦ - عنايته عز وجل بنبيه ﷺ وتأييده له وتقويته لقلبه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

٧ - بيان بطلان حجة الذين يحاجون في الله، ووحدانيته، وغضب الله عليهم، وتوعدهم بعذاب شديد.

٨ - الامتنان على العباد بإنزاله عز وجل الكتاب بالحق والعدل، والتحذير من قرب الساعة: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

٩ - بيان لطفه عز وجل بعباده وتكفله بأرزاقهم، ومجازاته كلًّا بعمله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- ذم المشركين وتهديدهم بالعذاب الأليم، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبشارتهم بالثواب العظيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

١١- إبطال دعوى المشركين أن الرسول ﷺ افترى على الله كذبًا فيما جاء به ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

١٢- بيان سعة رحمة الله تعالى وعفوه وعلمه وفضله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

١٣- حكمة الله تعالى في إنزاله الرزق بقدر ما يشاء: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

١٤- امتنانه عز وجل بإنزال الغيث، ونشر رحمته على العباد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

١٥- أن من آياته عز وجل الدالة على عظمته ووحدانيته وقدرته على البعث: خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة.

١٦- بيان أن ما يصيب العباد من مصائب بسبب كسبهم، ويعفو عز وجل عن كثير.

١٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى، وأن الخلق لا يعجزونه، وما لهم من دونه من ولي ولا نصير.

١٨- بيان أن من آياته عز وجل الدالة على تمام قدرته وسابغ نعمته جريان السفن في البحر كالأعلام: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾.

١٩- امتداح المؤمنين والثناء عليهم باجتناب الكبائر والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة (بهم) وإقام الصلاة، وكون أمرهم شوري بينهم، والانفاق مما رزقهم الله إلى غير ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾.

٢٠- مشروعية الانتصار ممن بغى وظلم والإغراء والحث على العفو والصلح والصبر والمغفرة: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣)﴾.

٢١- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا ولي له من بعده، والوعيد الشديد للظالمين: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾.

٢٢- الأمر بالاستجابة لله عز وجل قبل يوم القيامة، وتهديد المعرضين وتسلية النبي ﷺ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٢٣- أن من طبيعة الإنسان الفرح بالرحمة، والكفر عند حصول النقمة: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

٢٤- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض والخلق وبمنح الذرية ومنعها: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٥- بيان أنواع تكليمه عز وجل لرسله ووحيه إليهم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

٢٦- الامتنان على الرسول ﷺ بما أوحاه الله تعالى إليه من القرآن الكريم، والنور المبين، والشهادة له ﷺ بأنه يهدي إلى صراط الله المستقيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٢٧- بيان أن مرد الأمور كلها في الدنيا والآخرة إلى الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

قوله: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل بعض السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أن الحكمة منها التحدي بالقرآن الكريم، وبيان إعجازه.

وهذه الحروف في أوائل السور منها ما جاء على حرف واحد، ومنها ما جاء على حرفين، ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف، ومنها ما جاء على أربعة أحرف، ومنها ما جاء على خمسة أحرف، وهو الحد الأعلى لها، وهما: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ مطلع سورة مريم، و﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾ مطلع هذه السورة.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ قرأ ابن كثير: «يُوحَى» بفتح الحاء، وألف بعدها، وقرأ الباقون بكسرها، وياء بعدها: ﴿يُوحِيٓ﴾.

والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل»، والإشارة إلى الإيحاء المأخوذ من الفعل

«يوحي»، أي: مثل هذا الإيحاء، يوحي إليك بإنزال هذا القرآن العظيم عليك، ويوحي إلى الذين من قبلك من الأنبياء والمرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول**»، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض**»(٢).

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء. وفي الشرع: إعلام الله تعالى بالشرع لأنبيائه ورسله.

﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، «الله»: فاعل لـ«يوحي»، و«العزيز» و«الحكيم»: نعتان له، أي: ذو العزة والقوة والغلبة والقهر والامتناع، وذو الحكم والحكمة في قدره وشرعه وجزائه، وفي أقواله وأفعاله.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: له خاصة، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، جميع الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه، له علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: ذو العظمة في علوه وكبريائه، وسلطانه وعلمه، وقوته وقدرته،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣٤، وأحمد ٦/ ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

وفي كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء: «يَكَادُ».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَكَادُ﴾.

أي: تكاد السموات على كبرها وعلوها وكونها جمادات.

﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بنون ساكنة بين الياء والفاء، وكسر الطاء وتخفيفها: «يَنْفَطِرْنَ»، وقرأ الباقون بتاء مفتوحة، وفتح الطاء وتشديدها: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾.

أي: يتشققن من فوقهن؛ فَرَقًا من عظمته عز وجل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، أي: انشقت، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: معطوف على «تكاد»، أي: والملائكة الكرام المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، الباء: للملابسة، أي: يقرنون بين تسبيحه بتعظيمه بعبادته والخضوع له، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وبين حمده بوصفه بصفات الكمال.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يطلبون من ربهم المغفرة للذين في الأرض من المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، و«هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد، «الغفور»: ذو المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنها، فلا يعاقبهم عليها؛ ولهذا طلبت الملائكة منه المغفرة للمؤمنين؛ لأنه أهل لذلك؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة العامة لجميع خلقه، التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، وذو الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

لما بين عظمته عز وجل ومغفرته ورحمته، أتبع ذلك بذم المشركين الذين لم يقدروا عظمته، ولم يتعرضوا لمغفرته ورحمته، وتوعدهم مبينًا للنبي ﷺ أنه ليس وكيلًا عليهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: جعلوا من دون الله شركاء من الأصنام يتولونهم ويعبدونهم.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: رقيب وشهيد عليهم، يحفظ أعمالهم ويحصيها، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، أي: وما أنت يا محمد على هؤلاء المشركين بوكيل، تلزمهم الهداية والإيمان، أو تحفظ أعمالهم وتحصيها عليهم؛ كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الإيحاء، ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿قُرۡءَانًا﴾ مفعول لـ«أوحينا»، وهو بيان لمفعول «يوحي» في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾، ونكّر «قرآنًا» للتعظيم، ﴿عَرَبِيّٗا﴾ نعت لـ«قرآنًا»، أي: بلسان العرب ولغتهم، أفصح اللغات وأبينها؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوف

وتحذر ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة شرفها الله، والمراد: لتنذر أهلها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

و«تنذر» ينصب مفعولين، الأول قوله: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، والثاني: محذوف، أي: العذاب العظيم ونحو ذلك، وقد يقدر بـ«يوم الجمع»؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾.

وسميت «مكة»: أم القرى؛ لأن جميع القرى تأوي إليها، والمسلمون في كل مكان يتجهون في الصلاة إليها، ويحجون إليها، ولأنها من أقدم القرى، وهي أشرف القرى والمدن، وأعظم البلاد والبقاع، فعن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرَة[1] في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[2].

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: ومن حول مكة من القرى شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾: معطوف على الجملة التعليلية، والمفعول الأول محذوف، أي: ولتنذر وتخوف وتحذر الناس: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، سمي يوم الجمع؛ لجمع الخلائق كلهم فيه، الأولين والآخرين، في صعيد واحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ «لا»: نافية، والجملة خبرية، أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

﴿فَرِيقٌ﴾، أي: قسم من الناس، وهم المؤمنون، ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ دار النعيم والتكريم.

﴿وَفَرِيقٌ﴾، أي: وقسم منهم، وهم الكافرون الأكثرون، ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: في

---

(١) الحَزْوَرَة: موضع في مكة، والحزورة في الأصل: التل الصغير، سميت بذلك لوجود تلٍّ صغيرٍ فيها.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك، فضل مكة ٣١٠٨، وأحمد ٤/ ٣٠٥، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

النار المسعورة المتوقدة والجحيم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ولو شاء الله لجعل الناس فرقة واحدة، مجتمعة على الهدى والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

ويحتمل أن المعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، إما على الهدى، وإما على الضلال، ولكنه عز وجل لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة على دين واحد، بل شاء أن يجعلهم متفرقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يدخل الذي يشاء منهم في رحمته بهدايته إياهم في الدنيا وتوفيقهم للإيمان، وهدايتهم في الآخرة إلى الجنة دار السلام.

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالكفر والشرك ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ «من»: لتوكيد النفي، أي: ما لهم أيّ ولي يتولاهم، فيجلب لهم الخير، ولا نصير ينصرهم فيدفع عنهم الشر والضير.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾.

٢- أن إيحاءه عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ مثل إيحائه إلى الذين من قبله من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾.

٣- إثبات رسالته ﷺ؛ وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات نبوة الرسل من قبله، ووحي الله إليهم.

٤- إثبات اسم الله: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو القوة والقهر والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

٥- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم والحكمة في شرعه وقدره وجزائه، في أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال، فكم من إنسان عنده شيء من العزة لكنه يفقد الحكمة، وكم من آخر عنده شيء من الحكمة، لكنه يفقد العزة والقوة، وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

٧- إثبات سعة ملكه عز وجل، وأن له وحده خاصةً جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٨- إثبات اسمه عز وجل: «العلي»، وأن له عز وجل العلو المطلق على خلقه، علو الذات، وعلو الصفات، علو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، وقوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

٩- إثبات اسمه تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، وأنه سبحانه ذو العظمة التامة في جميع صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٠- إثبات عظمة الله تعالى، وخضوع جميع المخلوقات وفَرَقها من شدة عظمته، بما في ذلك السموات التي هي من أعظم المخلوقات وأعلاها، والملائكة المقربون؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وتسبيحهم بحمد ربهم، واستغفارهم للمؤمنين.

١٢- استحباب قرن التسبيح بالتحميد؛ لما في التسبيح من تنزيه الله وتعظيمه، ولما في الحمد من وصفه عز وجل بصفات الكمال، ففي التسبيح نفي النقص عنه، وفي الحمد إثبات الكمال له سبحانه وتعالى.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

١٤- منة الله تعالى على المؤمنين بتسخيره الملائكة يستغفرون لهم.

١٥- فضيلة الإيمان وأهله؛ لتسخير الله عز وجل لهم الملائكة تستغفر لهم.

١٦- إثبات اسم الله عز وجل: «الغفور»، وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، يغفر ذنوب التائبين كلها، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾.

١٧- إثبات اسم الله: «الرحيم»، وإثبات رحمته العامة لجميع الخلق، ورحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٨- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدّم «الغفور» على «الرحيم»، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

١٩- ذم المشركين الذين لم يقدروا عظمة الله تعالى، ولم يتعرضوا لمغفرته ونفحات رحمته، وتهديدهم بحفظه عز وجل لأعمالهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٠- سعة علم الله، وأنه عز وجل حفيظ على العباد وعلى أعمالهم؛ مما يوجب عليهم مراقبته في السر والعلن.

٢١- تسليته عز وجل للنبي ﷺ وطمأنته له، ببيان أنه عز وجل حفيظ على المشركين وتهديده إياهم، وبيان أنه ﷺ ليس بوكيل عليهم يلزمهم الهداية، أو يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى.

٢٢- أنه ﷺ ليس عليه بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب سبحانه وتعالى.

٢٣- امتنانه عز وجل عليه ﷺ بوحيه إليه هذا القرآن، وكونه عربيًّا بأفصح اللغات وأبينها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٢٤- أن القرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله أضافه إلى نفسه، فقال: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾، والقرآن كلام، فهو كلام الله منزل غير مخلوق.

٢٥- تعظيم الله عز وجل لكتابه «القرآن»، والتنويه بكونه بلسان العرب ولغتهم أفصح اللغات؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٢٦- شرف وفخر للعرب أن يكون القرآن بلغتهم، فعليهم شكر الله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والمنة العظمى، والقيام بمسؤوليتهم، ونشر رسالته في العالم أجمع، والحفاظ على لغتهم، لغة القرآن الخالدة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

٢٧- حكمة الله تعالى في إرساله الرسل، وإنزاله عليهم الكتب بلغتهم ولغة أقوامهم؛ كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢٨- وجوب الحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن، والتأكيد على تعلمها بقدر ما يفهم الإنسان به القرآن وأمر دينه.

٢٩- أن الحكمة من إنزال القرآن إنذار الناس وتحذيرهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وفي طي هذا الإنذار لا بد من بيان التكاليف التي بامتثالها تحصل السلامة مما أُنذر وحُذّر منه، بل وتحصل به البشارة.

٣٠- فضل مكة وشرفها على سائر القرى والبلدان، بتشريفه عز وجل لها، وجعلها أم القرى.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ الآية، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعاله، وزعمهم أنه يفعل لمجرد المشيئة، تعالى الله عن ذلك.

٣٢- إثبات يوم القيامة، وجمع الخلائق فيه، وأن من حكمة إنزال القرآن: الإنذار والتحذير من ذلك اليوم وأهواله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

٣٣- أن يوم جمع الخلائق كائن لا شك فيه، وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق في الجنة وهم المؤمنون، وفريق في النار وهم الكافرون الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

٣٥- إثبات تمام قدرته تعالى على جعل الناس- لو شاء- أمة واحدة كلهم على الإيمان، أو على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، وفي هذا تسلية له ﷺ، فلا يحزن على ضلال من ضل.

٣٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم، وإن الله لا يشاؤها ولا يخلقها، ولا يعلم بها إلا إذا صدرت منهم. تعالى الله عن ذلك.

٣٨- أنه عز وجل شاء ألا يكون الناس أمة واحدة، بل شاء بحكمته أن يكونوا فريقين، مؤمنين يدخلهم في رحمته الفعلية فضلًا منه، وظالمين ما لهم من ولي ولا نصير، عدلًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٣٩- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة، وجنته.

٤٠- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير الخلق في الأزل، وكل ميسر لما خلق له.

٤١- التحذير من الظلم بالكفر والشرك؛ لأنه لا ولي للظالمين يجلب لهم الخير والرحمة، ولا نصير لهم يدفع عنهم العذاب والنقمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ومفهوم هذا: أنه سبحانه ولي المؤمنين العادلين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾.

قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتخذوا من دونه، أي: جعل هؤلاء المشركون غير الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، أي: آلهة يوالونهم ويعبدونهم، ويستغيثون بهم ويستنصرون.

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الفاء: تعليلية، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: فالله وحده هو الولي الحق، ولاية عامة لجميع الخلق، يدبرهم ويتولى شؤونهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وولاية خاصة للمؤمنين؛ يوفقهم، وينصرهم، ويؤيدهم، ويسددهم، والذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، ولا الاستغاثة إلا به.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾: معطوفة على جملة: «الله هو الولي»، وضمير الفصل «هو» يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده القادر على إحياء الموتى.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: معطوفة على جملة: «هو يحيي الموتى».

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بالخبر «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، فلا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فأنكر عز وجل على المشركين اتخاذهم آلهة يوالونهم ويعبدونهم من دونه، وهو سبحانه المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الولي الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى، وذو القدرة على كل شيء.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ «من»: بيان لإبهام «ما»، أي: وما اختلفتم فيه من أيِّ شيء من الدين وغيره.

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: فحكمه مردود إلى الله وحده في الدنيا والآخرة، أي: إلى كتابه، وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الله الذي أمرتكم برد ما اختلفتم فيه من شيء إليه.

﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿رَبِّي﴾ لا رب لي غيره، ولا معبود بحق سواه.

وأشار إليه بإشارة البعيد للتعظيم، أي: ذلكم الله العظيم ربي.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمري كله عليه، تفويضًا تامًّا، مع صدق الاعتماد عليه، والثقة به في جلب النفع، ودفع الضر.

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: وإليه وحده أتوجه بقلبي وبدني؛ إخلاصًا وطاعة له، وأرجع إليه في جميع أموري وأحوالي، فلا أعبد سواه، ولا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما بقدرته ومشيئته وحكمته، وما بينهما على غير مثال سبق؛ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ١٠١].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: خلق لكم من جنسكم أزواجًا، فجعلكم ذكرًا وأنثى؛ ليحصل بينكم التزاوج، ويسكن بعضكم إلى بعض، ويحصل بينكم التناسل، منة منه تعالى عليكم، ودلالة على كمال قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وخلق لكم من الأنعام ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أي: ثمانية أواج، ذكر وأنثى؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وذلك لكي تبقى وتتناسل وتنمو وتتكاثر؛ لمنافعكم ومصالحكم.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير في «يذرؤكم» يعود إلى الأناسي والأنعام بتغليب العقلاء.

والهاء في قوله: «فيه» ضمير يعود إلى «الجعل»، المفهوم من قوله: «جعل لكم».

ومعنى الذرء: الخلق والبث والنشر الكثير، أي: يخلقكم ويبثكم وينشركم فيه؛ كما

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، أي: خلق وذرأ ونشر منهما، وقال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أي: خلق وبث ونشر.

والمعنى: يذرؤكم بسبب جعله لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا، أي: يخلقكم ويبثكم ويكثركم بسبب ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف: زائدة للتوكيد، أي: ليس مثله عز وجل شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لتفرده بصفات الكمال، ونعوت الجلال؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

قال السعدي[1]: «أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه».

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لما نفى أن يكون كمثله شيء من أي وجه ردًّا على الممثلة، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردًّا على المعطلة.

و«السميع»: اسم من أسمائه عز وجل، يدل على أنه ذو السمع الواسع الذي يدرك جميع المسموعات، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية»[2].

و«السميع»: الذي يستجيب الدعاء؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مستجيب الدعاء، واستجابته تستلزم سماعه بلا شك، وكما

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٥٩٧.
(٢) سبق تخريجه.

في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب، فهو عز وجل السميع الذي يسمع جميع الأصوات، ويجيب الدعوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ من أسمائه عز وجل، أي: الذي يرى ويدرك ببصره جميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أي: يحيط بها ويراها.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١)، أي: لأحرقت سبحات وجهه- يعني: بهاءه وعظمته- كل شيء؛ لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

ومن معاني «البصير»: «العليم»؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، أي: عليم بهم، مطلع عليهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، أي: بصير بجميع الذي تعملونه مما يرى، ومما لا يرى، بل يعلم كل أعمال القلوب.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده أزمة الأمور في السموات والأرض، وبيده تدبيرهما ومفاتيح خزائنهما؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يوسع العطاء للذي يشاؤه من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويضيقه على من يشاء بحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فيعلم سبحانه أحوال عباده، فيعطي كلًّا منهم ما يليق بحكمته وما تقتضيه مشيئته؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن لا يصبر؛ كما جاء في الأثر: «**من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا**

(١) سبق تخريجه.

يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه»[١].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾: تعليل لبسطه الرزق لمن يشاء، وتضييقه على من يشاء، وذلك لعلمه بكل شيء، وبأحوال عباده، واللائق بكل منهم من بسط الرزق أو تضييقه، وهو سبحانه الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته.

أي: شرع لكم من الدين الذي وصى به نوحًا عليه السلام، أول الرسل عليهم السلام.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]من الدين والشرع. والوصية: العهد بأمر هام.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الواو: عاطفة، والموصول في محل نصب عطفًا على «ما»، أي: وشرع لكم الذي أوحينا إليك، وهو القرآن الكريم والسنة، وما اشتملا عليه من الشرع.

﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ «ما» في محل نصب عطفًا على «ما» في قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾، أي: وشرع لكم الذي وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى.

وهؤلاء الرسل الخمسة هم أولو العزم من الرسل، فذكر أولهم وهو نوح عليه السلام، ثم ذكر آخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر ما بين ذلك وهم: إبراهيم وموسى

---

(١) سبق تخريجه.

وعيسى عليهم السلام؛ كما ذكرهم في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وأفضلهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى عليهما السلام، واختلف في نوح وعيسى عليهما السلام: أيهما أفضل؟

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ «أن» والفعل «أقيموا» في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو، أي: هو إقامة الدين، أو في محل جر بحرف محذوف، أي: بإقامة الدين، أو في محل نصب بدل من الموصول في قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ﴾ وما عطف عليه.

ويجوز كون «أن» تفسيرية.

ومعنى «أقيموا الدين»: ائتوا به مستقيمًا كما شرعه الله بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وطاعته بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»[١]، أي: ديننا واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته، وإن اختلفت الشرائع والمناهج؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال السعدي[٢]: «هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده: أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، فلولا الدين الإسلامي ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٥٩٩.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، أي: ولا تتفرقوا في الدين، فتكونوا شيعًا وأحزابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: عظم واشتد عليهم غاية الشدة الذي تدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث، والإيمان بالغيب، وأنكروا ذلك أشد الإنكار؛ كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٥، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢، ٣].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: يختار ويصطفي إلى نفسه، وإلى توحيده ودينه؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاؤه عز وجل من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: ويوفق إليه عز وجل، وإلى دينه ﴿مَن يُنِيبُ﴾، أي: الذي ينيب ويرجع إليه، ويستقيم على طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها**» الحديث[1].

وقال عز وجل أيضًا في الحديث القدسي: «**من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[2].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما» في قوله: ﴿بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾: مصدرية، أي: من بعد مجيء العلم إليهم، أي: وما تفرق أهل الكتاب وغيرهم من الأمم، فآمن بعضهم بوحدانية الله، وكفر بعضهم، إلا من بعد مجيء العلم إليهم على ألسنة الرسل، وقيام الحجة عليهم، الموجبة للاجتماع والائتلاف، لا التفرق والاختلاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ «بغيًا»: مفعول لأجله، أي: بسبب البغي بينهم، والعدوان من بعضهم على بعض، والتباغض والتحاسد والمشاحنة، والعناد والمشاقة.

وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يختلفوا كما اختلف أهل الكتاب وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بين أظهرهم؛ بسبب اختلاف المذاهب والآراء واتباع الأهواء، وعدم التحاكم إلى الكتاب والسنة، كما هو حالهم اليوم، وصدق المصطفى ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[3].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الواو: عاطفة في الموضعين،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء، الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٥٦، ومسلم في العلم ٢٦٦٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

و«لولا»: شرطية غير عاملة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك بإنظار الخلائق، وتأخير الحساب والجزاء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين وهو يوم القيامة.

﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لفصل وحكم بينهم في الدنيا، بإهلاك المشركين المكذبين، وإنجاء المؤمنين الموحدين.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: القرآن، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي شك شديد ﴿مِّنْهُ﴾، أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والقلق؛ لشدته.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، أي: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد أسلافهم، أي: الذين خلفوهم في الكتاب.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي: من كتابهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة الشديدة والاختلاف، فكما اختلف سلفهم فيه بغيًا وعدوانًا، اختلف خلفهم فيه شكًّا وارتيابًا.

وقيل: لفي شك من الرسول ﷺ، أو القرآن.

والأظهر أن المراد بالكتاب: القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المفهوم من قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، أي: إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، والخطاب للنبي ﷺ.

أي: فلإقامة الدين، وعدم التفرق فيه، يا محمد ﴿فَٱدْعُ﴾ أمتك.

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، أي: واستقم بنفسك على ذلك الدين؛ كما أمرناك، أي: استقم استقامة موافقة لأمر الله لك أنت ومن اتبعك؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] فأمره أن يستقيم بنفسه، وأن يدعو

غيره للاستقامة على ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: ولا تتبع أهواء المكذبين والكفار، فيما يطلبون منك من الميل عن طريق الاستقامة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

﴿وَقُلْ﴾ لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾، أي: صدقت بجميع الذي أنزل الله من الكتب على الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أي: وأمرت بما أمرت به من الشرع والحق؛ لأجل أن أعدل بينكم، أو: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم فيما اختلفتم فيه.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: الله ربنا جميعًا، نحن وإياكم، ورب الخلائق كلهم، وذلك يوجب علينا وعليكم عبادته وحده، لا شريك له.

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نحاسب ونجازى عليها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تحاسبون وتجازون عليها، وكل منا بريء من عمل الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، أي: لا خصومة ولا جدال بيننا بعد أن تبين الحق من

الباطل، والهدى من الضلال، وكابرتم وعاندتم، أي: أن الجدال معكم ليس بذي جدوى، ولا فائدة، بعد ردكم الحق بعد ظهوره.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، أي: يوم القيامة، فيفصل بيننا ويجازي كلًّا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده المرجع والمآل في جميع الأمور والأحوال، وإليه الإياب، وعليه الحساب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾، أي: يجادلون ويخاصمون في الله، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وفي دينه وشرعه، وقدره، وغير ذلك.

﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من بعد استجابة المؤمنين له، ودخولهم في دين الله، لَمَّا تبين لهم بالآيات البينات أنه الحق.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: باطلة أشد البطلان، زاهقة زائلة ذاهبة عند ربهم؛ لأن الحق أبلج، وهو أبين من الشمس في رابعة النهار، والباطل لجلج، حالك كالليل؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكما قال المتنبي لما عاتبه صديق له قد وُشي إليه أنه قد هجاه، قال(١):

وهبني قلت: هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء؟

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله، ومن أوليائه؛ من رسله وأنبيائه، وعباده المؤمنين.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: قوي في الدنيا والآخرة، بسبب محاجتهم بالباطل،

---

(١) انظر: «ديوان المتنبي» ص٢.

وغضب الله عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «ال»: للجنس، أي: الذي نزل الكتب السماوية ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: أنها نزلت ملابسة ومصاحبة للحق، أي: نزلت حقًّا من عند الله، وجاءت مشتملة على الحق.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: العدل؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧- ٩].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يعلمك أيها المخاطب، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، أي: قريبة، قال بعض أهل العلم: ولم يقل: «قريبة»؛ لأن «قريب» يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويحتمل أن التقدير: لعل إتيان الساعة وقيامها قريب.

وفي هذا تخويف للمستعجلين بقيام الساعة المنكرين لها.

وهي قريبة حقًّا؛ لأن كل آتٍ قريب، وكل من مات قامت ساعته وقيامته، والدنيا قليل بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

ولهذا قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾، أي: يطلب تعجيل قيامها، قائلين: متى الساعة؟ أيان مرساها؟ استبطاءً وإنكارًا لها؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: الذين لا يصدقون بها، بل يكذبون بها وينكرونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: الذين آمنوا بالله وبما أوجب الإيمان به، من أركان الإيمان الستة وغيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ الإشفاق: أشد الخوف، أي: خائفون منها خوفًا شديدًا، وجلون من وقوعها مع استعدادهم لها.

فهم بين الخوف والرجاء؛ لمعرفتهم بربهم، وأنه لا ينجو في ذلك اليوم أحد بعمله، ولكن برحمة أرحم الراحمين، وفضله.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه، وأنها كائنة لا محالة؛ ولهذا استعدوا لها.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إن الذين يجادلون ويحاجون في الساعة، في قيامها ووقوعها؛ إنكارًا واستبعادًا لها، وتكذيبًا بها.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي ضلال بعيد كل البعد عن الحق والهدى، وفي جهل مطبق؛ إذ كيف يمارون فيها وقد أخبر الله عز وجل في كتابه عن قيامها ووقوعها، وتمام قدرته عز وجل على ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين الذين جعلوا من دون الله آلهة يوالونهم ويعبدونهم؛

(١) سبق تخريجه.

لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

٢- أن الولي الحق هو الله تعالى وحده، فهو ولي جميع الخلق ولاية عامة، وهو ولي المؤمنين ولاية خاصة، وهو المستحق للعبادة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾.

٣- إثبات قدرة الله التامة على إحياء الموتى، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

٤- وجوب رد ما اختلف فيه من شيء إلى حكم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾.

٥- أن الاختلاف أمر كائن بين الناس قدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

٦- أن إجماع الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتعظيمه ﷺ لربه، وتوكله عليه، وإنابته إليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، وقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾.

٨- وجوب الإقرار بربوبية الله تعالى، والتوكل عليه، والإنابة إليه وحده، أسوة به ﷺ.

٩- إثبات عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، الذي فطر السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

١٠- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرته عز وجل، وحكمته بجعله لهم من جنسهم أزواجًا؛ ليسكن بعضهم إلى بعض، ويحصل التناسل بينهم وتكثيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾.

١١- نعمة الله تعالى على العباد؛ حيث جعل لهم من الأنعام أزواجًا، تتوالد وتتكاثر، يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويركبون ما يركب منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾.

١٢- إثبات كماله عز وجل في ذاته وأسمائه وصفاته، وأنه لا مثل له ولا ند ولا عديل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وفي هذا دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة في نفي مماثلة المخلوقات له عز وجل، ورد على المشبهة.

١٣- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وأنه السميع الذي يجيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، وذو البصر الذي يبصر ويرى ويحيط علمًا وبصرًا بجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وفي هذا دلالة على إثبات الصفات له عز وجل؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على الجهمية المعطلة.

١٤- أن لله عز وجل وحده مقاليد السموات والأرض، وأزمة تدبيرها ومفاتيح خزائنها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- تفرده عز وجل بأرزاق الخلق كلهم، يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء بعلمه وحكمته وعدله ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

١٧- أن تقسيم الله عز وجل للأرزاق بين العباد وفق مشيئته وحكمته، وليس مقرونًا بمحبته، فيبسط الرزق لمن يحب، ولمن لا يحب، ويضيقه على من يحب، وعلى من لا يحب.

١٨- سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٩- أن الدين هو ما شرعه الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ ولهذا أنكر عز وجل على المشركين؛ فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٢٠- أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد، من أولهم نوح عليه السلام، إلى خاتمهم

محمد ﷺ، ووصية الله لهم جميعًا بإقامة الدين؛ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وعدم التفرق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ووحيه، أوحاه إلى النبي ﷺ.

٢٢- إثبات رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، وأحد أولي العزم، ورسالة محمد ﷺ خاتمهم، وأفضل أولي العزم، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات رسالة إبراهيم عليه السلام ثاني أولي العزم، ورسالة موسى عليه السلام ثالثهم، ورسالة عيسى عليه السلام آخر الرسل قبل محمد ﷺ، وأحد أولي العزم.

٢٣- وجوب إقامة الدين؛ كما شرع الله، والحذر كل الحذر من التفرق فيه.

٢٤- خطر التفرق في الدين؛ لهذا نهى الله عنه الرسل وأممهم، وحذرهم منه، فما هلك كثير من الأمم إلا بسبب تفرقهم في الدين، وعدم إقامتهم له كما شرعه الله تعالى؛ فمنهم من غلا في الدين، وتجاوز ما حده الله، فألّهوا الرسل والأولياء، وعبدوهم من دون الله، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والرافضة غلوا في آل البيت وعبدوهم من دون الله، والمشركون عبدوا أصحاب القبور، وزعموا أنهم يقربونهم إلى الله، والخوارج أخرجوا أصحاب الكبائر من الملة، واستحلوا- هم والرافضة أخزاهم الله- دماء المسلمين، إلى غير ذلك من الفرق التي هي أبعد ما يكون عن الدين، كل ذلك بسبب الغلو والاختلاف.

وقد قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»[١].

وقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»[٢].

وأعظم من هذا كله وأشد: ما وقع من الاختلاف والتفرق بين المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة، والذين يُعَدُّون هم البقية الباقية، فما أصاب الأمة الإسلامية ما أصابها

(١) أخرجه النسائي في المناسك، باب: التقاط الحصا ٣٠٥٧، وابن ماجه في المناسك، قدر حصا الرمي ٣٠٢٩، وأحمد ١/ ٢١٥؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

من الضعف والذل والهوان، وتسلط الأعداء من الرافضة ومن خلفهم، إلا بعد أن تفرق أهل السنة شِيَعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى إن منهم من مالأ الرافضة، وهم أشد أعداء الإسلام والمسلمين اليوم، طعنوا في ربوبية الله، فادعوا أن تدبير الكون لآل البيت، واتهموا جبريل عليه السلام بالخيانة لإعطائه الرسالة لمحمد وقد كانت لعلي- كما يزعمون- وكذَّبوا القرآن، وقالوا: إنه محرَّف، واتهموا النبي ﷺ بالتقصير والعجز عن أداء الرسالة، وحكموا على الصحابة بالكفر والردة، وأخذوا يلعنونهم، واتهموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، وقتلوا وحدهم من المسلمين ما لم يقتله جميع أعداء الإسلام غيرهم، وبأشنع القتلات، فمن والاهم فهو محارب لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢٥- إنكار المشركين ما يدعوهم إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، ومشقة ذلك عليهم غاية المشقة؛ لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

٢٦- اصطفاء الله تعالى لنفسه ولدينه وتوحيده من يشاء من عباده، وهدايته وتوفيقه إليه من ينيب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

٢٧- إثبات القدر، وأن من شاء الله هدايته هداه، ومن شاء أضله، وفي هذا رد على القدرية.

٢٨- الترغيب والحث على الإنابة إلى الله تعالى.

٢٩- أن من التمس طريق الهداية، وأناب إلى الله تعالى، وقصد وجهه، وحسن قصده، واجتهد في ذلك هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي هذا رد على الجبرية.

٣٠- ذم المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم، وأنهم لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم على ألسنة الرسل، وقامت الحجة عليهم؛ بغيًا بينهم، وعدوانًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

٣١- أن من حُرم التوفيق لا ينفعه ما أوتيه من العلم، فلا يغتر بعلمه، فكم من شخص غير متعلم يفوق كثيرًا ممن ينتسبون إلى العلم في زهده واستقامته ودينه.

٣٢- استحقاقهم للعذاب العاجل، وتوعدهم وتهديدهم بالعذاب الآجل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، وأن لذلك أجلًا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٣٤- إثبات كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣٥- إثبات تقدير الآجال، وأن الله جعل لكل أجل كتابًا.

٣٦- شك الذين أُورثوا الكتاب من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم في القرآن، شكًّا عظيمًا موقعًا في الريبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

٣٧- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعوة إلى الدين القويم الذي شرعه له، والاستقامة كما أمره تعالى، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾.

٣٨- نهي الله عز وجل له ﷺ عن اتباع أهواء أهل الكتاب، وهو نهي له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾.

٣٩- أنه ﷺ ليس له من الأمر شيء، وإنما هو مبلغ عن الله تعالى، يؤمَر ويُنهَى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾ الآية. وفي هذا رد على من يرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٤٠- أمره بإعلان إيمانه بجميع ما أنزل الله من الكتب؛ لأن القرآن مصدق لها جميعًا، ومهيمن عليها، والإيمان بها واجب عليه وعلى أمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾.

٤١- إثبات أن الكتب السماوية كلها منزلة من عند الله وكلامه، وغير مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى.

٤٣- أمره عز وجل له ﷺ بالعدل بين أهل الكتاب وغيرهم، فلا تحمله عداوة من عاداه ومخالفتهم له على ترك العدل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

٤٤- تقريرهم بربوبية الله تعالى له ولهم ولجميع الخلائق، فلا رب غيره؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، ومِن لازِم هذا أن يعبده الجميع وحده، دون سواه.

٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ وبالمؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٤٦- أن لكلٍّ عمَلَه من خير أو شر، وجزاءَه؛ لقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٤٧- لا جدوى ولا فائدة من الجدال مع من تبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وكابر وعاند؛ لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

٤٨- إثبات جمعه عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، والمصير إليه، وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤٩- بطلان جميع حجج المجادلين في الله وفي دينه، بعد ظهور الحق، واستجابة الناس له، ودخولهم في دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وكما قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

٥٠- غضب الله عليهم، وتهديدهم بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وفي هذا تحذير من المجادلة في دين الله بالباطل.

٥١- إثبات صفة الغضب لله عز وجل على ما يليق بجلاله، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.

٥٢- أن مَن غَضِبَ الله عليه عذبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٥٣- تعظيمه عز وجل لنفسه، وثناؤه عليها، بإنزاله كتبه بالحق، وشرعه بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

٥٤- التهديد بقرب قيام الساعة، والتخويف للمستعجلين بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

٥٥- أنه ﷺ لا يعلم متى قيام الساعة.

٥٦- استعجال المكذبين بالساعة؛ استبعادًا وإنكارًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

٥٧- إشفاق المؤمنين وخوفهم منها؛ لعلمهم أنها الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾.

٥٨- أن المؤمن مهما عمل فهو بين الخوف والرجاء، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، ويعلم أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، وإنما برحمة أرحم الراحمين وفضله.

٥٩- إغراق المجادلين في الساعة ووقوعها- تكذيبًا بها وإنكارًا لها- في الضلال، والبعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ۝٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ۝٢٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٢﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، أي: ذو لطف عظيم بعباده، يدرك أسرار الأمور وحكمها الدقيقة، ويحسن إلى عباده وييسر لهم، ويرفق بهم، ويوصل لهم الخير من حيث لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم.

قال ابن القيم:

وهـــو اللطيـــف بعبـــده ولعبـــده ... واللطـــف في أوصـــافه نوعـــان

إدراك أسرار الأمـــــور بحكمـــــة والللطـف عنـد مواقـع الإحسـان[1]

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطي الذي يشاء من عباده الرزق، ويوسع عليهم بحكمته ولطفه.

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾، أي: شديد القوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، أي: الشديد القوة، الذي لا حول ولا قوة إلا به.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: من كان يريد بعمله ﴿حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: أجرها وثوابها، بالسعي لها.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، أي: في عمله وثوابه، فنوفقه لزيادة العمل الصالح، بإتباع الحسنة الحسنة بعدها، ونؤته نصيبه من الدنيا وافيًا، ونضاعف له أجر الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعَدْل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**»[2].

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: من كان يريد بسعيه وعمله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾،

---

(١) النونية ص ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٠، ومسلم في الزكاة ١٠١٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٥، والترمذي في الزكاة ٦٦١، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٢.

أي: نفعها العاجل، والتنعم فيها، وكانت غاية همه، ومبلغ علمه، وسعى لها وحدها، وليس له أي همة في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، أي: نعطه من الدنيا ما قُسِم له، لا كل ما أراد؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما له في الآخرة أيّ نصيب- أي: من الأجر والثواب، قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦] .

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»**[(١)].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل ألهم شركاء من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس، من دعاة الكفر والضلال؟

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، أي: شرعوا لهم من الشرك والبدع، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ شرعًا، بل حرمه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١)﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه**[1] **في النار، وكان أول من سيب السوائب**»[2].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: القضاء السابق بتأجيل الحساب والجزاء والفصل إلى يوم القيامة.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾ وبين المؤمنين بتعجيل عقابهم في الدنيا؛ لاستحقاقهم لذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩، هود: ١١٠، فصلت: ٤٥].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في نار جهنم.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب لغير معين، أي: ترى الظالمين في عرصات القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أي: خائفين أشد الخوف.

﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾، أي: من كسبهم، أو من الذي كسبوه من الظلم والشرك والكفر، أن يجازوا عليه، ويعذبوا به.

﴿وَهُوَ﴾، أي: والذي يخافون منه وهو مجازاتهم على كسبهم، ﴿وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ لا محالة في ذلك اليوم؛ لانعقاد أسبابه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

لما ذكر حال الظالمين، وشدة خوفهم من سوء عملهم، وتوعدهم، ذكر حسن حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٦.

أي: والذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحة، الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه بجوارحهم.

﴿فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾، «روضات»: جمع «روضة»، وهي الأراضي والغياض الخصبة، التي تتدفق إليها السيول من المرتفعات والجبال، وتجتمع فيها، فترتوي، فتنبت أنواع النباتات والأشجار المختلفة المثمرة، ذات الخضرة والألوان الجميلة، والزهور المتفتحة والمناظر، وشتان بين هذا وبين ﴿رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ التي يكفيها إضافتها إلى الجنات، فلا تسأل عما فيها من بهجة الرياض المونقة، والأنهار المتدفقة، والنبات والأشجار المثمرة، والمناظر الخلابة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، وغير ذلك.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، أي: لهم الذي يشاؤونه من ألوان النعيم، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب، والمناكح والمناظر، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[(١)].

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: من ربهم وعنده، فأعظِم بهذا النعيم، وأكرم به. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما أُعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من حسن المقام في روضات الجنات، وإعطائهم ما يشاؤون من النعيم عند ربهم.

﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبر منه ولا أعظم، ولا أتم ولا أكمل؛ لأن الذي منحه لهم ووصفه بذلك هو ذو الفضل الكبير.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «يَبْشُرُ» بفتح الياء، وسكون الباء، وضم الشين مخففة، وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين مكسورة: ﴿يُبَشِّرُ﴾.

والإشارة لقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: ذلك الفضل الكبير الذي يبشر الله به عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: حاصل وكائن لهم لا محالة.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش: لا أسألكم على تبليغي إياكم رسالة ربكم ونصحي لكم ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجرًا دنيويًّا من مال أو غيره.

﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن أسألكم المودة في القربى، أي: ألا تؤذوني، وأن تَدَعوني أبلغ رسالة ربي؛ لما بيني وبينكم من القرابة، أي: إن لم تنصروني، فلا تؤذوني لقرابتي منكم.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: ومن يكتسب عملًا صالحًا وطاعة؛ من صلاة وزكاة، وصيام وحج، وبر بالوالدين، وصدقة، وغير ذلك.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: نوفقه لكسب الحسنة بعدها؛ كما قال بعض السلف: «من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها»(١).

وأيضًا: نزد له فيها حُسنًا بمضاعفة أجرها وثوابها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، يغفر ذنوب التائبين كلها بسترها والتجاوز

---

(١) ذكره ابن تيمية، ونسبه لسعيد بن جبير. انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١. وانظر: «طريق الهجرتين» ص٢٧٣، «شعب الإيمان» ٩/ ٣٨٤ (٦٨٢٩).

عنها، ويغفر ما دون الشرك لمن شاء من عباده.

﴿شَكُورٌ﴾ يعطي الأجر الجزيل على العمل القليل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم»: هي المنقطعة بمعنى «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول هؤلاء المشركون المكذبون: افترى محمد، أي: اختلق على الله كذبًا، أي: كذب على الله بقوله: إن القرآن كلام الله؟ أي: فليس القرآن كلام الله، وإنما هو مفترٍ كاذب.

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: يطبع على قلبك، وينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي؛ كما قال قتادة: «إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي»[1].

يعني: لو افتريت على الله كذبًا، وهذا على سبيل الفرض والتقدير؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

وقال مجاهد: «إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك». ذكر هذا ابن القيم، ورجحه من وجوه[2]. والأظهر القول الأول.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، أي: يزهقه، ويمحقه، ويزيله، ويذهبه.

﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: ويثبت الحق ويبينه، ويظهره ويوضحه، بكلماته الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير؛ كما قال تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥، الكهف: ٢٧]، وبكلماته الشرعية الدينية، الدالة على الحق، التي أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة تعليلية، أي: ذو علم واسع تام بما تكنه الصدور والقلوب والسرائر، من المضمرات والأسرار.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥٠٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١١٦.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: يقبل توبتهم بعد أن وفقهم إليها، ويستر ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»(١).

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: يمحوها ويتجاوز عنها، فلا يعاقب عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

والسيئات: جمع «سيئة»، وهي: كل ما خالف الشرع، من ترك واجب، أو ارتكاب محرم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالخطاب، على الالتفات: ﴿تَفْعَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيبة: «يَفْعَلُونَ».

أي: ويعلم فعلكم، أو: الذي تفعلونه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة، خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواو: عاطفة، والسين والتاء للمبالغة، و«يستجيب» أبلغ من «يجيب»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

أي: يستجيب دعاء الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات، الخالصة لله، الموافقة لشرعه، بجوارحهم، فيعطيهم ما يسألون؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٤٧، وأخرجه البخاري مختصرًا في الدعوات ٦٣٠٩.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ فيعطيهم فوق ما يسألون وأضعافه، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ مما لم يستحقوه بأعمالهم، وما لم يخطر ببالهم؛ من الأجر الجزيل، والثواب العظيم، فضلًا منه وجودًا وكرمًا.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر ما أعد للمؤمنين من الاستجابة والزيادة والفضل، ذكر ما للكافرين من العذاب الشديد.

أي: لهم عذاب قوي مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

الفوائد والأحكام:

١- لطف الله عز وجل التام بعباده، ولطفه لهم بالإحسان إليهم، والرفق بهم، والتيسير عليهم، وإدراكه أسرار الأمور وحكمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل؛ كما أن من أسمائه عز وجل: «اللطيف».

٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

٤- تكفله عز وجل بأرزاق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾.

٦- أن رزق الله تعالى للخلائق مقرون بمشيئته وحكمته، وليس مقرونًا بمحبته، فيرزق عز وجل بمشيئته وحكمته البر والفاجر، وقد يمنع الرزق عمن يشاء منها.

٧- إثبات اسمي الله عز وجل: «القوي»، و«العزيز»، وصفتي: «القوة» و«العزة» التامتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٨- كرم الله عز وجل ووعده الذي لا يُخلَف لمن كان يريد بعمله وسعيه ثواب الآخرة وجزاءها، بإخلاصه وقصده وجه الله، بالزيادة والمضاعفة لعمله وثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾.

٩- أن من قصد بعمله وسعيه مجرد الحياة الدنيا ومنفعتها العاجلة، ولا هم له في

الآخرة، أعطاه الله ما قسم له منها، وليس له في نعيم الآخرة والجنة أيُّ نصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

١٠- أن ما قُسم للإنسان من الدنيا آتيه لا محالة، لا يأتي به حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، سواء أراد بعمله الدنيا أو الآخرة.

١١- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢- الترغيب والحث على أن يريد الإنسان بعمله الآخرة، والتحذير من إرادة الدنيا فقط.

١٣- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، مما يوجب أن يحسن الإنسان نيته وقصده.

١٤- إثبات الإرادة والمشيئة والاختيار للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إنه مجبور على أفعاله وأقواله؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾.

١٥- الإنكار على المشركين اتخاذهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؛ من الشرك والتحليل والتحريم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن ما شُرع ووُضع من أنظمة دنيوية لا علاقة لها بالدين- كنظام المرور والأحوال الشخصية- فلا بأس به؛ لمفهوم قوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾.

١٧- تهديدهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا، وأنهم مستحقون لها عاجلًا، لولا أن الله بحكمته جعل للفصل بينهم أجلًا وهو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

١٨- إثبات الأسباب، فتأخير عقابهم بسبب كلمته عز وجل بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة.

١٩- تهديد ووعيد الظالمين بالكفر والشرك والمعاصي بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٠- إشفاقهم وخوفهم من عقاب كسبهم، وهو واقع بهم لا محالة؛ لانعقاد

أسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾.

٢١- التنويه بما أُعد للمؤمنين من روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم وأنواعه عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾.

٢٢- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.

٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل والصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

٢٤- إثبات الجنات، وأن فيها روضات، وما يشاؤه أهلها من النعيم.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾.

٢٦- عظم ما أعد الله للمؤمنين من هذا النعيم من وجوه عدة، وهو أنه من ربهم، وعنده، ووصفه عز وجل بالفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾.

٢٧- بشارة المؤمنين بهذا النعيم، والفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾.

٢٨- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَهُ﴾.

٢٩- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾، وقوله: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الآية.

٣٠- أنه ﷺ لم يسأل مشركي قريش أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه ونصحه لهم؛

إلا أن يَوَدُّوه، ولا يؤذوه لقرابته منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

٣١- أن من حقه ﷺ وتعظيمه ومحبته تعظيمَ حق قرابته ومحبتَهم؛ كما قال ﷺ في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: «**وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**»، فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»[١].

وعن العباس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال له: «**والله لا يَدخل قلبَ امرئ إيمانٌ حتى يحبكم لله عز وجل ولقرابتي**»[٢].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: «ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن أبا بكر قال لعلي رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»[٤].

وقال عمر للعباس رضي الله عنهما: «والله، لإسلامك يوم أسلمت كان أحب من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب»[٥].

قال ابن كثير[٦]: «فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين».

٣٢- وعد الله تعالى لمن اكتسب حسنة بزيادته له فيها حُسنًا، والمضاعفة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٨، وأحمد ٤/ ٣٦٦- ٣٦٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٠٧- ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ ٣٧١٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٧١٢، ومسلم في الجهاد ١٧٥٩.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٧/ ١٩٠.

٣٣- أنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، والشكور بإعطاء الثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

٣٤- الإنكار على المشركين اتهامهم له ﷺ بافتراء القرآن، واختلاقه على الله كذبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾.

٣٥- إبطال زعم المشركين باتهامهم له ﷺ بافتراء الكذب على الله، ببيان أنه لو فعل- وحاشاه من ذلك؛ لختم الله على قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾.

٣٦- إزالته عز وجل للباطل، وإحقاقه الحق بكلماته الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾.

٣٧- إثبات كلمات الله الكونية والشرعية، وإثبات الكلام له؛ كما يليق بجلاله وعظمته.

٣٨- إثبات علم الله التام بما في الصدور والقلوب والسرائر من المضمرات والأسرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعلمه بما سوى ذلك من باب أولى.

٣٩- التنبيه إلى أن مدار الأعمال على القلوب، مما يوجب مراقبتها وإصلاحها.

٤٠- امتنانه عز وجل بقبول توبة عباده، وترغيبهم بالتوبة، وعفوه وتجاوزه عن السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٤١- علم الله تعالى الواسع بجميع أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، وهذا يوجب على العبد مراقبة الله فيما يأتي وما يَذَر.

٤٢- استجابته عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإعطاؤهم ما يسألون، وزيادته إياهم من فضله ومضاعفته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾، وفي هذا ترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

٤٣- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب الشديد، والتحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: ولو وسَّع الله الرزق لعباده، وأعطاهم فوق حاجتهم.

﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لبغوا في الأرض فسادًا وطغوا وتجبروا، أشرًا وبطرًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال ﷺ: **«والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُفتَح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»**(١).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون: «يُنْزِلُ» بإسكان النون، وتخفيف الزاي.

أي: ولكن ينزل من الرزق ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، أي: بالقدر الذي يشاؤه بحكمته وعلمه مما فيه صلاحهم، فيعطي كلًّا منهم ما يناسب حاله من الغنى أو الفقر؛ كما جاء

---

(١) سبق تخريجه.

في الأثر: «من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه»[١].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ الجملة تعليلة، واللام للتوكيد، أي: لذو علم تام وبصر وإحاطة بهم وبأحوالهم، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيِّها وجليِّها، وما يصلحهم، وما يضرهم، فكم من أناس صار الابتلاء بالفقر وغيره سببًا لهدايتهم، وكم من أناس صار الابتلاء بالغنى ونحوه سببًا لضلالهم، وقد أحسن القائل:

قد يُنعِم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، أي: وهو وحده الذي ينزل المطر، وسمي المطر بـ«الغيث»؛ لأن الله يغيث به البلاد والعباد، أي: يرفع ما بهم من الشدة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾، أي: من بعد ما قنط العباد، أي: من بعد ما اشتد يأسهم من نزوله؛ لتأخره عن وقته، وهذا بيان للواقع، وليس تقريرًا للقنوط، فهو محرم، ومن كبائر الذنوب؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۝٤٩﴾ [الروم: ٤٩].

وإنزال المطر على حين قنوط من نزوله وشفقة له يكون أشد وقعًا في النفوس، وأبين لرحمة الله تعالى وفضله؛ لقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾، أي: ويبسط رحمته، وهي المطر، وما يحصل بسببه من نبات الأرض، وسعة الرزق، وحياة العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

قال قتادة: «ذُكر لنا أن رجلًا أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، قحط المطر، وقنط الناس. فقال: مطرتم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

﴿رَحْمَتَهُۥ﴾»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ وهو وحده الولي حقًّا لجميع الخلق ولاية عامة، والولي للمؤمنين ولاية خاصة، وولايته دائرة بين الإحسان والعدل، لا ظلم فيها، فيوفق بفضله من يشاء في أمر دينه ودنياه، ويحرم من يشاء.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وأمره ونهيه، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء، وكان ﷺ يقول: «**الحمد لله على كل حال**»(٢)، وكان ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا رأى ما يكره قال: «**الحمد لله على كل حال**»(٣).

وكم من ولي من الخلق- ولله المثل الأعلى- لا يُحمَد في ولايته، بل يذم أشد الذم؛ لتفريطه فيما ولاه الله عليه، وظلمه وغشمه، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومن آياته الدالة على كمال عظمته، وتمام قدرته، وعلى قدرته على إحياء الموتى، وجمعهم يوم القيامة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هذه المخلوقات العظيمة.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما» موصولة، تفيد العموم، أي: وخلق جميع الذي نشر وفرّق في السموات والأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: من كل ما يدب عليهما من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب، فضل الحامدين ٣٨٠٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٣، ٤] .

فأتى بالماضي، وأتى بالمضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهو عز وجل على جمع ما بث وما نشر في السموات والأرض من هذه الدواب الكثيرة والخلائق كلهم.

﴿إِذَا يَشَآءُ﴾، أي: إذا يشاء جمعهم، وذلك يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: لا يعجزه شيء.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ «ما»: شرطية، أي: وما أصابكم من مصيبة دينية، أو دنيوية.

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «بما» بغير فاء.

وقرأ الباقون بالفاء: ﴿فبما﴾، والفاء على هذا رابطة لجواب الشرط، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فهو بسبب الذي كسبته أيديكم، أو بسبب كسب أيديكم، أي: بسبب كسبكم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنوب والمعاصيَ سبب لكل مصيبة وبلية، فهي سبب لفعل المعاصي بعدها؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

كما أنها سبب للشدة والقحط ونزع البركات وغير ذلك من المصائب الدنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

والكسب يضاف للأيدي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وغير ذلك؛ لأن كثيرًا من

الأعمال تزاول بها، وهي الآخذة المعطية؛ كما قال ﷺ: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[(١)].

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: ويتجاوز عز وجل عن كثير مما كسبته أيديكم من السيئات، فلا يؤاخذكم به، ولا يعاقبكم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فيعفو عز وجل عن كثير من ذنوب عباده ويمحوها عنهم فضلًا منه وإحسانًا.

أو بما يقدر عليهم من المكفرات؛ كما قال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكُها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[(٢)].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وما أنتم بفائتين الله، ولا مفلتين من عذابه.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ «من»: لتوكيد عموم النفي، أي: وما لكم من دون الله أيُّ ولي يتولاكم ويجلب لكم الخير، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم، ويدفع عنكم الضر، وعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، أي: ومن آياته الدالة على عظمته ونعمته عز وجل، وتمام قدرته وسلطانه: ﴿ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، أي: السفن الجارية العظيمة الكبيرة التي سخرها الله وسخر البحر لتجري فيه بأمره عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، ما جاء في كفارة المرض ٥٦٤٢، ومسلم في البر، ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز ٩٦٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١] وأطلق عليها: «الجواري» دون «الفلك» إيماءً إلى العبرة في جريها على الماء وعدم غرقها مع عظمها وكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، أي: كالجبال من عظمها وكبرها.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ نافع: «الرِّيَاحَ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أي: إن يشأ يقطع هبوبها.

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾، أي: فيصرن هذه الجواري ويبقين ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: ثوابت على سطح البحر والماء، لا يتحركن، وفي هذا تهديد وتخويف لهم؛ ليشكروا الله على هذه النعمة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لدلائل على عظمة الله تعالى، وتمام نعمته، وعظيم سلطانه وقدرته.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ «صبار»: صيغة مبالغة، أي: كثير الصبر في الشدائد، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته.

﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء لنعم ربه، بنسبتها إليه عز وجل، والثناء عليه بها، وصرفها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

ووجه الجمع بين الشكر والصبر: أن الإنسان وهو على ظهر هذه السفن؛ إن جرت الأقدار بما يحب فالواجب عليه الشكر، وإن جرت الأقدار بما لا يحب فالواجب عليه الصبر.

وهذه هي صفة المؤمن؛ كما قال ﷺ: «**إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له**»[1].

أما غير المؤمن فإنه إن صبر في الضراء مكرهًا لم يشكر في السراء.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، أي: أو إن يشأ يوبقهن، أي: يهلكهن بالغرق بأهلهن، أو إن يشأ يصرفهن عن وجهة قصدهن بسبب قوة الريح، فيسرن على غير هدى كالآبق، فيهلكن بمن فيهن.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: بسبب الذي كسبوه، أو بسبب كسبهم، أي: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: ويعف عن كثير مما اكتسبوه من الذنوب، ولو آخذهم بذنوبهم لأهلك أكثر من ركب البحر.

ولكنه عز وجل من لطفه ورحمته يرسل الريح بحسب الحاجة؛ كما ينزل المطر بقدر الكفاية.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالرفع: «وَيَعْلَمُ»، على الاستئناف، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ عطفًا على محذوف منصوب للتعليل، أي: يغرقهم؛ لينتقم منهم ويعلم.

والمعنى: ويعلمَ الذين يحاجون ويخاصمون بآياتنا بغير الحق؛ ليبطلوها، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أيّ محيص، أي: أيّ مفر ولا مهرب من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ [النساء: ١٢١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الأرزاق كلها بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية.

٢- حكمة الله تعالى في قسمة الأرزاق بين عباده، فينزل بقدرٍ الذي يشاؤه، مما يصلحهم، ولا يطغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ﴾.

٣- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾،

وقوله: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

٤- أن من طبيعة الإنسان أنْ تُبْطِرَه النعمة فيطغى ويبغي في الأرض، إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فينبغي الحذر من ذلك.

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿يَشَآءُ﴾.

٦- تمام خبرته عز وجل وعلمه، وبصره واطلاعه على عباده وأحوالهم، وما يناسبهم ويصلحهم وما يضرهم، من بسط الرزق وعدمه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٧- امتنانه على العباد بإنزال الغيث عليهم من بعد قنوطهم وشدة يأسهم، ونشره رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

٨- أن المطر رحمة من رحمة الله تعالى؛ يحيي به العباد والبلاد.

٩- أن من طبيعة الإنسان الاستعجالَ في طلب الخير من الغيث وغيره، واليأسَ والقنوط عند تأخره عن وقته.

١٠- ينبغي على المؤمن تغليب جانب الرجاء وقت الشدة، وأن يكون رجاؤه بما عند الله أقوى من رجائه بما في يده، والحذر من القنوط من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

١١- إثبات اسم الله: «الولي»، وأنه سبحانه ذو الولاية العامة لجميع الخلق، وذو الولاية الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه عز وجل المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾.

١٣- أن من آيات الله الدالة على عظمته، وتمام قدرته على إحياء الموتى وبعثهم وجمعهم ليوم القيامة إذا شاء: خلق السموات والأرض وما بث فيهما من الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

١٤- إثبات المعاد، وبعث الخلائق، وجمعهم ليوم الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

١٥- تمام قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

١٦- أن ما يصيب العباد من مصائب دينية ودنيوية، فهو بسبب ما اكتسبوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٧- إثبات الأسباب، وتأثيرها في المسببات.

١٨- عفو الله تعالى عن كثير من ذنوب العباد، وعدم مؤاخذتهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ لكن ذلك مقيد بمشيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

١٩- تهديد المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله، ولن يفلتوا من عذابه، وما لهم غيره أيُّ ولي يتولاهم بجلب الخير لهم، ولا أيُّ نصير ينصرهم ويدفع عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

٢٠- أن من آيات الله الدالة على عظمته ونعمته، وتمام سلطانه وقدرته: تسخيرَ البحر لتجري فيه السفن العظيمة التي تشبه الجبال في كبرها وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

٢١- التهديد بأنه تعالى لو شاء لأسكن الريح، فظلت هذه السفن رواكد على سطح البحر لا تتحرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾.

٢٢- أنه لا يتأمل في هذه الآيات وينتفع بها إلا من كان عظيم الصبر على الشدائد، وعلى فعل الطاعات، وترك المعاصي، كثير الشكر لله تعالى بنسبة نعمه إليه عز وجل واستعمالها في طاعته، وهذا هو المؤمن حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر، والترغيب فيهما.

٢٤- التهديد بأنه عز وجل لو شاء لأهلك هذه السفن بالغرق بمن فيها، بسبب

ذنوبهم ومعاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، وفي هذا تحذير من السيئات، وأنها سبب للعقوبات.

٢٥- الوعيد للمجادلين في آيات الله بالباطل، بأنه لا محيص لهم ولا محيد من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾.

٢٦- ذم المجادلة لإبطال الحق، والتحذير منها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ «ما»: شرطية، و«من»: بيانية، أي: فما أعطيتم من أيِّ شيء، قليلًا كان أو كثيرًا، من ملك ورياسة ومال وبنين وصحة وغير ذلك. والخطاب عام لجميع الناس.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«متاع»: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو متاع الحياة الدنيا، الحقيرة الفانية، يُتمتع به، ثم سرعان ما ينقطع ويزول، أو يزول الإنسان عنه، فلا يغتر به؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، ﴿خَيْرٌ﴾ خيرية مطلقة من متاع

الدنيا، ومن الدنيا كلها، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وأدوم؛ لأن الدنيا كلها زائلة، وما عند الله لا يحُول ولا يزول، بل هو نعيم سرمدي أبدي. نسأل الله من فضله.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: للذين آمنوا خاصة، الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا لطاعة الله تعالى وعبادته بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم خاصة يعتمدون اعتمادًا كليًّا في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة بالله، وصدق الاعتماد عليه، والتفويض إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَبِيرَ» بالإفراد.

وقرأ الباقون: ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بالجمع.

والواو: عاطفة في المواضع الثلاثة، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل جر عطفًا على الموصول السابق، أي: والذين يجتنبون كبائر الذنوب التي تؤثم مرتكبها، أي: توقعه في الإثم، واستحقاقه العقوبة.

والكبيرة: كل ما نص الشرع على أنها كبيرة، أو رتب عليها عقوبة خاصة دينية، أو دنيوية، أو أخروية، فهي محدودة، لا معدودة[1].

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، أي: ويجتنبون الفواحش، وهي: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين؛ كالشرك والزنا وقول الزور، وغير ذلك.

والتعبير بـ«يجتنبون»؛ لأنه أبلغ من «يتركون»، أي: يجتنبون الكبائر والفواحش، وكل ما يؤدي إليها، ويبتعدون منها؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإذا غضبوا هم يغفرون، أي: يملكون أنفسهم عند الغضب، ويغفرون لمن

---

(١) انظر تفسير قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

أغضبهم، أي: يسترون عليه ويعفون ويتجاوزون عنه؛ كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ لما ذكر صلاح باطنهم بالإيمان والتوكل على ربهم، والعفو والصفح، أتبع ذلك بذكر ظاهرهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾ السين والتاء: للمبالغة، فـ«استجابوا» أبلغ من «أجابوا».

أي: والذين استجابوا لربهم، أي: أجابوه باتباع رسله، وفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا وما بعده معطوف على قوله: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله تعالى.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: وشأنهم العام الذي يهم الجميع يتشاورون فيه بينهم، فلا يستبد أحد منهم برأيه في الأمور المشتركة بينهم، بل يتشاورون، ويتبادلون الرأي فيها؛ كما كان ﷺ يستشير أصحابه، ويقول: «**أشيروا علي أيها الناس**»(٣)، استجابة لقول الله تعالى له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحضرته الوفاة، جعل الأمر شورى بين ستة من الصحابة رضي الله عنهم، فاجتمعوا على عثمان رضي الله عنه، واجتمع على

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، قول النبي ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**» ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل، مباعدته ﷺ للآثام ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥.

(٣) سبق تخريجه.

ذلك الصحابة رضوان الله عليهم.

ولهذا فإن الشورى في الإسلام إنما تكون بين أهل الحل والعقد، من أهل العلم والعقل والفضل والحكمة والحنكة والدهاء والسياسة والتجربة، وليست الشورى أن يوكل الأمر في الأمة إلى غوغاء الناس ودهمائهم؛ ليصوتوا ويختاروا من يريدون؛ كما يزعم أدعياء الديمقراطية الكاذبة الزائفة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ «من»: للجنس، أو تبعيضية، و«ما»: موصولة، أي: ومن الذي رزقناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجون المال في طرقه المشروعة: الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والمستحبة كالصدقة والهدية ونحو ذلك.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾. والبغي: الظلم والعدوان، أي: والذين إذا بُغِيَ واعتُدي عليهم ينتصرون ممن بغى واعتدى عليهم؛ لشجاعتهم وقوتهم وقدرتهم على الانتصار ممن ظلمهم.

وهذا مدح لهم على قوتهم وقدرتهم على الانتصار، وأنهم ليسوا بعاجزين، ولا ضعفاء ولا أذلاء، وليس مدحًا لهم على الانتقام واستيفاء حقهم، وإن كان ذلك جائزًا لهم.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبرا: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل؛ فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»[2].

قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٦٢٧، وأحمد ٢/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، لا تعجزن عن مأمور، ولا تجزعن من مقدور ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، وأحمد ٢/ ٢٦٦.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

لما مدحهم بالقدرة على الانتصار أمرهم بالعدل والمماثلة في المجازاة، وحرم الزيادة؛ لأن الانتصار قد لا تقف فيه النفوس عند العدل غالبًا، بل لا بد أن تتجاوز.

والمعنى: وجزاء سيئة من أساء أن يجازى بسيئة، أي: بعقوبة مثلها، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، أي: بمثل ما عوقبتم به كمًّا وكيفًا ونوعًا.

وإنما سميت مجازاة المسيئ ومعاقبته: سيئة، من باب المشاكلة لما قبلها، ولأنها تسوء الذي عوقب بها.

فأمرهم بالعدل في القصاص إن اختاروا الانتصار، ورغبوا في استيفاء حقهم، سواء كان ذلك بالأنفس أو الجراحات أو الأموال أو غير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ [المائدة: ٤٥].

ثم ندبهم إلى العفو والإصلاح بعد المقدرة، فقال:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، أي: فمن عفا عمن أساء إليه، و﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: قصد بعفوه الإصلاح، ووضعه فيمن يُصلحه العفو.

﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فأجره على الله قد تكفل عز وجل به، وأكرِمْ به من أجر، وأعظم به من جزاء، يعطيه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، بلا حساب، ولا يضيع عنده شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا، فقل: «يا أخي، اعف

عنه؛ فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو؛ فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلِّب الأمور»[١].

وقال ابن القيم: «ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»[٢].

قال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات[٣]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: لا يحب الظالمين المعتدين، وهم الذين يبتدئون بالسيئة، والذين يعاقبون عليها بأشد من مثلها.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد في الموضعين، أي: ولمن انتصر من ظالمه، واستوفى منه حقه، والضمير في ﴿ظُلْمِهِۦ﴾ يعود إلى المظلوم، أي: بعد أن ظلم.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لـ«من» في قوله: ﴿وَلَمَنِ﴾ على اعتبار معناها وهو الجمع، أي: فأولئك المنتصرون بعد ظلمهم، أي: بعد أن ظُلموا.

﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ما عليهم أيّ سبيل، أي: ما عليهم أيّ حرج ولا مؤاخذة؛ لأنهم إنما أخذوا حقهم.

ولهذا قال ﷺ: «**المُسْتبّان ما قالا فعلى البادي منهما، ما لم يَعتَدِ المظلوم**»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٢٠٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢١.

(٣) البيت للشافعي. انظر: «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار» ص١٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن السباب ٢٥٨٧، وأبو داود في الأدب ٤٨٩٤، والترمذي في البر، ما جاء في الشتم ١٩٨١، وأحمد ٢/ ٢٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٤/ ١١٦؛ من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: ما السبيل إلا على الذين يظلمون الناس، أي: إنما السبيل أي: الحرج والإثم والمؤاخذة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾، أي: يعتدون عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وغير ذلك.

﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويعتدون في الأرض ويتجاوزون الحد في حق الله بالمعاصي، وفي حقوق الخلق.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيان للواقع؛ لأن البغي كله بغير الحق.

قال ابن القيم: «فذكر المقامات الثلاثة في الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه، ومقام الظلم وحرمه»(١).

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الإشارة للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، ﴿أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم شديد موجع معنويًّا للقلوب، وحسيًّا للأبدان، بحسب مقدار ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ بعد أن توعد أهل الظلم والبغي ابتداءً، أو في المقاصة، أكد الأمر بالصبر والمغفرة والعفو، أي: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه وآذاه، فلم ينتصر.

﴿وَغَفَرَ﴾، أي: ستر ما حصل له من إساءة وأذى وتجاوز وعفا بعد القدرة على الانتصار والانتقام، لا عن عجز وذل وضعف.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: إن ذلك الصبر على إساءة من أساء، وستر إساءته، والتجاوز والعفو عنه بعد القدرة.

﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمن الذي يُعزَم عليه من الأمور، ودليل على أن من فعل ذلك، فصبر وستر، وعفا وغفر، فهو من ذوي العزم، ذوي الصفات العظيمة، التي عظمها الله، وأكبر شأن أهلها، وأنه لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظ العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢١.

[فصلت: ٣٤- ٣٥].

وذلك لأن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل أو بهما من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، إلا على من وفقه الله، ولقّاه هذه الخصلة العظيمة، فوفقه للصبر، وأعظم حظه، ويسر له ذلك، وأعانه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ «من»: شرطية، أي: ومن يصرفه الله عن الهدى كونًا وقدرًا بسبب ظلمه.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: فما له أيّ ولي يتولى أمره ويهديه ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾، أي: من بعد الله.

كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، غافر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب في الموضعين لغير معين، أي: وترى وتبصر الظالمين بالكفر والشرك.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: حين رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه بأعينهم.

﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، أي: يظهرون الأسى والندم العظيم على ما سلف منهم، والاستفهام للتمني، أي: هل من طريق أو حيلة إلى مرجع إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧] وهم كاذبون، ولهذا رد عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلْ

بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على النار، وهذا تفسير للعذاب في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

﴿خَٰشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متضائلين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ «من»: سببية، أي: بسبب الذل والهوان الذي في قلوبهم من شدة الهول.

﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينظرون إلى النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، أي: من بصر ضعيف مسارقة، ولا ينظرون إليها بملء أعينهم؛ لشدة انزعاجهم وخوفهم منها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تحدثًا بما أنعم الله به عليهم، واغتباطًا بالسلامة؛ مما لحق الظالمين من العذاب، وذلك حين ظهر مآل كل فريق.

﴿إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾، أي: إن الخاسرين الخسران المبين، الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة وما فيها من النعيم، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب الأليم، وخسروا أهليهم حيث فرق بينهم وبينهم، فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم؛ لأنهم إن كانوا كلهم في النار، فأهل النار لا يجتمعون أبدًا، وإن كان أهلوهم في الجنة؛ فقد حيل بينهم وبينهم.

﴿أَلَا إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: في عذاب دائم أبدي سرمدي.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: وما كان لهم أي أولياء ﴿يَنصُرُونَهُم﴾، أي: يدفعون عنهم العذاب ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا فما له أيّ سبيل، أي: أيّ طريق يهتدي به إلى الحق، ويخلص به من الضلال، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾، وكقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٨٨].

الفوائد والأحكام:

١- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، وأنها متاع زائل، وظل حائل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢- أن ما عند الله من الثواب العظيم، والنعيم المقيم خير من الدنيا كلها وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٣- أن ما وعد الله به عنده مما هو خير وأبقى، إنما هو للمؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٤- التحذير من الافتتان بالدنيا والاغترار بها، والترغيب بما عند الله؛ مما هو خير وأبقى.

٥- أن الجنة لا تفنى، ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾.

٦- امتداح المؤمنين والثناء عليهم بالصفات المذكورة، والترغيب فيها من الإيمان، والتوكل على ربهم، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لربهم، وإقام الصلاة، وكون أمرهم شورى بينهم، والإنفاق مما رزقهم الله، والانتصار بأنفسهم ممن بغى عليهم.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.

٨- وجوب الإيمان والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش.

٩- فضيلة العفو بعد المقدرة، والمغفرة عند الغضب، والإصلاح والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»[(١)].

فالعفو من المخلوق ظاهره: ضيم وذل ومهانة، وباطنه: عز وانتقام ورفعة.

وقد كان العفو من أخص صفات الأنبياء عليهم السلام؛ فقد قال يوسف عليه السلام لإخوته لما قالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١، ٩٢].

وقال ﷺ لأهل مكة بعد أن فتحها، ومكنه الله منهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(٢)].

وعفا ﷺ عن غَوْرَث بن الحارث الذي اخترط سيفه، وهو نائم، وأراد قتله[(٣)].

وعفا عن لبيد بن الأعظم الذي سحره[(٤)]، وعن المرأة التي سمت له الذراع يوم خيبر[(٥)].

١٠- وجوب الاستجابة لله تعالى، في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

١١- الحث على إقام الصلاة، فرضها، ونفلها، إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى.

١٢- فضيلة الشورى؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين، فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وهي مفخرة من مفاخر الإسلام، فاق بها جميع النظم والمذاهب والأديان، قال أحمد شوقي:

الدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء[(٦)]

---

(١) أخرجه مسلم في البر، استحباب العفو والتواضع ٢٥٨٨، والترمذي في البر، ما جاء في التواضع ٢٠٢٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة ذات الرقاع ٤١٣٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٤٣- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٨، ومسلم في السلام ٢١٨٩، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه أبو داود في الديات ٤٥١٠؛ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٦) هذا البيت من قصيدة لأحمد شوقي في مدح الرسول ﷺ مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء

انظر: «الشوقيات» ص٤٤

وقد أحسن حافظ إبراهيم في قوله من قصيدة له في مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١]:

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربي خيرًا عن محبيها

لم يلهك النزع عن تأييد دولتها ... وللمنية آلام تعانيها

لم أنس أمرك للمقداد يحمله ... إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها

إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعبًا ... فجرد السيف واضرب في نواحيها

فاعجب بقوة نفس ليس يصرفها ... طعم المنية مرًّا عن مراميها

درى عميد بني الشورى بموضعها ... فعاش ما عاش يبنيها ويعليها

وما استبد برأي في حكومته ... إن الحكومة تغري مستبديها

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[٢]

وقال الآخر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة[٣]

١٣- الترغيب في الإنفاق من رزق الله في وجوه البر الواجبة والمستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١٤- أن الرزق كله من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» ص٩١.

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.

(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» ١/ ٢٤٦.

﴿ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

١٥- ينبغي أن يكون المؤمن قويًّا بربه، ثم بإيمانه، فلا يقبل الضيم والذل والهوان لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

١٦- وجوب العدل في القصاص واستيفاء الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨].

١٧- الحث على العفو بعد القدرة، والإصلاح، والإغراء في ذلك، ببيان تكفله عز وجل بأجر من فعل ذلك، بلا حد ولا عد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

١٨- شتان بين من عفا عمن ظلمه بعد المقدرة وأصلح، رجاء الأجر من الله، وبين من آثر عدم العفو سواء أخذ حقه في الدنيا، أو في الآخرة، فبينهما مثل ما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء، والمشرق والمغرب، فلا يقارن من آثر الورود على الجواد الكريم ليجزيه من فضله بلا حساب، وبين من آثر الورود على الخلق ليقتص منهم سواء في الدنيا أو في الآخرة.

١٩- أن العفو إنما يندب إليه، ويرغب فيه، إذا كان فيه إصلاح للمعفو عنه، أما إذا لم يكن فيه إصلاح له، بل كان فيه ما يزيده جرأة على ارتكاب الإساءة مرة أخرى، أو أكثر، فلا يندب العفو عنه.

٢٠- تحريم الظلم بالاعتداء والإساءة إلى الآخرين، أو بالمعاقبة على السيئة بأشد منها، أو بغير ذلك؛ لأن الله نفى محبته للظالمين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢١- إثبات محبة الله تعالى للمؤمنين العادلين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٢- أن من انتصر بعد أن ظُلم باستيفاء حقه، فلا حرج عليه ولا مؤاخذة؛ لأنه إنما أخذ بحقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

٢٣- أن المؤاخذة والحرج والإثم على الذين يظلمون الناس بالاعتداء والإساءة إليهم ابتداءً، أو بالمعاقبة على الإساءة بأشد منها، وعلى الذين يبغون في الأرض بغير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٤- التهديد والوعيد للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٥- الترغيب في الصبر على أذى الخلق، والعفو عنهم، وبيان أن ذلك من عزائم الأمور، ومن أعظم الخصال التي لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظوظ العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد أحسن القائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم … وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها … وتصغر في عين العظيم العظائم[1]

٢٦- لا تنافي بين إباحة المجازاة بالمثل، واستيفاء الحق بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وتأكيد ذلك، بقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، وبين الندب إلى العفو بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وتأكيد ذلك بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، فاستيفاء الحق جائز، والعفو أولى.

٢٧- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فما له من ولي من بعده يهديه إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٢٨- أن من هداه الله فقد تولاه ولاية خاصة.

٢٩- شدة أسى الظالمين وندمهم على ما سلف منهم من الظلم والشرك، وتمنيهم حين رؤيتهم العذاب أن يكون لهم حيلة للرجوع إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحًا كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

---

(١) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

٣٠- شدة خضوعهم حين عرضهم على النار؛ بسبب الذل والخوف والهوان الذي في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾.

٣١- نظرهم إلى النار مسارقة ومن طَرْف خفي؛ لشدة خوفهم وانزعاجهم منها؛ ليقينهم أنهم صائرون إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، فاجتمع عليهم ذل الظاهر بهذا النظر الخفي، وذل الباطن بكونهم خاشعين من الذل.

٣٢- اغتباط المؤمنين وتحدثهم بما أنعم الله به عليهم من السلامة مما لحق الظالمين من الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

٣٣- أن الخاسرين الخسران المبين: هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة ونعيمها، وإيباقها في النار وجحيمها، وخسروا أهليهم حيث فُرِّق بينهم وبينهم إلى آخر ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٤- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء، والربح والخسران.

٣٥- أن عذاب الظالمين بالشرك والكفر عذاب مقيم أبدي سرمدي، لا انقضاء له، ولا نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

٣٦- عدم وجود أولياء لهم ينصرونهم غير الله يدفعون عنهم عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣٧- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فلا طريق له إلى الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ الآية.

لما ذكر حال الظالمين يوم القيامة، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا، وندمهم حين رؤية العذاب، وعظم ما أعد لهم من العذاب، أمر بالاستعداد لذلك اليوم وحذرهم منه.

أي: أجيبوا لربكم بالإيمان به وتوحيده، وطاعته بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه. والسين والتاء: للمبالغة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ «أن» والفعل «يأتي» في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى ﴿قَبْلِ﴾، أي: من قبل إتيان يوم، أي: من قبل مجيء يوم؛ يعني: يوم القيامة. ونكّر للتعظيم.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: لا يمكن لأحد رده ومنعه إذا أتى الله به، وهو

سبحانه لا يرده إذا أتى به؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي في الموضعين، أي: ما لكم أيّ ملجأٍ، أي: أيّ معاذ أو ملاذ تلجؤون إليه، وتلوذون به من عذاب الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إتيان ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠- ١٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾، أي: وما لكم أيّ نكير، أي: أيّ قدرة على إنكار ما وقع منكم من الظلم والتكذيب، أي: لا يسعكم إلا الاعتراف، أو ما لكم أيّ منكِر يُنكِر ما نزل بكم ويدافع عنكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ يعني: المشركين والمكذبين له ﷺ، أي: فإن أعرضوا عن الاستجابة لربهم، والإيمان به وتوحيده وطاعته، واستمروا على شركهم وظلمهم، فلا لوم عليك، أو فلا تحزن.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فما أرسلناك يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم، وتُسأل عنها، أو تُلزمهم الاستجابة والإيمان، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما عليك إلا البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر وصابر وجاهد في الله حق جهاده، وناله من الأذى من قومه ما تنوء بحمله الجبال، وهو صابر محتسب، يقول:

هل أنت إلا أصبع دَمِيتِ ... وفي سبيل الله ما لَقِيتِ[1]

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، من ينكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد والسير، ما لقي النبي ﷺ
=

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، أي: إذا أعطيناه منا رحمة وأوصلناها إليه، من صحة في بدنه، ورزق ورخاء، وأهل وولد، وغير ذلك من نعمنا التي لا تحصى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

﴿فَرِحَ بِهَا﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح اغتباط بنعمة الله تعالى وشكر.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾، أي: ما يسوء من قحط وجدب وفقر وشدة ومرض، ونحو ذلك، وهي ضد الرحمة والنعمة، أي: وإن يصبهم بلاء.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

والتعبير بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاوَل بها.

﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾، أي: جَحود لنعم الله تعالى، ينسى النعم السابقة، ويتسخط لما أصابه، وييأس ويقنط، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**أُريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن**». قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»(١).

=

من أذى المشركين ١٧٩٦؛ من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، كفر العشير ٢٩، ومسلم في الكسوف، صلاة الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣، وأحمد ١/ ٢٩٨.

قال ابن كثير(١): «وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «**إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(٢).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: لله وحده ملك السموات والأرض؛ فهو خالقهما وما فيهما من المخلوقات، ومالكهما، والمتصرف فيهما.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾، أي: يخلق الذي يشاؤه من المخلوقات، أي: يوجده من العدم.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، أي: يعطي تفضلًا منه للذي يشاؤه من عباده ﴿إِنَٰثًا﴾، أي: بنات.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: ويعطي تفضلًا منه للذي يشاؤه من عباده الذكور.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث جبرًا لهن، وتقديمًا لما كانت تؤخره الجاهلية، وتقديمًا لما يشاؤه على ما يشاؤه الأبوان غالبًا، قال ابن القيم: «وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف»(٣).

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾، أي: يعطي تفضلًا منه من يشاء الزوجين: الذكور والإناث.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾، أي: ويجعل بعدله الذي يشاؤه من عباده ﴿عَقِيمًا ۚ﴾، أي: فلا يلد ولا يولد له.

فجعل عز وجل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه الذكور، ومنهم من يعطيه النوعين، ومنهم من يحرمه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا يولد له.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢٣.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع محيط بكل شيء.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام قدرته على كل شيء، يخلق ما يشاء من المخلوقات، ويعطي من يشاء الإناث، ويعطي من يشاء الذكور، ويعطي من يشاء النوعين: ذكورًا وإناثًا، ويجعل من يشاء عقيمًا، لا يولد له، وله في ذلك الحكمة البالغة.

قال ابن كثير(1): «وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير».

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان لبشر تكليم الله له إلا وحيًا، «إلا»: أداة حصر، أو استثناء، ﴿وَحْيًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، أي: إلا أن يوحي إليه وحيًا. والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾، أي: أن يلقي الوحي في قلب الرسول ويلهمه من غير إرسال ملك أو مخاطبة منه شفاهًا.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٣.

قال ابن كثير[١]: «وهو أنه تعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا، لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل؛ كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله صلى الله عله وسلم أنه قال: «**إن روح القدس نفث في روعي؛ أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب**»[٢].

﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾، أي: أو يكلمه منه شفاهًا، لكن من وراء حجاب؛ كما كلم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد سأله موسى عليه السلام الرؤية بعد التكليم، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فقال عز وجل: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكما حصل للنبي ﷺ ليلة المعراج، فإن الله تعالى كلمه من وراء حجاب وفرض عليه الصلاة،

وحجابه النور؛ كما قال ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٣].

وقال ﷺ لما قيل له: هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيت نورًا**»[٣]، وفي رواية: «**نور؛ أنى أراه؟**»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا»[٤].

قال ابن كثير[٥] بعد سوقه هذا الحديث: «قد قُتل يوم أحد- يعني: والد جابر- ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا».

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم» ٨/ ١٦٦- «٧٦٩٤»، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٦؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وفي الجهاد، فضل الشهادة في سبيل الله ٢٨٠٠، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٤.

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ قرأ نافع برفع اللام: «أَوْ يُرْسِلُ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾.

أي: أو يكلمه بأن يرسل رسولًا من الملائكة؛ وهو جبريل عليه السلام الموكل بالوحي.

﴿فَيُوحِيَ﴾ قرأ نافع بإسكان الياء: «فَيُوحِيْ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿فَيُوحِيَ﴾، أي: فيوحيَ إلى الرسول ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: بإذن الله عز وجل الكوني.

﴿مَا يَشَآءُۚ﴾، أي: الذي يشاؤه الله عز وجل من الوحي.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾، أي: إنه عز وجل ذو العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿حَكِيمٞ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ في خلقه وقدره وشرعه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: مثل إحيائنا إلى غيرك من الرسل ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، ﴿رُوحٗا﴾، أي: قرآنًا تحيا به القلوب، ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾، أي: من أمرنا الشرعي.

فالقرآن به حياة القلوب؛ كما أن بـ«الروح» حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي هذا امتنان منه عز وجل في ختام السورة على النبي ﷺ بالوحي إليه وتعظيمه؛ كما ابتدأها عز وجل بذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ٣].

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾، أي: ما كنت تعلم وتعرف قبل وحينا إليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، أي: ما القرآن؟

ويحتمل أن المعنى: ما كنت تدري ما الكتابة؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فلم يكن ﷺ قبل الوحي إليه يعرف الكتابة، ولا الوحي والكتب السابقة.

﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ «لا»: لتأكيد النفي، أي: وما كنت تدري ما الإيمان؟ أي: ما شرائع الإيمان؟ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾، أي: ولكن صيرنا شرعًا هذا الكتاب والروح ﴿نُورٗا نَّهۡدِي﴾، أي: نرشد ونوفق ﴿بِهِۦ﴾ الباء: للسببية، أي: بسببه ﴿مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾، أي: الذي نشاء ونريد هدايته من عبادنا؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

قال ابن القيم: «فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين معًا؛ فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به»[1].

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ اللام: للتوكيد، أي: تدل وترشد إلى طريق عدل مستقيم، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: صراط الله وطريقه وشرعه.

وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه ووضعه، وهو موصل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: ٤١].

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: الذي له وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إلى الله وحده ترجع الأمور كلها، فيفصلها ويحكم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٧٦، فاطر: ٤، الحديد: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وإليه يرجع الخلائق كلهم يوم القيامة، فيفصل بينهم، ويجازيهم بأعمالهم؛ كما قال

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢٦- ١٢٧.

تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الاستجابة لله تعالى فورًا، بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا ترغيب بالمبادرة بالعمل، وذم للأمل؛ فإن للتأخير آفات.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكُم﴾.

٣- التحذير من يوم القيامة وأهواله وعذابه، والحث على الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٤- أنه لا راد ولا دافع ولا مانع لذلك اليوم إذا أمر الله بإتيانه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥- وعيد المكذبين وتهديدهم، وأنه ليس لهم أي ملجأ ولا مفر في ذلك اليوم، ولا يستطيعون أيّ نكير لما ارتكبوه من الظلم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

٦- تسليته ﷺ، وبيان أنه ليس حفيظًا على من أعرض واستمر على تكذيبه وكفره، يحفظ أعمالهم أو يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى من بعده.

٧- أنه ليس عليه ﷺ بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وكذا الدعاة بعده، أما هداية القلوب فبيد علّام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

وقد بلّغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين.

٨- أن من طبيعة الإنسان- إلا من هداه الله ووفقه- أنه إذا آتاه الله رحمة منه من نعمة ورخاء، فرح بذلك فرح بطر وأشر، ونسي شكر المنعم عليه، وإن أصابته سيئة، من شدة وابتلاء، كفر نعمة الله السابقة وجحدها وتسخط مما أصابه وأيس وقنط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

٩- أن الرحمة، وآثارها من جلب النعم ودفع النقم، كلها من الله تعالى.

١٠- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

١١- إضافة الكسب والعمل إلى اليد؛ لأنها هي الآخذة والمعطية، وأكثر الأعمال تزاول بها.

١٢- اختصاص الله عز وجل بجميع ملك السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وتدبيره ذلك كله وتصريفه على ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٣- قدرة الله التامة على خلق ما يشاء من المخلوقات؛ لسعة علمه، وقدرته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

١٥- حكمة الله تعالى في هبته لمن يشاء من عباده إناثًا، وهبته لمن يشاء الذكور، وهبته لمن يشاء الذكور والإناث، وجعله من يشاء عقيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

١٦- يجب ألا ييأس من كان عقيمًا أن يرزقه الله الولد، ولا من كان نسله إناثًا ويريد الذكور، أو من كان نسله ذكورًا ويريد الإناث؛ أن يهبه الله ما يريد؛ لأن الله يخلق ما يشاء.

١٧- يجب على الإنسان أن يرضى بما قسم الله له وقدر من الذرية أو عدمها، فلا يسخط لكونه عقيمًا، ولا لكون نسله إناثًا، فلله الحكمة في ذلك، وليعلم علمًا يقينيًّا أن الخيرة فيما اختاره الله له.

كما ينبغي ألا يغتر من رزقه الله الذكور، أو الذكور والإناث، وليحذر أن يكون ذلك استدراجًا له، وتكليفًا لا تشريفًا.

١٨- في تقديم الإناث في الآية جبر لهن، ومخالفة لنظرة الجاهلية الدون لهن، وإظهار

أنه لا اختيار للزوجين، فما اختاره الله وشاءه وهبه لهما ولو خالف رغبتهما وإرادتهما.

١٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾.

٢٠- أنه عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

٢١- في اقتران صفة العلم الواسع والقدرة التامة في حقه عز وجل إثبات كمال خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٢- أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا من طريق الوحي، بأن يلقي ويقذف في قلب الرسول ويلهمه ما يعلم يقينًا أنه من عند الله، أو يكلمه من وراء حجاب؛ كما كلم موسى عليه السلام، أو يرسل رسولًا من الملائكة كجبريل عليه السلام أو غيره، فيوحي بإذنه تعالى إلى الرسول ما يشاؤه سبحانه من الوحي، وليس ثمة طريق غير هذه الطرق الثلاث؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ﴾.

٢٣- إثبات عظمة الله تعالى، وأنه لا يستطيع أحد من البشر تلقيَ كلامه عز وجل إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو بواسطة رسول يرسله من الملائكة.

٢٤- إثبات تكليم الله تعالى للرسل بالطرق الثلاث، وإثبات كون الرسل من البشر؛ خلافًا لمن أنكر ذلك من الأمم المكذبة للرسل.

٢٥- إثبات وجود الملائكة، وأن منهم الرسل بينه وبين الرسل من البشر، وبينه وبين خلقه.

٢٦- إثبات صفة العلو المطلق لله تعالى: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾.

٢٧- إثبات أنه سبحانه ذو الحكم التام: الكوني، والشرعي، والجزائي. وذو الحكمة البالغة: الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٨- امتنان الله بإنزال الوحي عليه ﷺ في ختام هذه السورة؛ كما امتن عليه بذلك في أولها، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾؛

كما قال في أولها: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣].

٢٩- أن القرآن الكريم روح من أمر الله تعالى به حياة القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾.

٣٠- أنه ﷺ قبل وحي الله تعالى إليه ما كان عنده علم بالكتاب، لا بالقرآن ولا بالكتابة، ولا بالإيمان، حتى أنزل الله عليه القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

٣١- منة الله تعالى ونعمته في جعله القرآن نورًا وهدى يوفق بسببه الذي يشاء هدايته وتوفيقه من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٢- أن الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة، وعبودية من اهتدى منهم عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٤- تشريفه عز وجل لنبيه ﷺ بخطابه له، وشهادته له، وثناؤه عليه وعلى هديه، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وهو صراط الله ودين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

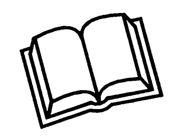
٣٥- امتداحه عز وجل لصراطه ودينه، والإغراء باتباعه وتعظيمه لنفسه بعموم ملكه وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

٣٦- أن مصير جميع لأمور ومردها إلى الله تعالى، يفصل ويحكم فيها، وأن مرجع جميع الخلائق إليه تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

* * *

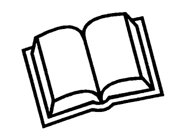
فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

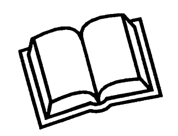
✍

✍

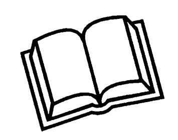
✍



مفكرة



✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

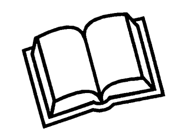
✍

✍

✍

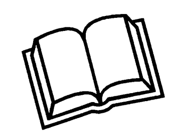
✍

✍



مفكرة





مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958